الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 11 - Issue 123 - April 2009

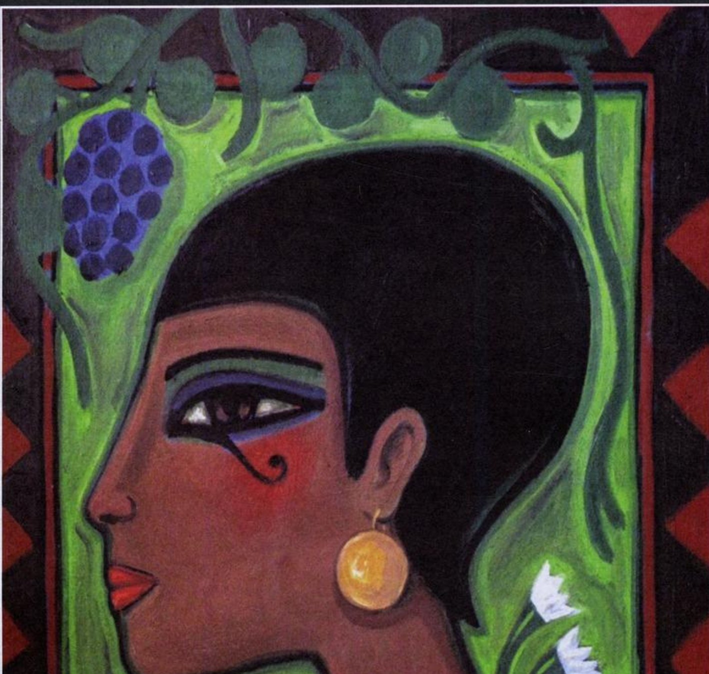
مجلة شهرية . العدد المائة وثلاثة وعشرون - السنة الحادية عشرة - أبريل ٢٠٠٩ . الثمن عشرة جنيهات

1 Shot 2 Kills .. أسئلة العدالة

أيمن الصياد

من يدفع ثمن قهوتك / تيم هارفورد

السادية الأمريكية الرسمية / أنطونى لويس



" نفرتارى وأخوتها "

فى معرض حلمى التونى

السنة الحادية عشرة
العدد ١٢٣
أبريل ٢٠٠٩

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس التحرير
أيمن الصياد
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد بهاء شعبان.. كاتب وسياسي مصري.
- أحمد علي الجارم.. أستاذ الطب بجامعة القاهرة وعضو مجمع اللغة العربية.
- أنطوني لويس.. كاتب بجريدة النيو يورك تايمز.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- تيم هارفورد.. اقتصادي وصحفي إنجليزي.
- ستيفن لاندسبرج.. أستاذ الاقتصاد بجامعة روتشستر.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
- مايكل ماسينج.. كاتب في النيو يورك ريفيو أوف بوكس.
- منال الجسري.. صحفية.
- ناصر الرباط.. أستاذ الأغاخان لتاريخ العمارة الإسلامية M.I.T
- يوسف الشاروني.. ناقد أدبي.
- يوسف الشريف.. صحفي.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي
لوحة الغلاف: للفنان حلمي التوني
زيت على قماش من معرض «نفرتاري وأخواتها»

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

قـــــــــــراءة

1 SHOT 2 KILLS

أســـــــئلـة العـــــدالـة

أيـــــــمـــــــن الـصـــــــيــــــاد

لمـــاذا لـــم تتـــم محاســـبــة الإســـــرائيليين؟ علينـــا أن نوجـــه السـؤال لأنفســنا قبـــل أن نوجهـــــه للعـــــــالـــم

■■ اربعة أخبار فى أسبوع واحد:

- فى الشروق المصرية: (التى يحسب لها أنها سبقت بالخبر)، نبأ الغارة التى قامت بها طائرات (امريكية أو إسرائيلية لا فرق) على قافلة سيارات داخل أراضى دولة مستقلة ذات سيادة، وعضو فى الأمم المتحدة.

- فى هآرتس الإسرائيلية: خبرٌ صادمٌ عن قمصان T- Shirts انتشرت بين الجنود الإسرائيليين الذين شاركوا فى اجتياح غزة الوحشى الأخير، مطبوع عليها شعارات صادمة. من بينها رسم لأم فلسطينية حامل وتحت الرسم عبارة تقول: «اقتل اثنين برصاصة واحدة، 1 SHOT 2 KILLS (ربما لم يكن أحد منا لينتبه للأمر لولا أن تحدث عنه الأستاذ هيكل فى الجزيرة).

- على ماكينات التيكرز: أوكامبو، المدعى العام للمحكمة الجنائية الدولية يطالب المجتمع الدولى بالتضافر من أجل تنفيذ أمر المحكمة باعتقال «الرئيس» عمر البشير. خاصا بالذكر «الجارتين» مصر وليبيا. معتبرا أن هذه القضية ستمثل «اختبارا حقيقيا للعدالة الدولية».

- فى نيويورك: وجهت منظمة هيومان رايتس ووتش، اتهامات لإسرائيل بارتكاب جرائم حرب فى غزة. وذلك فى بيان عرض «أدلة موثقة» على قيام الجيش الإسرائيلى بإطلاق قذائف الفوسفور الأبيض بصورة غير مشروعة على مناطق ذات كثافة سكانية عالية فى قطاع غزة.

هل تبدو الأخبار الأربعة ذات صلة.؟ ربما. مصادفة / أو مفارقة .. لا فرق.

لا أحد يجادل فى أن هناك ازدواجا فى المعايير جعل البعض يكفر بالشرعية الدولية. وربما كان هذا جوهر أزمة «المصداقية» فى النظام العالمى الذى صاغه المنتصرون فى الحرب الكونية قبل ستين عاما محتكرين الفيتو والعضوية الدائمة فى المجلس الذى يفترض أنه يقوم على الأمن والسلم الدوليين، فى وقت استدعت فيه دماء ملايين الضحايا، الحاجة إلى الأمن والسلم لتتصدر كل الأولويات قبل قيمة العدل و إنصاف المساواة.

قد يكون ذلك صحيحاً، وهو كذلك. ولكنه لا يبرر أبدا ذلك «التفسير سابق التجهيز» الذى يجرى استدعاؤه دائما - بمناسبة أو بدونها - والذى يلخصونه فى عبارة واحدة مللنا سماعها: «نحن مستهدفون».. لأننا عربٌ، ولأننا مسلمون» يُلحُ علينا بالفكرة ذاتها يوميا أصحابُ هذا القول- ومنهم للأسف مثقفون وسياسيون ورجال حكم. حريصون دائما - وهم يصرخون أو يتباكون - على أن يشيروا بأصبع السبابة بعيدا، حتى لا يرى الجمهور خطرا أو يأبه له إلا إذا جاء من الخارج، غافلا عن حقيقة أن أدواء الداخل متمثلة فى غياب الديموقراطية و«العدل» والحكم الرشيد، يمكن أن تكون أشد خطرا. فضلا عن أنها غالبا هى التى تستدعى الخطر الذى يأتى من الخارج متذرعاً - بالحق أو بالباطل - بدعاوى إصلاح بات ملحاً، أو بحقوق إنسان بدت مهدرة.

هل كان علينا انتظار ست سنوات كاملة، منذ أن اندلعت الأزمة فى دارفور حتى يصل الأمر إلى ماوصل إليه، فيهرع الجميع لإنقاذ مافات وقت إنقاذه؟ ألم يكن قرار مجلس الأمن رقم ١٥٥٦ فى يوليو ٢٠٠٤، قبل سنوات أربع كاملة كافيا لتنبيهنا إلى واقع عالمى جديد؟

بداية، لابد من الاتفاق على أن «المتآمرين الغربيين» لم يكونوا هم الذين افتعلوا أزمة دارفور أصلا قبل ست سنوات، ثم عملوا على تفاقمها كذريعة لاستهدافهم السودان. ربما هناك من استثمرها لغرس «بذور قلق» تتطلبه مصالحه فى هذه المنطقة، أو «لريها» ورعايتها على الأقل. ولكن هذه هى السياسة. فماذا فعل «رجالها» على الجانب الآخر؟! كان من المفترض أن يكون هناك من يزن الأمور بميزانها، مدركا فى أى زمن نعيش، فيعمل على الحيلولة دون نشوب حريق بدا شرره فى الأفق. ولكن الذى جرى أن النظام السودانى استهان بالمسألة كلها، وأن النظام الرسمى العربى، الذى اجتمعت قمته على تخومها فى الخرطوم (٢٠٠٦)، شُغل عنها، ربما بحرائقَ أخرى كانت قد اشتعلت فعلا هنا وهناك، أو بانكفاءِ كلٍ «منشغل ببقاله» على ذاته منزويا فى ركن يظنُه بعيدا عن العاصفة.

....

وكان أن وقعت الواقعة، وصدر قرارٌ قضائى «غير مسبوق» باعتقال رئيس دولة وهو فى الحكم. وكان أن أول من صدر بحقه مثل هذا القرار، رئيس عربى. ليصبح لنا «السبق» كما كان لنا فى هذا اليوم البعيد «صبيحة الأضحى» حين شاهدنا مع العالم كله، رئيسا عربيا يساق إلى المشنقة.

كان لافتا يومها ملاحظتان: الأولى أن المشهد كاملا تم بثه «أولا» على موقع YouTube قبل أن تنقله محطات التلفزة.

والثانية أن التصوير تم بكاميرا هاتف نقال. وكان فى الملاحظتين. فضلا عن الواقعة ذاتها. إشارة كافية أننا أمام عصر جديد .. وآليات جديدة.

والحاصل أن مابدا تقصيرا وتباطؤا فى التعامل الجاد مع أزمة دارفور منذ يومها الأول يقول بأن هناك من لم يدرك بعد أننا أمام عصر جديد وآليات جديدة. بل كان مثيرا أن ٩٠٪ (ولا أبالغ) ممن علقوا على قرار المحكمة باعتقال البشير فى الصحف أو فى الفضائيات (مسؤولين أو إعلاميين) بدوا وكأنهم لم يكلفوا أنفسهم عبء قراءة بنود «نظام روما الأساسى» الذى يتصرف فى إطاره قضاة المحكمة الجنائية الدولية. فتحدثوا مثلا عن «حصانة مفترضة لرؤساء الدول والحكومات» تحميهم من الملاحقة القانونية.. رغم أن المادة ٢٧ من نظام روما والتى عنوانها نصا «عدم الاعتداد بالصفة الرسمية» تنص صراحة على مايلى:

١- يطبق هذا النظام الأساسى على جميع الأشخاص بصورة متساوية دون أى تمييز بسبب الصفة الرسمية، وبوجه خاص فإن الصفة الرسمية للشخص، سواء كان رئيساً لدولة أو حكومة أو عضواً فى حكومة أو برلمان أو ممثلاً منتخباً أو موظفاً حكومياً، لا تعفيه بأى حال من الأحوال من المسئولية الجنائية بموجب هذا النظام الأساسى، كما أنها لا تشكل فى حد ذاتها، سبباً لتخفيف العقوبة.

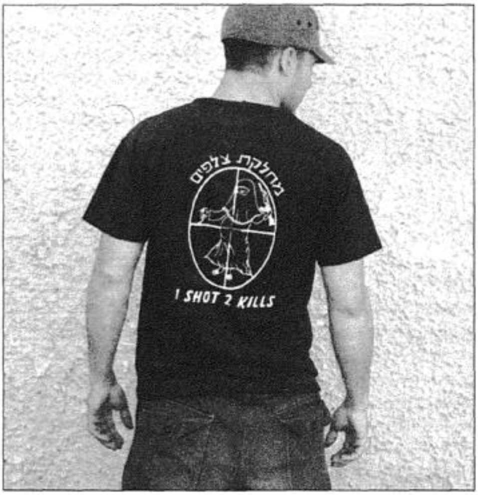
٢- لا تحول الحصانات أو القواعد الإجرائية الخاصة التى قد ترتبط بالصفة الرسمية للشخص سواء كانت فى إطار القانون الوطنى أو الدولى، دون ممارسة المحكمة اختصاصها على هذا الشخص».

كما تنص المادة ٢٨ بند ٢ لمن يهمه الأمر - وهم فى الأغلب كثير عندنا - على:

«بالإضافة إلى ما هو منصوص عليه فى هذا النظام الأساسى من أسباب أخرى للمسئولية الجنائية عن الجرائم التى تدخل فى اختصاص المحكمة:

يُسأل الرئيس جنائياً عن الجرائم التى تدخل فى اختصاص المحكمة والمرتكبة من جانب مرؤوسين يخضعون

الـــذيـــن علقــــوا عــــلى قــــرار المحكمـــــة، بـــدا أنهـــم لـــــم يقـــرءوا أبــــدا قوانينهـــــا



© Yanai Yechiel

إسرائيل .. والمحكمة

على الذين مازالوا يذكرون النوايا الإسرائيلية المعلنة نحو إبعاد فلسطينيى ١٩٤٨ (الترانسفير) أن يقرءوا جيدا نص الخطاب الرسمى الذى أرسلته تل أبيب إلى الأمم المتحدة فى ٣٠ يونيو ٢٠٠٢ تعلن فيه أنها «لن تصدق» على ميثاق روما للمحكمة الجنائية الدولية. مستخدمة نفس العبارات التى استخدمتها إدارة بوش فى رسالتها المشابهة. وجاء فى نص الخطاب نقلا عن الموقع الرسمى للخارجية الإسرائيلية:

Israel states that it has "deep sympathy" with the goals of the court. However, it has concerns that political pressure on the court would lead it to reinterpret international law or to "invent new crimes". It cites the inclusion of "the transfer of parts of the civilian population of an occupying power into occupied territory" as a war crime as an example of this, whilst at the same time disagrees with the exclusion of terrorism and drug trafficking. Israel sees the powers given to the prosecutor as excessive and the geographical appointment of judges as disadvantaging Israel which is prevented from joining any of the UN Regional Groups.

لسلطته وسيطرته الفعليتين نتيجة لعدم ممارسة سيطرته على هؤلاء المرؤوسين ممارسة سليمة.

أ) إذا كان الرئيس قد علم أو تجاهل عن وعى أى معلومات تبين بوضوح أن مرؤوسيه يرتكبون أو على وشك أن يرتكبوا هذه الجرائم.

ب) إذا تعلقت الجرائم بأنشطة تندرج فى إطار المسئولية والسيطرة الفعليتين للرئيس.

ج) إذا لم يتخذ الرئيس جميع التدابير اللازمة والمعقولة فى حدود سلطته لمنع أو قمع ارتكاب هذه الجرائم أو لعرض المسألة على السلطات المختصة للتحقيق والمقاضاة».

أيا ماكانت تفاصيل المواد القانونية، وأيا ماكان الأمر بشأن «حقيقة ماجرى» فى دارفور، وحقيقة الذين يتحملون المسؤولية عن وصول الأمور إلى ماوصلت اليه، فإن سؤال «ازدواجية المعايير» كان مطروحا دائما فى خطاب رد الفعل العربى، تساوت فى ذلك تصريحات رسمية، مع تظاهرات الشارع. وكان السؤال الذى رفعه الجميع لافتة يصرخون حولها، مكتفين بها، هو: «لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين على ما اقترفوه من جرائم حرب؟»

ورغم أن السؤال جوهرىٌ ومهمٌ ومطلوب، إلا أننى أخشى أن أقول أولا أنه لايمكن «قانونيا» الدفع به. لأن القاعدة القانونية ـ كما يعرف أهل الاختصاص. أنه «لاتزر وازرة وزر أخرى»، بمعنى أن جريمة فى دارفور (إن كانت قد حدثت، ولسنا هنا فى موضع تحقيق أو إدانة) لايبررها قانونا جريمة فى غزة أو فى أى مكان آخر.

كما أننى أخشى ثانية أن أقول أن علينا أن نوجه السؤال لأنفسنا كما نوجهه للعالم: لماذا لم تتم محاسبة الإسرائيليين؟

الإجابة شديدة البساطة: لأن لا أحد منا «جديًا» حاول تقديمهم للعدالة (!)

لم نفعل ذلك يوم اكتشف العالم كله ـ بالأدلة الموثقة ـ ماجرى فى قانا (اسألوا بطرس غالى).

ولم نفعل ذلك يوم اعترفوا بأنفسهم بما فعلوه بالأسرى المصريين فى سيناء (ارجعوا إلى التصريحات الرسمية للخارجية المصرية).

ولم نفعل ذلك يوم أن شهد العالم كله على الهواء مباشرة قذائف الفوسفور تضىء سماء غزة، والطائرات تقصف المستشفيات وسيارات الإسعاف ومدارس «الأونروا» التابعة للأمم المتحدة).

كما أننا لم نفعل أى شىء «لتفعيل» قرار محكمة العدل الدولية بعدم شرعية «جدار العزل» العنصرى الذى لم يتوقف الإسرائيليون، رغم القرار الدولى عن المضى فى بنائه.

من يتقاعس عن المطالبة بحقه، لايحق له أن يشكو. أليس كذلك؟

جرى ماجرى فى غزة، قبل ثلاثة أشهر كاملة، ولم يكن هناك خلاف أبدا حول أن ماجرى كان جريمة حرب بكل المقاييس. قال بذلك الجميع، حتى من الإسرائيليين أنفسهم (أرجوكم ارجعوا إلى ماكتبه آفى شلايم وجيمى كارتر ووثائق منظمة «بيتسليم» الإسرائيلية ـ «وجهات نظر» فبراير ٢٠٠٩)

لاخلاف إذن.. ماذا بعد؟ لا شىء.. لماذا؟ لأن الحق لا يأتى لأصحابه «القاعدين» هكذا على طبق من ذهب.

يومها سمعنا كلاما كثيرا من سياسيين و«متظاهرين» ورجال حكم عن ضرورة تقديم الإسرائيليين الملطخة أيديهم بالدماء إلى «المحكمة الجنائية الدولية». ثم..... لا شىء.

وبدا المشهد كله هزليا.

الصارخون.. والجالسون أمام الكاميرات.. و«المطمئنون لشعوبهم» الثائرة، بدوا كأن لم يقرأ أحدُهم يوما قانون المحكمة، ليعرفوا كيف لهم أصلا اتخاذ هذه الخطوة. وماهى الخطوات اللازمة لذلك. وماإذا كانت ممكنة أم غير ذلك.

وكان الأكثر مدعاة للسخرية، أن أولئك «العرب» الذين صدعوا رؤوسنا بأنهم سيلجأون إلى المحكمة الجنائية الدولية، تناسوا أن جلهم كانوا قد رفضوا ابتداء ولاية تلك المحكمة بعدم التصديق على معاهدتها. (ثلاث دول عربية فقط انضمت لتلك الهيئة القانونية الدولية، بينها جيبوتى وجزر القمر!)

كما كان لافتًا أيضا أن الذين قاموا بجهدٍ «حقيقى» فى إعداد ملفات إدانة الإسرائيليين بجرائم حرب، هى المنظمات الحقوقية الدولية «نفسها» التى نوجه له الاتهامات صباحًا ومساء بأنها منظمات «صهيونية» إذا تطاولت ذات مرة وتحدثت عن الحريات وانتهاك حقوق الإنسان فى بلادنا «العادلة».

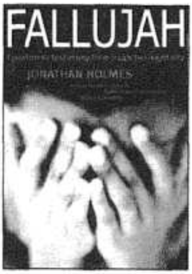
....

....

لاشىء «يمكث فى الأرض» إذن. وإنما «زبدٌ» وكلام مكرر عن المؤامرة «الدولية» على العرب والمسلمين، وعن الأمريكيين «المجرمين» ثم: «لا حظَّ لنا فى هذا العالم المتواطئ..» هكذا قال أحدهم على شاشة فضائية شهيرة (!)

«لا حظَّ لنا»...

هكذا لخصنا المسألة... ثم استدرنا إلى الطاولة «نلعب النرد». ■





يجيب الكاتبان في مقدمتيهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟

حدث في الفلّوجة

منال الجسري

قبل خمسة أعوام كاملة، وبالتحديد في مثل هذا الشهر (أبريل / نيسان) فاجأت «الفلوجة» العراقية العالم كله، والعسكرية الأمريكية خصوصا، بمعركتها الأولى حينما فشلت القوات الأمريكية عالية المستوى في السيطرة على المدينة الصغيرة، التي أبدت مقاومة لابد أن يذكرها التاريخ. بعد أشهر من المعركة الأمريكية الخاسرة، وبالتحديد في نوفمبر من العام نفسه، ذهبت قوات المارينز للانتقام، وكانت مذبحة مروعة.

اليوم، والعالم كله، بمناسبة دارفور يتحدث عن القانون الدولي الإنساني، نتذكر «الفلوجة» ونعرض هنا لكتب وتقارير وشهادات ووثائق، وننشر مقالا لأنتوني لويس (الكاتب الأمريكي) يذكرنا فيه أيضا بما جرى في «جوانتنامو» معتبرا أنه «تبرئة للضمير الأمريكي» ينبغي تقديم بوش، ورامسفيلد للعدالة.

المحرر

■■ في يناير الماضي، استطاع الصحفي بيتر كوكبرن، مراسل جريدة الأندبندنت البريطانية، أن يقوم بزيارة أخيرة لمدينة الفلوجة. وفي مقاله الذي نشر بتاريخ ٢٨ يناير كتب: «إن دخول مدينة الفلوجة أصعب من دخول أي مدينة أخرى في العالم».

الهدف من وراء الصعوبات ليس منع الناس من دخول المدينة فحسب، ولكن أيضا منع حقيقة الانتهاكات التي قام بها الجيش الأمريكي خلال معركتي الفلوجة (أبريل ونوفمبر ٢٠٠٤) من الوصول إلى العالم الخارجي.

ليس أدل على ذلك مما قالته الصحفية الإيطالية جوليانا سجانا: «لا يمكن أن يكون هناك شهود على هذه الحرب لأنها حرب مبنية على الأكاذيب». سجانا كانت أحد الشهود الذين استعان بهم المخرجان سيجفريدو رانوتشي وموريتزيو توريالتا في فيلمهما: فلوجة - المذبحة المخفية، والذي عرض على قناة راي في نوفمبر ٢٠٠٥.

وتضيف سجانا، التي منعها خاطفون من نشر ما رأته في الفلوجة: «لقد سمح الأمريكيون للصحفيين المزروعين فقط بتغطية هذه الحرب».

ولكن بالرغم من أن العالم الغربي لم ير حرب الفلوجة سوى من خلال فتحة صغيرة في جانب الدبابات الأمريكية، يظهر مع مرور الوقت شهود عيان عاشوا هذه الحرب ومستعدون لتقديم شهاداتهم بدون خوف. من أبرز هؤلاء الشهود جندي المارينز السابق جيف ايكلهارت. في فيلم قناة راي، يسأل ايكلهارت عما سيخبر أولاده عن حرب الفلوجة التي شارك فيها، فيجيب: «إنها تمثل القتل الجماعي للعرب».

في العام الماضي، ظهر كتابان جديدان عن حرب الفلوجة. الكتابان يتخذان من شهادات شهود العيان أساسا لهما. الأول هو فلوجة - شهادات من مدينة العراق المحاصرة، وقام بكتابته الكاتب والمخرج والأكاديمي البريطاني جوناثان هولمز. أما الكتاب الثاني فهو معركة الفلوجة - هزيمة امريكا في العراق، من تأليف مذيع قناة الجزيرة أحمد منصور. بينما قام هولمز بجمع شهادات عن معركة الفلوجة وتحويلها إلى مسرحية واقعية في الجزء الثاني من كتابه، قام منصور بسرد تجربته الشخصية على رأس الطاقم التليفزيوني الوحيد المتواجد داخل الفلوجة خلال حصارها الأول في أبريل ٢٠٠٤.

Fallujah
Eyewitness Testimony from Iraq's Besieged city

فلوجة
شهادات شهود عيان من مدينة العراق المحاصرة
جوناثان هولمز (مع مقال موسع لسيللا الوورثي المرشحة لجائزة نوبل للسلام)
Constable, 2007, 218 pp, (English pound) 7.99

معركة الفلوجة
هزيمة أمريكا في العراق
الكاتب: أحمد منصور
الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٤٤٥ صفحة

Fallujah: The Hidden Massacre
Duration: 27 minutes
Directed by Sigfrido Ranucci and Mauizio Torealta
Produced by the Rai Channel
Aired Nov. 8, 2005

لماذا الفلوجة؟

يجيب الكتابان في مقدمتيهما عن السؤال الأهم: لماذا الفلوجة؟ كل من شهد هذه الحرب لا يستطيع وصف ما حدث بها سوى أنه عقاب جماعي لأهل الفلوجة. يكتب منصور: «وقد اعترف جنرال ناتونسكي قائد قوات المارينز بأنه حصل على الضوء الأخضر من بوش ورامسفيلد لتدمير الفلوجة على رؤوس من فيها»، وقال في تصريحات نشرت في ١٦ نوفمبر، أي بعد أسبوع من بداية عملية تدمير وحرق المدينة: «حصلنا على الضوء الأخضر هذه المرة أن نقوم بالعمل حتى النهاية بأكبر قدر ممكن من النيران وفي أسرع وقت ممكن بعيدا عن أنظار العالم».

إذن قامت معركة نوفمبر ٢٠٠٤ للانتقام من أهل الفلوجة بعد هزيمة معركة أبريل، حينما فشلت القوات الأمريكية في السيطرة على المدينة بالرغم من قتلها لمئات المدنيين وتدميرها للبنى التحتية والمستشفيات. أما معركة أبريل فقد شنت للانتقام من أهل الفلوجة بعد أن قتلت المقاومة بالمدينة أربعة أفراد من المرتزقة العاملين بشركة بلاك ووتر وبعد تمثيل أطفال المدينة

كل من شهد هذه الحرب لا يستطيع وصف ما حدث بها سوى أنه عقاب جماعى لأهل الفلوجة

بجثث هؤلاء المرتزقة أمام شاشات التليفزيون. يكتب منصور نقلا عن مسئول أمريكى: «نحتاج للحصول على نتائج. إذا سمح لهذا الحادث أن يمر دون عقاب أو بدون تحقيق فيه، وإذا تم قبوله ثمنا للتعامل فى الفلوجة، فإن هذا سيكون علامة سيئة».

كان الانتقام فى المعركتين وحشيا. فى الفيلم الوثائقى نرى صورا بالأقمار الصناعية للمدينة بعد معركة نوفمبر. الصور تبين مدينة محروقة بالكامل. المدينة المقاومة كانت لا بد أن تمحى من الوجود، وكان لا بد كذلك أن يمحى أى أثر لما حدث فيها. تتحدث الصحفية باولا جاسبارولى عما حدث للصحفى المستقل مارك مانتغ، الذى استطاع أن يصور بعض أحداث الفلوجة قبل سفره إلى الولايات المتحدة - خلال إقامته بأحد الفنادق عاد مانتغ إلى غرفته ليجد أن شرائط الفلوجة قد سرقت، أما باقى أشيائه (وحتى تسجيلاته فى مناطق أخرى من العراق) فكانت لا تزال موجودة.

لم يكن من المفترض أن تصل للغرب أية معلومات عن حرق المدنيين بالفوسفور الأبيض، ولا عن استخدام النابالم الجديد (مارك ٧٧)، ولا عن قتل المرضى والمصابين والمدنيين المحتمين بالمساجد. ولكن لا بد للحقيقة أن تظهر. وها هى سيللا الوورثى المرشحة لجائزة نوبل للسلام تكتب: «فى تقريره إلى سكرتير عام الأمم المتحدة، سجل مركز دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية (SCHRD) أن القوات (الأمريكية) قامت بتكبيل الأطباء وضربهم بالأحذية. لقد تم القبض على المرضى ومنع العلاج عنهم. إحدى عيادتى الفلوجة الوحيدتين قد قصفت، وتم تدمير كل ما فيها من أدوية ومعدات».

شهود العيان

من أكثر الشهادات حيوية فى كتاب هولمز هى شهادة البريطانية جو وايلدينغ، إحدى ناشطات حقوق الإنسان والمحامية، الكاتبة والمخرجة. فى عام ٢٠٠١ قامت وايلدينغ بكسر الحصار المفروض على العراق كى تقدم للمحاكمة وتتمكن من تسليط الضوء على ممارسات بلدها المعادية للعراق. تكتب وايلدينغ عن مشاهداتها فى العراق فى مدونتها الإلكترونية www.wildfirejo.blogspot.com

كانت وايلدينغ متواجدة فى العراق أثناء معركة الفلوجة الأولى كجزء من مشروع سيرك إلى العراق (Circus2Iraq) الذى حاول إيصال المعونات الإنسانية إلى المناطق النائية من العراق. تكتب وايلدينغ فى مدونتها بتاريخ ١٣ أبريل: «أنا فى الباص لأن أحد الصحفيين دق بابى الأمس فى الساعة الحادية عشرة مساء ليخبرنى أن الأحوال بالفلوجة فى غاية السوء. كان (الصحفى) يساعد فى حمل أطفال فقدوا أطرافهم. كان الجنود يخبرون الناس أن عليهم ترك المدينة قبل الغروب حتى لا يتعرضوا للقتل. ولكن عندما حاول الناس الهرب بمتاعهم القليل كانت القوات تمنعهم من الرحيل».

فى صفحة أخرى من مدونتها تحاول وايلدينغ أن تشرح لماذا قررت الذهاب إلى الفلوجة: «سأعفيكم من معرفة كل تفاصيل عملية اتخاذ القرار، وكل الأسئلة التى نسألها لأنفسنا ولبعضنا البعض، أما أنتم فاعفونى من اتهامات الجنون. فى نهاية الأمر السؤال النهائى هو: لو لم أذهب أنا فمن سيذهب؟».

ذهبت وايلدينغ إلى الفلوجة خلال الأيام الأخيرة الحاسمة من المعركة الأولى، وكانت من أهم مهامها ملازمة سيارات الإسعاف. تطلق الناشطة على نفسها لقب الباسبور، فشعرها الأشقر وملامحها الأوروبية كانا بمثابة جواز سفر لسيارة الإسعاف التى كانت ترافقها عبر الحواجز الأمريكية. بالرغم من ذلك كانت سيارتها تتعرض أحيانا لإطلاق النار. تقول وايلدينغ بعد إحدى هذه المحاولات: «أشعر بالغضب الشديد. نحن نحاول الوصول لسيدة تعانى آلام المخاض بمفردها وبدون رعاية طبية، بدون كهرباء، فى مدينة تحت الحصار وفى عربة إسعاف وأنتم تطلقون علينا النيران. كيف تجرؤون على ذلك؟ كيف تجرؤون؟».

وجود أفراد مثل هذه الناشطة فى وسط الحروب يثبت أن الخير أو الشر ليسا جزءا من منطقة جغرافية بعينها. وحتى المقاومة فى الفلوجة استطاعت أن تميز بين الأصدقاء والأعداء، بعكس القوات الأمريكية التى تقتل بدون تمييز. فى خلال تواجدها فى الفلوجة، تعرضت الناشطة وأصدقاؤها للاختطاف على يد أفراد من المقاومة. تصف وايلدينغ هذه المحاولة قائلة: «أخذونا لأننا أجانب ولأننا كنا نتصرف بشكل غريب فى وسط حربهم. ولكن عندما علموا بما نفعله أطلقوا سراحنا. فى طريق العودة استطعنا أن نفتح الحواجز وتمكن البعض من الخروج من الفلوجة. لو كان هذا كل ما فعلناه فهو أمر جيد. ولكننى فى لحظات الهدوء أهمس بالشكر للملائكة الأنقياء الذين يعتنون بالمهجرين ومتطوعى الإسعاف».

ضاهر جميل شاهد آخر من شهود عيان الفلوجة، ولكنه شاهد رسمى، فهو صحفى كندى مستقل. فى كتابه يجمع هولمز بعض ما كتبه جميل على موقعه www.dahrjamailiraq.com معظم كتابات جميل مبنية على شهادات مباشرة أسر بها أهالى الفلوجة للصحفى. فهو يكتب فى يوم ١٤ مايو: «عندما علم أحد الجيران أننى صحفى، خرج ليحكى لى حكاية فظيعة أخرى. كان له أخ اسمه حسين محمد جرجى فى الثالثة والأربعين من عمره ومصاب بإعاقة عقلية. خرج حسين من بيته فى نفس اليوم الذى قتل فيه المرتزقة. أكمل الأخ حكايته وعيناه مليئتان بالدموع: أصيب أخى بطلقة وهرع إلى داخل المنزل. لحقوا به إلى الداخل، وقطعوا قدميه بسكين كبير، ثم أردوه برصاصة فى رأسه. بعد أن دمروا الأثاث وتبرزوا فى أركان البيت، رحلوا. هذه هى الطريقة التى تصرفوا بها فى كل أنحاء الفلوجة. لقد دفنا قدمى أخى مع جثمانه».

من أهم ما يرويه جميل أخبار عمليات التغطية على أحداث المعركة الثانية، فيشرح كيف قامت القوات الأمريكية بإزالة أطنان من حطام المنازل المدمرة. يحكى أحد مصادر جميل أنه فى بعض المواقع التى تعرضت للقصف بالأسلحة الخاصة، قامت القوات الأمريكية برفع التربة عن مساحات شاسعة تصل إلى ٢٠٠ متر مربع فى كل مرة.

تحكى مصادره أيضا عن سيارات رش غسلت المدينة لمحو آثار المخلفات الكيماوية. يقول أبو صباح لجميل: «استخدم الأمريكيون قنابل غريبة مشعة دخانها يشبه عش الغراب. ترسل قطعا صغيرة فى الهواء لها ذيول طويلة من الدخان». وصف أبو صباح أن قطعا من هذه القنابل كانت تنفجر حارقة لجلد البشر حتى عندما حاولوا إطفاءها بالمياه. يعقب جميل أن هذا هو تأثير الفوسفور الأبيض والنابالم.

كما حكى له أحد الأطباء عما حدث لعائلة من اثنى عشر فردا صدقت ما بثه العدو الأمريكى عن ضرورة إخلاء المدينة. وأن كل من سيتوجه للمعبر حاملا الأعلام البيضاء سيسمح له بالرحيل: «عندما وصلت العائلة للمعبر، سمعوا من يصرخ NOW وعندها بدأ إطلاق النار. كان كل أفراد العائلة ممسكين بالأعلام البيضاء. أحد أصغر أفرادها، والذى عاش ليحكى ما حدث، شاهد الرصاصات تخترق جسد أبيه وأمه، ثم عماته، ثم أخيه. عندما سقط الشاب، حاول أن يرفع جسده ليطلب النجدة، فأطلقت عليه النيران مصيبة جنبه. عندما حاول أن يرفع ذراعه، أطلقوا النار عليها. عندما حاول أن يرفع يده أطلقوا النار على يده. كان هناك طفل فى السادسة من عمره يبكى ناظرا لجثتى والديه، فأطلقوا النار عليه أيضا. كانوا يطلقون النار على كل ما كان يتحرك».

منع السكان من الرحيل، كما قطعت جميع الإمدادات. كان القناصون من أبرز سمات المعركة، مما منع الأهالى من الخروج لدفن موتاهم. يحكى جميل عن القطط والكلاب التى كانت تتغذى على جثث سكان الفلوجة.

كان لا بد للقوات الأمريكية من اللجوء إلى عمليات التجميل بعد نهاية المعركة لتحسين صورتهم أمام العالم. يتذكر جميل ما حكاه له صديقه عما حدث مع قناة CNN التى وجهتها القوات لتصوير الكناسين وهم ينظفون ويجملون شوارع الفلوجة الهادئة، بينما يقوم الجنود الأمريكيون بتوزيع الحلوى على الأطفال.

ولكن ما ابعد هذه المناظر عن الحقيقة. فى ٢٨ ابريل ٢٠٠٥ يكتب جميل لـ Democracy Now: «إن مدينة الفلوجة التى كانت رمزا فى العراق وفى الشرق الأوسط لمقاومة الاحتلال الأمريكى أصبح ٧٠ بالمائة منها مدمرا. المدينة تحيا بلا ماء ولا كهرباء. السكان الذين يودون العودة يجب أن يخضعوا لمسح شبكية العين، ولتقديم بصمات أصابعهم العشرة. بعد التأكد من شخصياتهم يسلمون بطاقات هوية. السكان الذين يعيشون داخل المدينة يطلقون عليها اسم السجن الكبير. إنه وضع شنيع، ترتب عليه مئات الآلاف من اللاجئين. كان الهدف من حصار الفلوجة القبض على الزرقاوى وإعادة الاستقرار

للبلاد استعدادا للانتخابات. ولكن النتيجة الحقيقية هى أن المدينة أصبحت ممزقة، أما المقاومة فقد انتشرت فى جميع أنحاء البلاد». ما حدث لا يمكن أن يوصف بكلمات أدق من تلك التى استهل بها هولمز كتابه، مأخوذة عن لسان أحد وجهاء الفلوجة: الفلوجة أصبحت العراق، والعراق هو الآن الفلوجة.

تجربة قناة الجزيرة فى المعركة الأولى

يذهب بعض المحللين إلى أن تواجد طاقم فريق الجزيرة وعلى رأسهم المذيع أحمد منصور داخل الفلوجة أثناء المعركة الأولى (أبريل ٢٠٠٤) كان من أحد عناصر فشل القوات الأمريكية فى إخضاع المدينة. فقد أرادت القوات الأمريكية أن تظهر جانبا واحدا من هذه الحرب من خلال صحفييها المزروعين مع الجنود، ولكن وجود ممثلى قناة ذات اتجاهات عروبية قومية داخل المدينة ضرب بهذا الهدف عرض الحائط. تحولت قناة الجزيرة أثناء المعركة الأولى إلى المصدر المرئى الوحيد للجرائم التى كانت ترتكب داخل المدينة المحاصرة. فى كتابه معركة الفلوجة - هزيمة أمريكا فى العراق، يحكى منصور عن هذه التجربة التى جعلت منه هدفا للقوات الأمريكية، والتى أدت فيما بعد إلى إغلاق مكتب الجزيرة فى بغداد على يد حكومة إياد علاوى.

توجه منصور وطاقم الجزيرة إلى الفلوجة يوم الخامس من أبريل ليجدوا مداخل المدينة مغلقة، ولكنهم تمكنوا من دخول المدينة بمساعدة أحد السكان بسلوك طريق قديم كان يستخدم للتهريب فى الماضى. سرعان ما أعلنت القناة هذا الخبر. يقول منصور: «وقد علمت بعد ذلك أن هذا الإعلان عن قدرتنا على اختراق الحصار ودخول المدينة كان ضربة قاصمة للقوات الأمريكية».

من أبرز ما استطاع منصور بثه للعالم هو وحشية القوات الأمريكية فى ضرب المدنيين وتدمير القدرات الطبية للمدينة. كما استطاع كذلك أن يوصل للعالم أخبار الانتصارات التى كانت تحققها المقاومة. يكتب منصور: «أخبرنا بعض أهل الفلوجة أن رجال المقاومة شنوا هجوما شديدا على القوات الأمريكية التى تغلق طريق النعيمية، وبعد معركة طاحنة مع القوات الأمريكية نجح رجال المقاومة فى تدمير الموقع وأصيب عدد كبير من الجنود وقد جاءت الطائرات المروحية فأجلت القتلى والجرحى وهرب باقى الجنود وأصبح الموقع خاليا والنيران تشتعل فيه». ويضيف: «أثارت الصور حينما قمنا ببثها ردود فعل واسعة، فقد كانت تأكيدا على أن وضع القوات الأمريكية يسوء حول المدينة رغم إحكامها لحصارها، وقد جن جنون الأمريكيين فأصبحوا يقصفون بشكل عشوائى فى كل اتجاه». بعد هذه الواقعة قامت طائرة أمريكية بقصف بيت فى حى الجولان بالفلوجة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين مدنيا معظمهم من النساء والأطفال.

سرعان ما تحول طاقم الجزيرة إلى هدف للقناصة، فقد أصبح أفراد الطاقم شخصيات غير مرغوب فيها من قبل قوات الاحتلال. فى يوم السابع من أبريل تمركزت القوات الأمريكية فى المبنى المقابل لمقر طاقم الجزيرة. ولكن فى يوم التاسع من أبريل أصر منصور على فك الحصار كى يشارك فى التغطية الحية بمناسبة الذكرى الأولى لاحتلال العراق. فى ذلك اليوم توجه إلى النعيمية: «ما إن وصلنا للنعيمية حتى بدا المنظر وكأنه يوم الحشر. آلاف مؤلفة من الناس فى موجة نزوح جماعى من المدينة هربا من الموت وجحيم الحصار». ويضيف منصور: «لقد كان يوم الجمعة الدامى من أكثر الأيام دموية وألما فى حياة أطفال الفلوجة. لقد كنت أبكى من هول ما رأيت، وما كنت أريد أن يسمع أحد صوتى. لم أحتمل المشهد الذى كان مؤلما، لا سيما الأطفال وأشلاءهم الممزقة».

فى ذلك اليوم، بثت الجزيرة خبرا عاجلا من الصباح الباكر مفاده أن الإدارة الأمريكية طالبت بخروج فريق الجزيرة من مدينة الفلوجة كشرط أساسى لقرار وقف إطلاق النار الذى أعلنه الحاكم الأمريكى بول بريمر. كانت الجزيرة تبث طوال ذلك اليوم صورا للشاحنات التى تحمل الامدادات للقوات الأمريكية وهى تحترق على طول طريق أبو غريب الفلوجة.

يكتب منصور عن إحدى مكالماته فى تلك الأثناء مع رئيس غرفة الأخبار أحمد الشيخ الذى قال له: «إن ظهورك على شاشة الجزيرة أصبح مستفزا للقوات الأمريكية يا أحمد بشكل كبير، وأنت المستهدف من وراء كل الضغوط التى يقومون بها، وقد تحدث كيميت عنك تحديدا، لذا أرجو أن تتوقف قليلا عن عمل التقارير والمشاركة فى نشرات الأخبار».

فى حوار مع محمد كريشان، كان القائد كيميت قد اتهم منصور بنشر أكاذيب. يصف منصور هذه المواجهات بأنها حرب كانت دائرة بينه وبين كيميت دون أن يعلم: «معركة ليس بالسلاح ولكن على شاشات التلفزة. هو يدعى ما يريد وأنا أخرج بالصور والحقائق الدامغة المنافية لكل تصريحاته».

احس منصور بأنه قد أصبح جزءا من المقاومة عن طريق عمله الصحفى، لذلك فهو لا يهتم كثيرا عندما يوصف بأنه غير محايد، فالحياد كما يصفه منصور هو وهم كبير: «أنا منحاز دائما إلى دينى وعروبتى وثقافتى وهويتى. لن أتخلى عنها فى أى موقف مهما كانت الاتهامات التى توجه لى. وحينما يتخلى الصحفى الأمريكى أو البريطانى أو الألمانى أو اليابانى أو الروسى عن الانحياز إلى دينه وثقافته فليأتوا ليتحدثوا معنا عن الحياد».

هولمز أيضا يكتب عن النفاق والازدواجية الأمريكية، وهو أيضا لا يهتم إن وصف بعدم الموضوعية. استطاع الكاتب أن يثبت من خلال الشهادات التى جمعها أن الحصار الأمريكى للفلوجة خرق سبعين مادة منفصلة من مواد اتفاقيات جنيف. من أولى هذه المواد المادة الخاصة بالتعامل مع المصابين، حيث يدرج هولمز شهادات لجنود مارينز يتحدثون عن طريقة double tapping أو إطلاق رصاصة ثانية على المصاب من مسافة قريبة أو كما يسمونها point blank. يخلص هولمز إلى أن ممارسات أمريكا فى العراق، وبالأخص فى الفلوجة، تستدعى تقديم جنرالاتها ورئيسها لمحكمة مجرمى الحرب.

من أفظع الممارسات التى يلقى الكتاب الضوء عليها هى استخدام الأسلحة الكيماوية وتحديدا الفوسفور الأبيض والنابالم. كتب الصحفى المستقل بين كابى عن الاستراتيجية الأمريكية فى حجب معلومات عن استخدام الأسلحة الكيماوية، فأشار إلى أن البنتاجون لم يعد يستخدم النابالم رسميا، ولكنه يستخدم مادة أخرى شبيهة - مادة لزجة قابلة للاشتعال وموجودة فى قنابل مارك ٧٧ النارية. منعت الأمم المتحدة استخدام النابالم عام ١٩٨٠ ولكن الولايات المتحدة لم توقع هذه المعاهدة.

أما جورج مونبيوه الكاتب بجريدة الجارديان البريطانية فيصف من خلال عمله الصحفى ما اكتشفه عن تأثير الفوسفور الأبيض على الضحايا: «الحروق عادة ما تكون متعددة، عميقة، ومختلفة الأحجام، لو أصابت العين تكون النتيجة بالغة السوء. تستمر الجزيئات فى الاحتراق حتى يمنع عنها الأوكسجين». فى الفيلم الوثائقى الإيطالى عن الفلوجة، نرى صورا لجثث محترقة بالكامل. الوجوه تبدو مذابة ولكن لا توجد أى آثار للحريق على ملابس القتلى. الجثث محترقة بشكل غريب، ففى بعض الحالات انفصل الجلد عن اللحم. أحد أشهر صور هذا الفيلم تلك الصورة لجثة متفحمة لامرأة ما زالت ممسكة بمسبحتها. الصور صادمة ومؤلمة، وكذلك الشهادات المسجلة فى كتابينا. أما المثير للدهشة فهو تجاهل العالم بنصفيه الغربى والشرقى لما حدث فى الفلوجة. ■

استطاع الكاتب أن يثبت من خلال الشهادات التى جمعها أن الحصار الأمريكى للفلوجة خرق سبعين مادة منفصلة من مواد اتفاقيات جنيف

على مسافة رصاصة واحدة!

مايكل ماسينج

لا يرأف الكاتب بقرائه وهو يصف خلفيات أفراد مشاة البحرية. إنه موضوع حساس ولكنه «مهم»

على مسافة رصاصة واحدة: صُنع ضابط بمشاة البحرية الأمريكية
One Bullet Away: The Making of a Marine Officer
بقلم ناثانيل فيك
Nathaniel Fick
Mariner, 372 pp., $14.95

قتل جيل: كلاب شياطين وقاتل مأجور وكابتن أمريكا والوجه الجديد للحرب الأمريكية
Generation Kill: Devil Dogs, Iceman, Captain America, and the New Face of American War
بقلم: إيفان رايت
Evan Wright
Berkley Caliber, 354 pp., $14.00

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

[١]

يسرد رقيب أول ديفيد بيلافيا - مؤيد متحمس لحرب العراق - في كتابه من منزل إلى منزل: مذكرات ملحمية عن الحرب أن فصيلته كانت تقوم بمهامها أثناء دوريتها الثانية في العراق عام ٢٠٠٤

عندما حاولت شاحنة مدنية تحمل حلوى، الانضمام إلى طابور عرباتنا المصفحة إلا أن العربات اصطدمت بها ودهستها. هرست العربات الركاب بلا سبيل إلى التعرف عليهم. أبصرنا أول مشاهد الموت في صورة رجل وزوجته تمزقت أوصالهما وتقطعت فيما تناثرت أمعاؤهما على صناديق متفرقة من علب الحلوى. لم تكن الفصيلة بأكملها قد تناولت شيئاً منذ أربع وعشرين ساعة. فتوقفت العربات ونهضنا حراساً على الحطام وقد تزايد جوعنا أكثر فأكثر. سرقتُ في النهاية بضع قضمات من واحدة من قطع الحلوى النظيفة. مسح آخرون الدماء المتخثرة والوقود عن أغلفة الحلوى وشاركوني الأكل.

ليس ثمة ما يلفت النظر إلى تلك الحادثة غير توقف الفصيلة؛ فقد بلغني من روايات عديدة تناهت إليّ عن حرب العراق أن أية قافلة أمريكية تدهس سيارة، لا يند عنها في المعتاد سوى مواصلة المسير.

وفي كتاب مطاردة الأشباح يصف بول ريكهوف، خريج من خريجي كلية أميريست قاد فصيلة من قوات الحرس القومي في العراق، كيف كانوا يشنون غارات روتينية على المنازل في صيف ٢٠٠٣. إذ كان رجاله يكسرون الأبواب ويقيدون كل رجل تقع أعينهم عليه. يقلبون الحجرات رأساً على عقب بحثاً عن أسلحة قلما وجدوها. يكتب ريكهوف ليقول: «كانت تلك الغارات عملية قذرة، وكل من استمتع بها فهو مريض. أحياناً ما ران عليّ إحساس بأني عضو في قوات «القمصان البنية» بألمانيا النازية». وكما اكتشف ريكهوف بعدها، دأب بعض رجاله على سرقة ما يجدونه من نقود خلال تلك الغارات - عادة لم تكن بالنادرة حسبما ذكرت روايات أخرى.

وفي كتاب أحب بندقيتي أكثر منك: شابة وأنثى في جيش الولايات المتحدة، تروي كيلا ويليامز - ضابط في الاستخبارات العسكرية تتحدث اللغة العربية - أنها حضرت جلسة استجواب بالموصل في خريف ٢٠٠٣ حيث نزع الجنود الأمريكيون ملابس سجين في قفص ثم رموه بسخرياتهم. «هزءوا من رجولته. هزءوا من قدرته الجنسية. هزءوا من حجم أعضائه التناسلية». نفض الجنود رماد سجائر مشتعلة على السجين وصفعوه على وجهه. نمى إلى علم ويليامز بعدئذ أن سجيناً فارق الحياة في نفس القفص الذي زارته.

من الممكن أن تتضاعف تلك الحكايات عدة مرات. فقد صدرت من كتب متعددة كتبها جنود أدوا الخدمة العسكرية في حرب العراق. لم يحدث من قبل أن ظهر مثل ذلك العدد من الكتب بقلم جنود فيما لا يزال القتال مستمراً - روايات لم يكتف الجنرالات من أمثال تومي فرانكس بسردها بل أيضاً ملازمون ورقباء وضباط احتياط وجنود. تجاهلت وسائل الإعلام أغلب تلك الكتابات مما يدعو إلى الأسف؛ فهي تزود القارئ بوجهة نظر جنود يحتلون الرتب المتدنية؛ وجهة نظر تتلون في الغالب بثراء وصدق يفوق ما هو متاح في صفحات الجرائد وشاشات التليفزيون.

وبرغم ما يبذله مراسلو العراق من سبر وتقص عنيف، تخضع أخبارهم للكثير من التصفية. ثمة - على سبيل المثال - معايير «المشاهدات العائلية» التي تجعل من العسير على الصحفيين الحديث بصراحة عن الجوانب الحساسة من الحياة العسكرية كاللغة الوضيعة التي ينطق بها الجنود. يشق كذلك على الصحفيين الإحاطة بما يدور في عقول الجنود. لقد حاز المراسلون من خلال تعيينهم لمرافقة الوحدات العسكرية حرية الوصول الفوري إلى القوات بيد أن الإلمام بمشاعر الجنود الفعلية أكثر مشقة بكثير، علاوة على أن من يتكلم بحرية زائدة عن اللازم من الجنود يقع تحت وطأة القوانين الموحدة للعدالة العسكرية.

في النهاية يضع المناخ السياسي عدة حدود تعمل وسائل الإعلام في إطارها. فالصور المفصلة الواقعية أو تلك المزعجة قد تسبب اهتياجاً بين الجماهير. فحينما - مثلاً - نشرت جريدة ذا نيو يورك تايمز في يناير ٢٠٠٧ صورة لجندي أمريكي يرقد على الأرض جريحاً جرحاً مميتاً، اتهم الغاضبون الجريدة بعدم احترام القوات. وبوجه أعم، يظل سلوك الجنود الأمريكيين في الميدان موضوعاً في منتهى الحساسية. إن الهيئات الإخبارية التي تُظهر الجنود في صورة سيئة تخاطر بأن تلتصق بها تهم معاداة أمريكا وعدم الوطنية أو - وهو الأسوأ - «مناصبة القوات العداء». ففي يوليو على سبيل المثال حين نشرت مجلة ذا نيو ريبابليك عموداً كتبه جندي روى عدة حوادث تكشف النقاب عن سلوك الجنود الأمريكيين السيئ، لم يفتأ المدونون المحافظون يهاجمون الجندي والمجلة بضراوة. لا رغبة لمعظم الأمريكيين في الوقوف على الكثير من تصرفات يقوم بها الجنود وهم يحملون أسماءهم، الأمر الذي يردع المحررين والمنتجين ردعاً.

أما الكتب فأقل عرضة لمثل تلك الضغوط، وعليه بوسعها أن تسدد مزيداً من الانتقادات. لا تتسم صورها بالكآبة الشاملة. إذ تصور العديد من المشاهد المؤثرة، مشاهد يبدو فيها الجنود وهم يحاولون فعل الخير كتقديم الإسعافات الأولية وتوزيع الأطعمة وترتيب التخلص من النفايات. وفي الأغلب يلوح الجنود باعتبارهم أمريكيين طيبين يجدون أنفسهم في بيئة غريبة بتدريب يعدم الكفاية وأقل القليل من الاستعداد الثقافي ومهارات لغوية معدومة. يحيق بهم أناس يضمر أكثريتهم لهم الكراهية ويعيشون في خوف يومي من التفجيرات، لذا يسقطون إحباطهم على السكان المحليين من آن لآخر. إن القارئ يتمكن من خلال هذه الروايات المباشرة أن يجد تصويراً قاسياً لضريبة حرب دفعتها كل من القوات الأمريكية والشعب العراقي.

[٢]

لم تبدأ تلك الضريبة بأعمال العنف الرهيبة التي اندلعت بعد سقوط بغداد لكن خلال الغزو نفسه. ثمة كتابان يصفان تلك العملية بجلاء ما بعده جلاء: «على مسافة رصاصة واحدة: صُنع ضابط بمشاة البحرية الأمريكية» بقلم ناثانيل فيك و«قتل جيل» بقلم إيفان رايت. وكما أوردت وسائل الإعلام وفهم أغلبية الأمريكيين، جرت عملية تحرير العراق بسلاسة معقولة. لا شك في وقوع بعض الصعوبات والعقبات لكن في آخر الأمر كان الدمار محدوداً وتجنب الجنود تفشي الإصابات المدنية. إلا أن هذين الكتابين يسردان قصة مختلفة كل الاختلاف.

التحق ناثانيل فيك بقوات مشاة البحرية في فورة من المثالية. كان فيك طالباً بمدرسة كاثوليكية بضواحي مدينة بالتيمور. كان يدرس الأدب الكلاسيكي في دارتموث حين عقد العزم على الالتحاق بمشاة البحرية. ساقته رغبة في خدمة بلاده وإثبات كيانه. انضم أغلب من انتابتهم نفس تلك المشاعر من الطلبة إلى فيلق السلام أو منظمة «درس من أجل أمريكا» بيد أن قراءاته حول أثينا وإسبرطة أشعلت في نفسه الإلهام فرام تحدياً أعمق - تحدياً قد يقتله أو يخلفه أفضل وأقوى على حد تعبيره.

سمع في إحدى الليالي حديثاً لتوماس ريكس Thomas Ricks الذي كان وقتئذ مراسلاً لجريدة ذا وول ستريت جورنال. كان ريكس قد نشر للتو كتاب صُنع مشاة البحرية، وهو تصوير لا يخلو من تألق لمشاة البحرية الأمريكية. وفي حديثه وصف قوات المشاة باعتبارها آخر معقل من معاقل الشرف في أمريكا. أوقع الكلام في نفس فيك انبهاراً. وبمجرد أن انضم إلى قوات البحرية، رغب في أن يخدم في سلاح المشاة، سلاح «لا تزال الشجاعة فيه لها قيمتها». وعندما صار ملازماً، تم إرساله إلى أفغانستان حيث خدم خلف خطوط العدو ثم تم تعيينه في فرقة الاستطلاع، المقابل البحري للقوات الخاصة وأقوى وحدة في

مشاة البحرية. فرغ فيك من تدريب أشد ما يكون وحشية ثم نهض بمسئولية فصيلة تتألف من ثلاثة وعشرين رجلاً، وفي الأيام الأولى من فبراير ٢٠٠٣ طار إلى الكويت بصحبة بقية فصيلة الاستطلاع الأولى في انتظار نشوب الحرب.

وفي يوم من الأيام وصلت إلى المعسكر حافلة تحمل دستتين من الصحفيين. ومن بينهم كان إيفان رايت، مراسل مجلة رولينج ستون. لم يخل فيك من احتقار عام تكنه مشاة البحرية للمراسلين، لكن بعد لقائه برايت ألفاه عذب الحديث متواضع السلوك. وقد وجد انبهاراً حين علم أن رايت درس تاريخ القرون الوسطى في كلية فاسار. وعندما أنبأه رايت بأنه يقيم في خيمة ضباط من ذوي الرتب العالية، أخبره فيك بأنه ارتكب خطأ كبيراً: لو ود بحق معرفة ما يجري، عليه أن يقضي وقتاً مع الشبان الذين يحاربون من أجل لقمة العيش. كانت الفصيلة قد خططت في البداية أن يرافق رايت الجنود المساعدين بمؤخرة الجيش إلا أن رايت - وقد خلف ذكاء فيك وحماسه في نفسه انطباعاً قوياً - طلب الالتحاق بفصيلته. وبعد أن وافق على تسليم هاتفه العامل بالأقمار الصناعية وقطع كل اتصالاته بالعالم الخارجي، نال مراده.

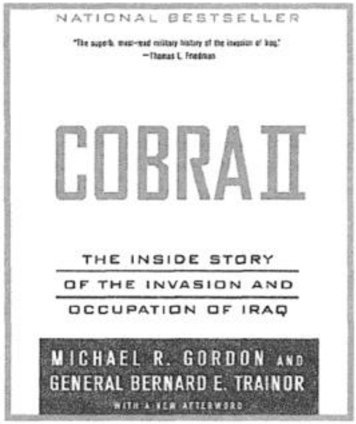
أنفق رايت في المجمل شهرين بصحبة فصيلة فيك. وعقب عودته إلى الولايات المتحدة، وصف تجاربه في ثلاثة مقالات طويلة نشرتها مجلة رولينج ستون ثم حوّل رايت تلك المقالات إلى كتاب. إن روايته بالإضافة إلى رواية فيك تزودان القارئ بوجهتيّ نظر فريدتين تسلطان الضوء على الغزو بأعين جندي وصحفي خدما في نفس الفصيلة. وعند تأمل الاثنتين، سوف يستشعر القارئ أن قصصهما أكثر تعرية للحقائق من غيرها وأكثر إزعاجاً من أغلب عشرات الروايات التي ظهرت حتى الآن.

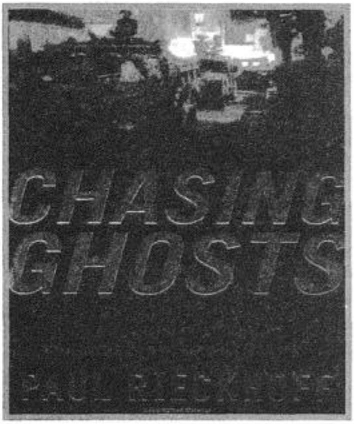
يتحلى رايت بعين تجيد المراقبة. وفي كتاب «قتل جيل» يتمكن من تخطي عدة حواجز تخفي الكثير من جوانب الحياة العسكرية. يصف هنا، على سبيل المثال، زيارته الأولى التي قابل فيها رجال فيك:

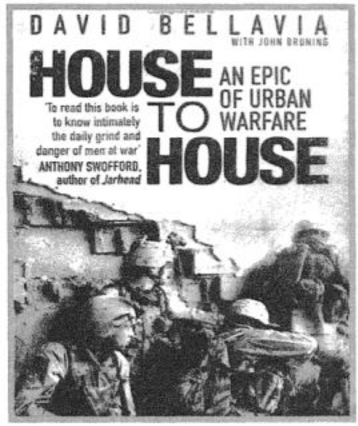
تفوح من الخيمة رائحة ريح وعرق ونتانة مثيرة للغثيان تنبعث من فطريات الأقدام. يمشي الكل في سراويل داخلية وهم يهرشون خصيهم.

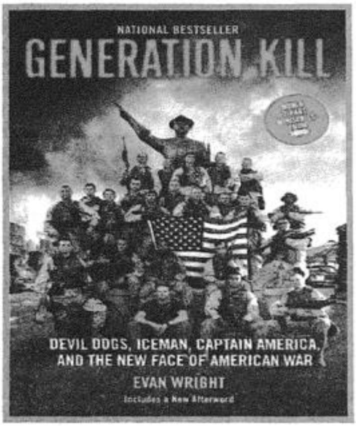
إن هرش الخصى على الملأ عادة شائعة في الجانب القتالي من مشاة البحرية بل وبين الضباط من ذوي الرتب العالية وسط الاجتماعات. الحركة رجولية جريئة مثلها مثل اللغة العامية المتداولة بين مشاة البحرية.

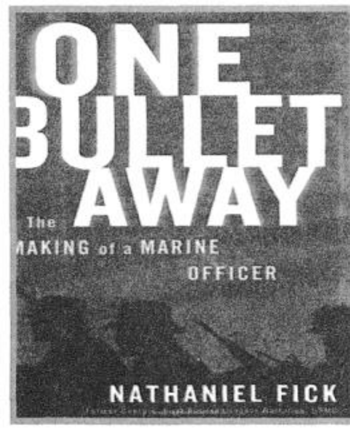
يتفاخر الضباط والمجندون على حد سواء بلغتهم الوضيعة، بكلمات مثل «شاذ»،

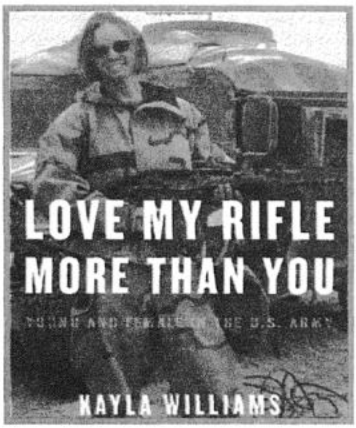












«ولوطي» و«ابن وسخة» من بين الكثير من الألفاظ. غالباً ما يتشاجر الجنود ويسردون القصص البذيئة ويقذفون الآخرين بالإهانات المتطرفة ويقرءون المجلات الإباحية ويمارسون الاستمناء. ينخرط جميعهم تقريباً في «تعاطي الحشيش، أو تدخين تبغ لا رائحة له - «المخدر العالمي للمقاتلين الأمريكيين». فعلاوة على إضفائه «نشوة نيكوتين تجعل من سجائر كاميلز الخالية من الفلتر أشبه بسجائر من الحلوى» يكتب رايت، يجعل هذا التبغ مدخنيه «يفرزون لعاباً وكأنهم كلاب مسعورة» و«يبصقون بلغماً سميكاً من مادة لزجة بنية».

لا يرأف رايت بقرائه وهو يصف خلفيات أفراد مشاة البحرية. إنه موضوع حساس وثمة القليل من الصحفيين على استعداد للخوض في تركيبة جيش يتألف كله من المتطوعين. لا تخالج رايت مثل تلك المخاوف. إذ يكتب ليقول: «سوف يستعصي ثقافياً التعرف على مشاة البحرية بعيون أسلافهم ممن انتموا إلى «الجيل الأعظم» إنهم أطفال تربوا على موسيقى الهيب هوب ومارلين مانسون وجيري سبرينجر». ثمة «أفراد عصابات سابقون وقلة من مسيحيين ولدوا من جديد بالإيمان والكثيرون ممن اعتادوا تعاطي الهيروين يومياً قبل الانضمام إلى الفيلق». وبينما التحق بعضهم بمشاة البحرية بعد المدرسة الإعدادية أو رفضوا منحاً بالجامعات، ما يربو على النصف «قدموا من منازل متفسخة ونشئوا على أيدي آباء غائبين أو عاملين. يرتبط الكثير منهم بألعاب الفيديو وبرامج تليفزيون الواقع والمواقع الإباحية أكثر من ارتباطهم بآبائهم». ثم يذكر رايت أن هؤلاء الأفراد «يمثلون تقريباً أول جيل من أطفال الاستهلاك في أمريكا».

وفيما تولت رايت الصدمة أحياناً لسلوكهم الطفولي، خامره انبهار لما يتسلحون به من روح قتالية. إذ يتراءى أغلبهم مدفوعين «برغبة تكاد تكون طائشة لاختبار أنفسهم في أكثر الظروف صرامة». إن الحياة التي اختاروها تلوح من عدة جوانب رفضاً تاماً لحلم أمريكي استهلاكي لم يفتأ المروجون يروجون له في برامج تليفزيون الواقع وكلمات أغاني البوب... إن أقصى مطامحهم تنحصر في التضحية بالنفس وليس الحفاظ عليها.

تبدو حياة لا تعوزها المثالية إلا أن رايت يسارع إلى التعقيب قائلاً: «إن الفكرة الأساسية القائمة وراء تدريبهم هي الإقدام على المُحرم المطلق: ألا وهو القتل. وثقافتهم تستمتع أيما استمتاع بذلك». ففي نهاية اجتماعات الفريق «يشبك جنود المشاة أياديهم ليصيحوا: اقتل!».

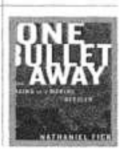
وكما هو الحال مع فيك وتخيلاته عن













على مسافة رصاصة واحدة!

اليونان القديمة، وقد العديد من هؤلاء الرجال إلى الكويت حافلين بالمفاهيم الرومانسية حول الشرف والبسالة والتضحية، ومع ذلك سوف تُوضع تلك الأفكار على المحك منذ البداية. يعبر كل من فيك ورايت عما ساورهم من فزع لعدم كفاءة بعض الضباط الكبار الذين ينبغي أن تتعامل معهم فرقة الاستطلاع الأولى. ففي حين فشل رئيس العمليات في إحضار ما يكفي من بطاريات لمعدات القتال الليلي الحيوية، تمتع بحضور الذهن ليجلب كاميرا فيديو شخصية خطط لاستخدامها في تصوير فيلم وثائقي حربي على أمل بيعه بعد الغزو. أما قائدهم، الكولونيل ستيف فيراندو، فقد تبدى أكثر اهتماماً بالمظهر الشخصي لأفراد مشاة البحرية من استعدادهم للمعركة. إذ خاطبهم في صحراء الكويت في عشية الحرب ليأمرهم بحلاقة كل الشوارب عند عبور نهر الفرات. «نحن نتهيأ لغزو دولة، وهذا هو ما يحدثنا به قائدنا؟» علق واحد من الجنود: «الشوارب؟».

[٣]

واجهت مشاة البحرية القليل من المقاومة في غضون هجومهم المبدئي على العراق. أسرعت عرباتهم على طرق العراق السريعة وقابلهم تهليل الأطفال العراقيين المتحمسين. وبحلول اليوم الثالث كانت الفصيلة قد شقت عشرين كيلو متراً بجنوب مدينة الناصرية. توقفوا في الطريق برفقة ١٠٠٠٠ فرد من قوات مشاة البحرية في انتظار الأوامر. وحتى وهم عاطلون، تركوا علاماتهم في صورة زبالة ومخلفات آدمية. مسألة قلما تعاطت معها وسائل الإعلام. «دائماً ما كان التبرز نتاجاً كبيراً في ساحة الحرب» يعلق رايت.

لا ريب أن العالم المدني يحرص أشد الحرص على القيام بالوظائف الجسدية بمنأى عن العيون. فالتبرز العلني فعلة مخزية بل مجنونة. لكن في ساحة الحرب الأمر معكوس. إذ لا ينبغي للجندي أن يهيم بعيداً بمفرده. فمن الممكن أن تصيبه طلقة قناص من قناصي العدو أو مشاة البحرية عند رجوعه إلى الخطوط الصديقة. لذا يقرفص الكل ببساطة في الهواء الطلق على بعد بضعة مترات من الطريق، يجثمون في الغالب على علب خشبية فارغة كانت تحوي القنابل اليدوية بيد أنها صارت الآن «مراحيض محمولة». تبعثرت القمامة في المنطقة: آلاف من علب الطعام الجاهز المرمية. ومع وجود الجميع وهم يتسكعون ويأكلون ويتنامون ويتشمسون ويتغوطون، يبدو المشهد وكأنه نسخة قتالية غريبة من مهرجان روك مقام في الهواء الطلق.

وقفت العجائز في جلابيب سوداء خارج مجموعة بيوت مشيدة بالطين تواجه موقع الفصيلة. «يحدقن في مؤخرة بيضاء شاحبة لأحد جنود المشاة، الذي تعرى من الخصر وراح «يتغوط في فناء بيتهم». باح أحد الجنود إلى رايت: «هل يمكنك تخيل لو انعكس الوضع. لو أتى جيش إلى ضواحي أمريكا وتبرز أفراده في حدائق الجميع؟ إنه جنون مطبق».

وبحلول الصباح التالي، حدثت المعجزة وجمع الجنود كل القمامة. لكن سرعان ما اتخذت الأحداث منعطفاً قاتماً. ففي أول عقبة حقيقية أمام الأمريكيين، انخرطت بضع وحدات من مشاة البحرية في سلسلة من المعارك النارية بمدينة الناصرية وحولها. انتظر أفراد فصيلة فيك بمبعدة عن المعركة وشاهدوا سلاح المدفعية وهو يطلق قذائف عيار ١٥٥ مليمتراً على المدينة. «أفراد مشاة البحرية الذين التقطوا فضلاتهم المبعثرة بكل حرص هذا الصباح يقذفون الآن المدينة قذفاً» دوّن رايت. وبعد مضي وهلة، دنا رجال فيك من جسر يؤدي إلى الناصرية فراعهم أن ترتطم أعينهم برجال مسلحين يمرقون من الأزقة وهم يتشبثون بالنساء كدروع. تمنع قواعد الاشتباك المشاة من إطلاق النيران ما لم يطلق العدو نيرانه أولاً. لكن بمجرد أن يستهل العراقيون إطلاق النيران بالفعل «تبدأ كل بندقية ورشاش وقنبلة يدوية على طول الصفوف في الهدير».

وبينما تراجعت قوات مشاة البحرية، استولى على البعض انتعاش واضح لهذا التعرض المبدئي للمعركة في حين غشي الندم آخرين. «كنت أضمر عظيم الكراهية للعرب قبل أن نحضر إلى العراق» أفضى أنطونيو إسبيرا، رقيب من كاليفورنيا في الثلاثين من عمره. «لا أعلم السبب في ذلك... لكن حالما وصلنا إلى هنا، زالت كل الكراهية. لا يراودني الآن سوى شعور بالشفقة عليهم. أفتقد ابنتي الصغيرة. لا رغبة لي في قتل أطفال الآخرين». كان رايت يرزح لأول مرة تحت نيران المدفعية الثقيلة، فلم يسلم من الاندهاش لما تولاه من هدوء بيد أن ذهولاً ركبه لضراوة سد النيران الموجه إلى الناصرية. إذ اشتمل على طلقات شديدة الانفجار بمقدورها اختراق الفولاذ والأسمنت علاوة على قذائف عنقودية تنفجر في السماء لتنثر عشرات القنابل المصممة لتمزيق أجساد البشر إرباً.

يشير رايت إلى أن نيران المدفعية تفتقر إلى الدقة حتى في أفضل الظروف مما يدعو إلى التساؤل عن سر عدم انتباه المراسلين والجماعات المناهضة للحرب إليها:

إن جمال الطائرات بالإضافة إلى قدرتها التكنولوجية الهائلة على إحداث الدمار تأسر الخيال. ومن وجهة النظر الصحفية، تتراءى الطائرات النفاثة وهي تخترق السماء مشحونة بالدراما. دراما تعوزها صور المدافع القابعة في الطين وهي تقذف سحب الدخان بين الفينة والأخرى.

لكن الحقيقة هي أن سلاح مشاة البحرية يعتمد بالأساس على قذائف المدفعية وليس على الطائرات التي تُسقط الذخائر الموجهة بدقة. وخلال ست وثلاثين ساعة خارج الناصرية أرسلت المدفعية بالفعل ما يقدر بـ ٢٠٠٠ طلقة على المدينة. لا شك أن تأثير تلك القنابل على سكان يبلغ عددهم ٤٠٠٠٠٠ نسمة كان بالغ التدمير.

دخل رايت المدينة برفقة مشاة البحرية فاستطاع أن يرنو إلى آثار الدمار. تموج الدخان خارجاً من أبنية متهدمة ولاحت المنازل المواجهة للطريق طافحة بالفجوات والثغرات. تناثرت جثث المهاجمين العراقيين على الطريق المفضي إلى المدينة. دهستها تكراراً عربات الطريق «فتسطحت وانسحقت أمعاؤها». أردف رايت:

اجتزنا حافلة، مهشمة ومحترقة، تطل من بعض نوافذها بقايا آدمية متفحمة. ثمة رجل مقطوع الرأس على الطريق وفتاة صغيرة ميتة في حوالي الثالثة أو الرابعة تتمدد على ظهرها. كانت ترتدي فستاناً إلا أن ساقيها كانتا مبتورتين.

نـــزع الجنـــود الأمريكيـــون
مـلابـس سـجـين فـى قـفـص لـيـهـزءوا مـن حـجـم أعـضـائـه الـتـنـاسـلـيـة

جعلت قوات المشاة تتجه شمالاً لتلقي نفسها وسط أشجار النخيل وقنوات الهلال الخصيب غير أن علامات الموت حاقت بهم من كل اتجاه. امتدت على طول الطريق السريع عربات مشتعلة «وجثث متفحمة تستقر بالقرب منها، ركابها الذين زحفوا مسافة عدة مترات قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة في حين لا يزال الدخان يرتفع من أياديهم المطبقة». وبجانب واحدة من السيارات ترقد جثة مشوهة لولد صغير، اندس الوجه في الطين وتمزقت الملابس تمزقاً حال دون تحديد جنس الولد. «لم يعد ذلك المنظر أمراً ذا بال»، عقب رايت. «فمنذ بدء القصف في الناصرية من ثمان وأربعين ساعة، بات إطلاق الأسلحة ورؤية الموتى أشبه بالروتين». استرجع فيك أربع سنوات قضاها بالمدرسة الثانوية اليسوعية ليجاهر بأنه وجد نفسه «ينبس بالمزمور الثالث والعشرين: «رغم أني أسير في وادي ظل الموت...»».

يروي فيك أنهم توغلوا شمالاً مقتربين من بلدة قلعة سكر. تم توجيه الأوامر إليه وإلى رجاله بالاستيلاء على مهبط عسكري قريب. تسلل إليهم الانزعاج، إذ لم يتدربوا من قبل على مثل تلك المهام كما أن سياراتهم العسكرية لا تفتقر إلى الدروع فحسب بل إلى الأبواب والأسقف. نزل بفيك المزيد من الضيق عندما نمت إلى علمه قواعد الاشتباك الجديدة: كل مَن يطأ المهبط - سواء كان مسلحاً أو أعزل - يتوجب اعتباره معادياً. يصرح بأنهم في أثناء التدريب «تعرفنا على «مناطق فيتنام حرة النيران»، اعترف المسئولون بأنها مناطق غير أخلاقية أعاقت أهداف القوات بدلاً من تحقيقها». أُعلنت قلعة سكر بوصفها «منطقة حرة النيران». وبينما تسابقوا صوب المهبط، فتح واحد من رجاله النيران بغتة. تطلع فيك إلى الأفق ليرى صورة ضبابية تضم سيارات وجمالا ورجالا يحملون عصيا طويلة قد يظنها الرائي بنادق.

وصلوا في النهاية إلى المهبط فوجد جنود المشاة المكان مهجوراً. طغى عليهم ارتياح وإن لم ينجوا من الإحساس بعدم الثقة لما أحسوا به من ضعف. ما لبث أن اقترب منهم خمسة عراقيين يسحبون صرتين. في كل منهما صبي مراهق. كلاهما مجروح، وأحدهما جرحه خطر. فحصه الطبيب دوك برايان، ففطن إلى أنه أصيب بطلقات عيار ٥٫٥٦، عيار يستخدمه الأمريكيون. «لقد أطلق المشاة النار على هذا الصبي!» جأر. اتضح عندئذ أن الأشكال البعيدة التي أطلق الجنود عليها النيران لم تكن مقاتلين ببنادق بل رعاة بعصي.

ركض فيك إلى مركز القيادة ليشرح لهم ما وقع. أراد أن ينقل الصبيين إلى مستشفى ميداني. أبلغه الرائد الموجود بالخدمة أن الكولونيل فيراندو نائم ولا يمكن إزعاجه. استبد الغضب بفيك:

أردت أن أخبر الرائد بأننا أمريكيون وأن الأمريكيين لا يطلقون النار على الصبية ويتركونهم للموت، وأن رجال فصيلتي يجب أن يتمكنوا من العيش مع أنفسهم لبقية حياتهم.

لقد أفقدته الطريقة المتهورة التي انتشر بها جنوده الثقة في الضباط الكبار:

تفكرتُ في مدنيين أبرياء لا عد لهم ولا حصر قتلتهم نيران المدفعية وهجمات الطائرات خلال الأسبوع الفائت. الفرق الوحيد هو أننا لم نمكث في المكان كي نبصر ما تركته من آثار. لقد ارتدت أفعالنا علينا فيما أخذت القيادة تتنصل من المسئولية لتضعها على أكتاف الصغار الضعاف من القوات.

أصر فيك على إجبار الرائد فأسرع عائداً إلى رجاله. وضعوا الصبيين على محفتين وهرولوا إلى مركز قيادة الفصيلة. وضعوا المحفتين أمام الرائد غير المبالي. وأمام هذا التمرد المحدود، انسل إلى خلفية الخيمة ليوقظ فيراندو. خرج الكولونيل وما لبث أن قيّم الوضع ليأمر بنقل الصبيين فوراً إلى مستشفى ميداني. لم تفارق التعاسة فيك:

خالجني شعور بالاشمئزاز لحال الصبيين، للفتاة مرتدية الفستان الأزرق، ولكل الأبرياء القاطنين في الناصرية والرفاع وبلدات أخرى سوف تلتهمها هذه الحرب. تألمتُ من أجل قوات المشاة، أمريكيين طيبين سوف ينهضون بتلك الهموم بقية حيواتهم. ثم تفجعتُ على حالي، لا شفقة على الذات بل تفجعاً على الولد الذي جاء إلى العراق. لقد راح بلا رجعة. فعلتُ كل هذا في الظلام، بعيداً عن الفصيلة، لأن قيادة المعركة هي أكثر المهن وحدة في العالم.

[٤]

لم تفتأ معنويات رجال فيك تنحدر وهم يتابعون سبيلهم شمالاً. برز مصدر جديد للتوتر وذلك لحاجتهم إلى إقامة الحواجز على الطرق لصد خطر الهجمات الانتحارية. ولأن هذه المواقع غير جلية للعيان، يخفق العديد من العراقيين في التوقف عندها. وحين يرسل الجنود الأمريكيون طلقات التحذير، غالباً ما يسرع العراقيون بسياراتهم مما يترتب عليه تصاعد عدد القتلى. أطلقت القوات النار ذات مرة على إحدى السيارات، فذهب جندي مشاة يدعى جريفز لمعاونة فتاة تنكمش في المقعد الخلفي وقد اتسعت عيناها رعباً. وبينما مضى ليحملها «متفكراً فيما قد يحتاج إليه من تجهيزات طبية لعلاجها... انفصلت قمة رأسها وسقط دماغها»، كتب رايت. تراجع جريفز مرعوباً فغاص حذاؤه في دماغ الفتاة. «هذا هو الحدث الذي سوف ينال مني عندما أعود إلى البيت»، أنهى.

تزايدت خطورة ساحة القتال فخبا ما ساور المشاة في البداية من عزوف عن إطلاق النار، بل إن أي تهديد بسيط قابله الجنود بسلسلة عنيفة من الطلقات. تحمل المدنيون الوطأة العظمى منها رغم صدمة كثير من جنود المشاة ودهشتهم. «إنها لمسخرة كيف يموت هؤلاء المدنيون!»، يعلن غاضباً جيفري كارازيلز - وكيل عريف من تكساس - عقب تسديده النار إلى مبنى يحوي مدنيين بوضوح.

إنهم أسوأ حالاً من هؤلاء الذين يطلقون علينا النار. فليست لديهم أدنى فرصة للنجاة. هل تظن أن الناس في أمريكا سوف يرون هذا - كل هؤلاء النساء والأطفال الذين نقتلهم؟ طبعاً لا. إنهم يمجدون هذا الوضع الوسخ، أضمن لك هذا. يقولون إن رئيسنا بطل ابن ستين كلب لأنه أتى بنا إلى ذلك المأزق. بل إنه ليس من تكساس بالفعل.

هوجمت وحدة فيك من ثلاث جهات عند جسر يفضي إلى بلدة الموفقية، فأصيب أحد الرقباء في قدمه وطفق ينزف بغزارة. فتح جنود المشاة النيران على مهاجميهم فقتلوا البعض وأرغموا آخرين على الفرار. انسحبت قوات المشاة عدة كيلومترات ثم ارتفعت شكواها من التهور الذي انتشرت به في المنطقة. وفي غضون ذلك شهدوا المدفعية وهي تدك الموفقية دكاً، إذ نثرت القنابل المتفجرة عناقيد قاتلة فوق مناطق واسعة. انطلقت طائرة نفاثة من طراز أ-١٠ ليعلو ضجيجها على نيران الرشاشات. حلقت طائرات الكوبرا الهليكوبتر على مستوى منخفض يشي بالتهديد ثم شنت هجوماً بالقذائف والقنابل اليدوية. وحين تمكنت الفصيلة من دخول البلدة في آخر الأمر، أبصر أفرادها أجزاء واسعة منها وقد استوت بالأرض. تبينوا فوق الأسقف عدداً من الجثث يستعصي على التحديد - ضحايا شظايا القنابل العنقودية. «أصيبت قدم رجل من رجالنا ففجرنا بلدتهم بأسرها»، أنهى أحد جنود المشاة إلى رايت.

إن سرد رايت لهذا الهجوم لاستثنائي، فمن بين آلاف التقارير المكتوبة عن الغزو، أسهب القليل منها فيما أحدثه الغزو من دمار هائل. بل إن أكثر التحليلات دقة تقلل من أهمية هذا الجانب من الحرب. مثال واضح على ذلك كتاب كوبرا II: القصة الحقيقية لغزو واحتلال العراق بقلم مراسل نيو يورك تايمز مايكل آر. جوردون والجنرال برنارد إي. ترينور. لقد وثّق المؤلفان بكل دقة وإقناع العديد من «الأخطاء الفاحشة» التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية والبنتاجون في تخطيط الحرب وتنفيذها. ومع ذلك عند وصف الغزو نفسه، تتصف كتاباتهما بخلوها من الدماء على نحو غريب. ها هي بعض الأمثلة من الكتاب (وقد أضفت إليها تأكيداتي):

● وبينما تهيأت فصيلة ساندرسون للتقدم صوب الطريق السريع I، تعرضت لنيران المدفعية العراقية. وخلال دقائق أطلق الكولونيل دوج هاردينج سداً قاتلاً من النيران المضادة. كان هذا أول نزاع مهم للمدفعية بين الطرفين في الحرب. تفوق فيه الأمريكيون ليخمدوا النيران العراقية مؤقتاً.

● اكتشف ماكلهيني أنه سوف يضطر إلى القتال في مناطق متقاربة ليدمر دفاعات الطيران العراقي الواحد تلو الآخر. استخدم أسلحة عيار ٣٠ مليمترا وصواريخ ليخضع المسجد.

● انتقلت فرقة استطلاع الفوج الثانية إلى حدود البلدة التي كان العراقيون يدافعون عنها ببراعة وتماسك. حمت طائرات الكوبرا قوات المشاة وتوجهت شمالاً نحو البلدة من الجانب الغربي لنهر الغراف الموازي للطريق السريع. تحرك الكولونيل كراباروتا شمالاً و ... أخلى البلدة.

البلدة المشار إليها في هذه الفقرة الأخيرة هي الموفقية - نفس المكان الذي أعلن رايت أن مشاة البحرية قد ساووه بالأرض. إن الوصف الوجيز البسيط في كتاب كوبرا II القائل «بإخلاء» الموفقية لا يوحي بأي من الرعب والتدمير والموت المرافقين للهجوم وفقاً لكتاب «قتل جيل». وعلى عكس رايت، لم يتواجد جوردون أو ترينور إبان الهجوم نفسه. وسعياً لإعادة بنية الروايات، اعتمد المؤلفان اعتماداً كلياً على حوارات الجنود المشاركين في الغزو إلا أن شيئاً لم يدفعهم إلى تدبر أوضاع العراقيين العزل الذين ماتوا نتيجة لأفعالهم. لقد انكتب كتاب كوبرا II من وجهة نظر مخططي الغزو ومنفذيه - كما هو الحال مع الكثير من الروايات الأخرى - لينقل إلى القارئ قليلاً مما قد يكون عليه الأمر حين يقع على المرء العنف.

[٥]

وبينما كانت فصيلة فيك تشرف على بغداد، تعاظمت وتيرة القتال. تمزقت بلدات وقرى صغيرة بنيران مدفعية لا تعرف الرحمة ولم ينفك العراقيون العزل

إن الفكـرة الأسـاسـية القـائمة
وراء تـدريـبـهـم هـى الإقـدام عـلـى المُـحـرم المـطـلـق: ألا وهـو الـقـتـل

يُقتلون بالرصاص عند حواجز الطرق. وفي أحد المشاهد المؤثرة التي وصفها رايت، انزعج بعض جنود المشاة من العدد الضخم للاجئين القذرين الجياع، فاندفعوا لمعاونتهم لكنهم عجزوا مع بشاعة الحاجة عن صنع الكثير. وفي صباح ٦ أبريل بلغوا في النهاية ضواحي بغداد فجابههم ما سماه رايت مشهد رعب من الجثث الآدمية والبقر الميت المنتفخ ضعف حجمه الطبيعي والراقد في المصارف. انحرفت سيارة الرقيب إسبيرا لتتجنب دهس رأس آدمي يستقر في الطريق. وحين دارت العربة، مد بصره إلى كلب يأكل جثة. «هل من الممكن أن نرى ما هو أكثر إثارة للغثيان؟» تأمل أداء الفصيلة حتى لحظتها فقال: «هل تدرك الخراء الذي عملناه هنا، الناس الذين قتلناهم؟ في بلدنا بالعالم المدني، لو فعلنا هذا، سيكون مصيرنا السجن».

إن فيك ورايت يزودان القارئ برواية تقشعر لها الأبدان، رواية لبغداد وهي تنحط إلى الفوضى. ظهر سيل من العراقيين المرعوبين اليائسين عند مصنع سجائر احتلته قوات المشاة. طفقوا يتوسلون إليهم لوضع حد لأعمال النهب غير أن الجنود لا حيلة لهم في الأمر. وفي الشوارع ليلاً أمسى إطلاق النار من العنف ما حال دون أن يغامروا بالخروج. علم فيك بحلول ذلك الوقت أن الطريقة المتهورة التي انتشر بها جنوده كانت في الواقع خطة جريئة لجذب انتباه نيران العراقيين وتشتيت أذهانهم بعيداً عن قوة غزو أساسية اقتحمت العراق من جهة الغرب. نجحت الخطة لكنها لاحت عاطلة من العزاء على ضوء ما اجتاح بغداد من عدم انضباط. لاحظ رايت أن فيك «فقد على ما يبدو إيمانه بالمهمة هنا». لم يكن السبب الفوضى في حد ذاتها بل اكتشافه أن الأمريكيين ليست لديهم خطة حقيقية لتبديد هذه الفوضى.

ومع اقتراب انتهاء وقت رايت بصحبة الفصيلة، ألقى نظرة على كل ما شهده معها:

لقد كنت متواجداً خلال الستة أسابيع الماضية عندما أزهقت هذه الوحدة الصغيرة نسبياً أرواح العديد من الأشخاص. أبصرتُ بعيني ثلاثة مدنيين يُقتلون، تلقى واحد منهم رصاصة مميتة في عينه. إنهم مجرد عينة ليس إلا. لقد قتل مشاة البحرية العشرات في المعركة إن لم يكن المئات من خلال إطلاق نيران مباشرة وضربات مدفعية متكررة لم تميز أحياناً أهدافها. والأرجح أن أحداً لن يقف أبداً على عدد القتلى الذين راحوا من جراء ٣٠٠٠٠ رطل تقريباً من القنابل أسقطتها فرقة الاستطلاع الأولى من الطائرات.



على مسافة
رصاصة واحدة!

لم يزد رايت على ذلك. وعند تلك النقطة من كتابه لاح موت المدنيين موضوعاً أساسياً، وقد تملكني الأسف لأنه لم يواصل مناقشته. ولكي أعلم بالمزيد من التفاصيل، اتصلت بمارك جارلاسكو، المحلل العسكري بمنظمة مراقبة حقوق الإنسان. (اشتغل خلال الغزو في البنتاجون موصياً بأهداف الضربات الجوية) أنبأني جارلاسكو بأنه وفقاً لأكثر التقديرات قبولاً، راح ١٠٠٠٠ مدني خلال الغزو، أكثريتهم ضحايا التحالف. البادي أن القليل من الأمريكيين على دراية بهذا الرقم.

بيد أن رايت أسهب بالفعل في هذا الموضوع أثناء مقابلة أجراها بعد نشر كتابه بفترة قصيرة. إذ صرح «أننا خلال العقد المنصرم، تشبعنا بالمعتقدات التقليدية السائدة عن الجيل الأعظم، عنوان كتاب لتوم بروكوTom Brokaw يدور حول رجال خاضوا الحرب العالمية الثانية، وقد تطلع الكثيرون إلى هذه الحرب بعين الرومانسية. إذ نزعوا إلى تذكر صور مجلة لايف التي تصور البحار العائد إلى الوطن وهو يقبل خطيبته. لقد نسوا أن الحرب ما هي إلا عملية قتل. وفي اعتقادي انه من المهم كمجتمع أن نتذكر هذا، لأننا لدينا الآن جيل ولد خلال العقد السادس ولم يخدم في حرب فيتنام. احتج العديد منهم عليها وقد كبروا الآن ونضجوا ليتولاهم الضجر من غموضها وانعدام أخلاقياتها ثم بدءوا يتشبثون بهذه الأسطورة المنسوجة حول الحرب العالمية الثانية، الحرب الخيرة».

لم أقرأ قط كتاب توم بروكو لكنك لو رجعت بالذاكرة لتستحضر كتاب الجيل الأعظم الحقيقيين، شخصيات مثل كيرت فونيجيت - مؤلف رواية المجزر-خمسة - وجوزيف هيللر ونورمان ميلر ومعاصريهم ممن حاربوا بالفعل في الحرب العالمية الثانية وكتبوا عنها، تجدها عارية تماماً من أية رومانسية. الحق أن الكثير من مؤلفاتهم تقف موقفاً معارضاً من الحرب.

يضيف رايت أن كتابه «يتعمق في مسألة قتل المدنيين وجرحهم». إن إطلاق الرصاص على المدنيين في العراق تم تبريره بأن الحافلات المدنية تضم مقاتلين فدائيين... لكنك حين تبصر فتاة صغيرة ألبسها أحدهم ملابس جميلة وقد انهرست على الطريق بدون ساقين، لا تفكر، حسناً، أنت تعلم أن الفدائيين قريبون وأنها إصابة ملازمة لإطلاق النار.

يشير رايت إلى أن «مشكلة المجتمع الأمريكي تكمن إجمالاً في عدم استيعابنا الحقيقي لماهية الحرب». فوجهة النظر التي تصل إلى الأمريكيين «معقمة زيادة عن اللازم».

أما عن ناثانيل فيك فقد نال منه القتل كل منال. بعد أن عاد من العراق ترقى إلى رتبة كابتن وحمل لقب ضابط فرقة الاستطلاع الأساسية. ومع ذلك لم تبرح الحرب كيانه. أخذ يسدد نظرات متفحصة إلى الناس في الشوارع منقباً عن أي انتفاخ في ملابسهم يشي بأنهم يحملون مسدساً أو قنبلة. وأحياناً ما كان يبكي بدون أدنى سبب على الإطلاق. «ظننت أنني أفقد عقلي»، كتب. وهكذا قرر خريج دارتموث الشاب الذي انضم إلى جنود مشاة البحرية في نوبة من المثالية أن عليه مغادرتهم. شرح أن الكثير من جنود المشاة ذكروني بالمصارعين. تشوبهم صفة غامضة تسمح لبعضهم بارتداء دروع الساق والصدور والخوض في الدماء. أضمرتُ لهم احتراماً وإعجاباً وحاولتُ مجاراتهم لكني لم أستطع البتة أن أكون مثلهم. بمقدوري القتل حينما يستدعي الموقف وقد انهمكتُ في فورة القتال شأني شأن أي رجل آخر. لكن لم يسعني أن أتخذ قراراً واعياً بوضع نفسي في ذلك الموقف مراراً وتكراراً طوال حياتي المهنية.

هام فيك على وجهه بعد أن ترك الفيلق. أدرك أن القتال «أفقده تقريباً عقله». «الأسوأ كان «تكريم الناس وشكرهم «على ما فعلتموه هناك». الشكر على ماذا؟ أردتُ أن أسألهم: إطلاق الرصاص على الأطفال، الانكماش رعباً خلف أحد الأزقة، إسقاط قنابل المدفعية على بيوت الناس؟».

فيك اليوم طالب دراسات عليا بجامعة هارفارد. يسعى إلى نيل شهادة مشتركة في الإدارة العامة والأعمال. يأمل عند تخرجه في يونية أن يعمل في سياسة الطاقة المتعلقة بالأمن القومي. رايت أيضاً محرر مساهم في مجلة فانيتي فير. تحول قناة (إتش بي أو) HBO كتاب «قتل جيل» إلى مسلسل قصير في الوقت الحاضر. سوف يشاهده الملايين ولو نجح في سرد بعض ما وصفه الكتاب من أهوال، قد يعاون على أن يعي الأمريكيون الخسائر البشرية للغزو.

لا ريب أن تلك الخسائر قد تضاعفت عدة مرات منذ الغزو. وفي مقالة تالية أتمنى أن أسبر كيف أنها هي الأخرى ظلت متوارية إلى حد ما عن الأنظار. ■

كتب أخرى ناقشها المقال:

من منزل إلى منزل: مذكرات ملحمية عن الحرب
House to House: An Epic Memoir of War
بقلم: ديفيد بيلافيا وجون آر. برانينج
David Bellavia, with John R. Bruning
Free Press, 321 pp., $26.00

مطاردة الأشباح: إخفاقات وواجهات في العراق: وجهة نظر جندي
Chasing Ghosts: Failures and Facades in Iraq: A Soldier's Perspective
بقلم: بول ريكهوف
Paul Rieckhoff
NAL Caliber, 326 pp., $15.00

أحب بندقيتي أكثر منك: شابة وأنثى في جيش الولايات المتحدة
Love My Rifle More Than You: Young and Female in the US Army
بقلم: كيلا ويليامز ومايكل إي. ستوب
with Michael E..Kayla Williams Staub
Norton, 292 pp., $14.95

كوبرا :II القصة الحقيقية لغزو واحتلال العراق
Cobra II: The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq
بقلم: مايكل آر. جوردون وبرنارد إي. ترينور
Michael R. Gordon and Bernard E. Trainor
Vintage, 727 pp., $16.00

ثقافتهم هى باختصار «الاستمتاع بالقتل» ، ففى نهاية الاجتماعات الميدانية يشبك جنود المشـــاة أياديهـــم ليصيحـــوا: اقتـــل!

السادية الأمريكية الرسمية!



لقد خسرنا مكانتنا باعتبارنا المدافع الرائد عن حقوق الإنسان، وكبطل للعدل والإنصاف وحكم القانون

أنطونى لويس
Anthony Lewis

■■ أحضر محمد جواد، وهو أفغانى متهم بإلقاء قنبلة يدوية على قافلة من الجنود الأمريكيين فى كابول فى أواخر عام ٢٠٠٢ مما أدى إلى جرح اثنين، إلى معسكر سجن خليج جوانتانامو فى فبراير من عام ٢٠٠٣. وكان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره. وفى ديسمبر من عام ٢٠٠٣ حاول الانتحار. وفى شهر مايو التالى أخضع لما أسماه المسئولون فى جوانتانامو «برنامج المسافر الدائم». فقد كان يكبل كل ثلاث ساعات فى النهار والليل وينقل إلى زنزانة أخرى. وهو ما حدث ١١٢ مرة على مدى أربعة عشر يوماً.

نعرف ماذا جرى عمله للسيد محمد جواد لأن المحامى العسكرى المعين للدفاع عنه الميجور ديفيد ج ر. فراكت (من احتياطى القوات الجوية) سعى ونجح فى مسعاه للحصول من القاضى العسكرى على أمر لسجانيه بإبراز سجلات أسره. وقد أوضح الميجور فراكت واقع معاملة جواد فى مناقشته الختامية فى جلسة ما قبل المحاكمة يوم ١٩ يونيو ٢٠٠٨، وهى المناقشة التى كانت عرضاً جديراً بالملاحظة للشجاعة القانونية والأخلاقية.

سأل الميجور فراكت: «لماذا عذب محمد جواد؟، لماذا اختار المسئولون العسكريون صبياً مراهقاً حاول الانتحار فى زنزانته قبل أقل من خمسة أشهر لإخضاعه لتجربة الحرمان من النوم السادية هذه؟، لقد قال الضباط فى جوانتانامو إنهم لا يعتقدون أن لديه أية معلومات استخبارية قيمة، بل إنه لم يستجوب خلال «برنامج المسافر الدائم». وقال الميجور فراكت: «السيناريو الأرجح هو أنهم قرروا تعذيب السيد محمد جواد للتسلية فحسب، كى يعطوه درساً، أو ربما ليجعلوه عبرة للآخرين».

ولكن الميجور فراكت لم يتوقف عند من عذبوا محمد جواد. لقد تناول أمر الرئيس بوش الصادر فى ٧ فبراير من عام ٢٠٠٢ بألا يمنح المعتقلون فى جوانتانامو الحماية المنصوص عليها فى معاهدات جنيف، بزعم كونهم أعضاء فى القاعدة أو طالبان أو مؤيدين لهما. وقال إنه فى ٧ فبراير ٢٠٠٢،

The Challenge: Hamdan v. Rumsfeld and the Fight over Presidential Power
التحدى: حمدان ضد رامسفيلد والمعركة حول قوة الرئاسة
by Jonathan Mahler
Farrar, Straus and Giroux, 334 pp., $26.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

خسرت أمريكا القليل من عظمتها فى ذلك اليوم. لقد خسرنا مكانتنا باعتبارنا المدافع الرائد عن حقوق الإنسان، وكبطل للعدل والإنصاف وحكم القانون. ... ومما يبعث على الأسى أن هذه اللجنة العسكرية «التى كانت تعقد جلسة محمد جواد» لم تكن لديها سلطة عمل أى شىء لمن سهلوا التعذيب مثل جون يو وجاى بايبى وروبرت ديلهانتى وألبرتو جونزاليس ...، وديفيد أدنجتون ووليام هاينز ونائب الرئيس تشينى ودونالد رامسفلد، ...

أثارت إشارة الميجور فراكت إلى «من سهلوا» التعذيب سؤالاً مهماً، وهو كيف دخلت حكومة الولايات المتحدة فى أعمال تعذيب السجناء؟ ولم يكن الحرمان من النوم التكنيك الوحيد المستخدم مع السجناء فى جوانتانامو وغيرها من الأماكن. فقد شملت التكنيكات الأخرى إجبار السجناء على اتخاذ أوضاع مجهدة، وتعريضهم للأضواء المبهرة والدرجات الشديدة من الحرارة والبرودة، والإهانة الجنسية، والعرى، والغمر بالماء، أو «العلاج المائى» الذى يحدث اختناقاً جزئياً.

[١]

منذ كشف الإساءة إلى السجناء فى أبو غريب فى أبريل من عام ٢٠٠٤ وحكومة بوش تؤكد أن أى سوء معاملة كان من فعل بعض «التفاح الفاسد»، ولم يتخذ أى إجراء ضد أية رتبة كبيرة، عسكرية أو مدنية. ولكن التراكم المطرد للفضائح، التى كان آخرها فى يونيو من خلال تقرير لجنة مجلس الشيوخ وجلسة استماعه، جعلت من الواضح أن المعاملة السيئة للسجناء كانت سياسة متعمدة آتية من أعلى، من البنتاجون ووزارة العدل والبيت الأبيض.

فى يوليو من عام ٢٠٠٢ استعرض المحامى العام لوزارة الدفاع الأمريكية التكنيكات المستخدمة فى برنامج للبنتاجون مصمم لتعليم طرق مقاومة التعذيب بواسطة القوات الأجنبية. (ركز البرنامج بشكل خاص على التكنيكات التى استخدمتها القوات الصينية أثناء الحرب الكورية لحث الأسرى الأمريكيين على الاعتراف زوراً بأشياء مثل استخدام حرب الجراثيم). وفى أغسطس، أصدر مساعد المدعى العام جاى س. بايبى، رئيس مكتب المستشار القانونى بوزارة العدل مذكرة سرية مكونة من خمسين صفحة انتهت إلى أن الرئيس سلطة شاملة وتخول له الأمر بتعذيب السجناء فى الحرب على الإرهاب. وهى تقوم على مذكرة سابقة كتبها جون يو وروبرت ديلاهانتى، التى أقرها ألبرتو جونزاليس، وكان حينذاك المستشار القانونى للبيت

فى الربيع الماضى نشر الباحث فى القانون الدولى فيليب ساندز كتابه القيم
Torture Team: Ramsfeld's Memo and the Betrayal of the American Values
(فريق التعذيب: مذكرة رامسفلد وخيانة القيم الأمريكية)

الأبيض فى عهد الرئيس بوش. وقد ادمجت نتائج بايبى القانونية فى مذكرة أعدت لوزير الدفاع رامسفلد.

وفى أكتوبر من عام ٢٠٠٢ ذهب محام كبير فى وكالة الاستخبارات المركزية اسمه جوناثان فردمان إلى جوانتانامو وناقش تكنيكات الاستجواب القاسية مع الضباط. وقالت محامية عسكرية، هى اللفتنانت كولونيل دايان بيفر، إن بعض الأساليب التى كانت ممنوعة من قبل مثل الحرمان من النوم كان الجيش يستخدمها مع السجناء فى معتقل قاعدة باجرام الجوية فى افغانستان، ولكنها أخفيت عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر عند زيارة ممثليها له. كما قالت إن «اللجنة الدولية للصليب الأحمر همٌ خطير». وقال فردمان إن مسألة ما إذا كان بالإمكان تسمية المعاملة القاسية تعذيباً أم لا «مسألة فهم». كما قال: «إذا مات الشخص المعتقل يكون معنى هذا أنكم تنفذون ذلك بشكل خاطئ».

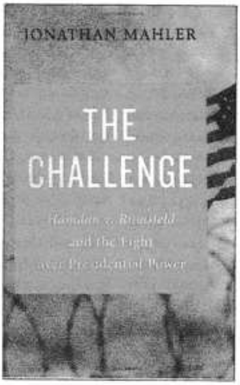
فى نوفمبر من عام ٢٠٠٢ أوصى المستشار القانونى لوزارة الدفاع ويليام هاينز بأن يقر وزير الدفاع رامسفلد رسمياً عدداً من أساليب الاستجواب العدوانية فى جوانتانامو من بينها أوضاع الضغط العصبى واستخدام الكلاب المهاجمة والحرمان الحسى. وأصدر رامسفلد موافقته فى أمر سرى فى ٢ ديسمبر عام ٢٠٠٢.

حذر عدد من القادة العسكريين من التكنيكات الجديدة القاسية. وأبلغ ألبرتو مورا المستشار القانونى للبحرية هاينز أنه أمكنهم «الارتفاع إلى مستوى التعذيب». وقال إنه لو لم يكن هناك ما يقيدهم لكتب مذكرة تقول إن بعضهم انتهك «المعايير القانونية المحلية والدولية». وفى ١٥ يناير من عام ٢٠٠٣ سحب رامسفلد موافقته. وفى ابريل وقّع مذكرة أخرى تعدد الأساليب المسموح بها، بما فى ذلك «تعديل» النوم، وقال إن أساليب أخرى ستُبحث إذا اقتضى الأمر ذلك.

ونقلت شبكة إيه بى سى نيوز فى أبريل من العام الحالى أن كبار مسئولى الأمن فى حكومة الرئيس بوش التقوا فى عام ٢٠٠٣ لمناقشة أساليب الاستجواب «المحسّنة». ومن بين من حضروا تلك الاجتماعات نائب الرئيس تشينى ومستشاره حينذاك ديفيد أدنجتون ورئيس هيئة الأركان حالياً، والنائب العام جون أشكروفت، وكوندوليزا رايس التى كانت حينذاك مستشارة الرئيس بوش للأمن القومى، ورامسفلد، وهاينز. وعندما سُئل الرئيس عن التقرير أكده. فقد قال لمارثا راداتز من شبكة إيه بى سى: «الحقيقة أننى أبلغت البلاد أننا فعلنا ذلك. كما أبلغتها أنه قانونى. إن لدينا آراء قانونية مكنتنا من القيام به».

[٢]

بذلت حكومة بوش جهودا حثيثة للتكتم على المعلومات الخاصة بسوء معاملة سجنائها. وقد تم تدمير أشرطة الفيديو الخاصة باستجوابين رهيبين على الأقل. وفى جلسات المحكمة فى جوانتانامو وأماكن أخرى اعترض محامو الحكومة على نشر أساليب الاستجواب، قائلين إن ذلك سوف ينبه أعضاء القاعدة إلى ما سوف يواجههم إن قُبض عليهم. ومازلنا لا نعرف ما تم عمله لهوسيه جاديلا، الأمريكى الذى احتُجز لسنوات فى حبس انفرادى باعتباره مقاتلاً عدواً مزعوماً ويُقال الآن أنه يعانى من ضرر نفسى طويل المدى.



بالرغم من ذلك فإن أى أمريكى كان يريد معرفة شىء عن القسوة التى عاملت بها حكومته السجناء وكيف وقعت كان من الممكن أن يعرف قدراً كبيراً بحلول هذا الربيع. فقد تكرر نشر عدد من الخبراء فى القانون وفى حقائق التعذيب تعليقات فى الصحف المطبوعة والمدونات، وقد استفدت استفادة كبيرة مما كتبوه. ففى الربيع الماضى نشر الباحث فى القانون الدولى فيليب ساندز كتابه القيم Torture Team: Ramsfeld's Memo and the Betrayal of the American Values (فريق التعذيب: مذكرة رامسفلد وخيانة القيم الأمريكية) ونشرت مجلة «فانيتى فير» فقرات مطولة منه. ونشرت هيومان رايتس ووتش وغيرها من جماعات حقوق الإنسان تقارير مهمة عن الإساءة للسجناء.

التقى توم لاستر وفريق من الصحفيين فى صحف ماكلاتشى نظرة جديدة ومهمة على الوضع فى سلسلة من خمس مقالات مهمة فى شهر يونيو. وقد تخلصت قصصه الإخبارية من بعض الخرافات الرسمية بشأن المعتقلين. على سبيل المثال أنهم كجماعة «أسوأ السيئين» كما قال الوزير رامسفلد. كما قدم لاستر بعض الروايات المرعبة عن إساءة معاملة السجناء.

كان أفغانى اسمه نصرت خان فى السبعين من عمره عندما وضعه الجنود الأمريكيون فى زنزانة انفرادية فى السجن الذى بقاعدة باجرام الجوية فى ربيع عام ٢٠٠٣. وقد أصيب بسكتتين دماغيتين على الأقل. وقال خان إنهم أبقوه طوال أسبوعين تقريبا معصوب العينين، وعلى أذنيه سماعتان ويداه مكبلتان وراء ظهره. وقال لاستر إنه عندما أخرجوا خان من الزنزانة فى النهاية كان «نصف مجنون ولم يكن يستطيع الوقوف بدون مساعدة». وقال إنهم نقلوه إلى جوانتانامو بعد ذلك على نقالة.

أحد منجزات سلسلة مقالات لاستر هو انها ذكرت القراء بأن جوانتانامو ليست المكان الوحيد الذى كان يُحتجز فيه السجناء، ومازالوا. ففى أفغانستان على سبيل المثال، تحتفظ الولايات المتحدة بسجن فى قاعدة قندهار بالإضافة إلى قاعدة باجرام. وقال لاستر إنه فى كل من هذين المكانين كان السجناء يعرضون بشكل روتينى للإساءة البدنية منذ أوائل ٢٠٠٢. وهناك سجون لا تزال سرية تديرها وكالة الاستخبارات المركزية.

يقول لاستر إن الحراس فى باجرام كانوا يركلون السجناء ويضربونهم بركبهم ويلكمونهم بوحشية منظمة. وأبلغ الحراس السابقون وكذلك المعتقلون صحفيى ماكلاتشى بما أسماه لاستر العنف السادى. فطبقاً لما قالوه، بلغت القسوة ذروتها فى شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٢ عندما علّق أفغانيان من أرسغهم بسلاسل مدلاة من السقف وضربهما الجنود الأمريكيون حتى الموت.

جرى تحقيق مع جنديين حول أعمال القتل هذه. واعترف جندى الاختصاص ويلى براند انه ضرب أحد الأفغانيين سبعا وثلاثين مرة. وقد حكم عليه بخفض رتبته إلى نفر. والشخص الآخر الذى أجرى تحقيق معه هو الكابتن كريستوفر بيرينج قائد سرية شرطة عسكرية احتياطية بالجيش. وقد وجه إليه اللوم.

وقد أوصى المحامى الحربى الذى حقق مع بيرينج، وهو اللفتنانت كولونيل توماس بيرج، بالتساهل لأن «الحكومة لم تقدم أى دليل على ما هى تكتيكات وتكنيكات وإجراءات تحظى بالموافقة فى عمليات المعتقلين». بعبارة أخرى، لم يعد متوقعاً من أفراد الجيش الأمريكى معرفة أن ضرب سجين حتى الموت يتعارض مع القوانين.

فلماذا كان الجنود على ذلك القدر من الوحشية؟ يشير لاستر إلى الغضب من هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ الإرهابية. وإحساسهم بأن رؤساءهم فى واشنطن كانوا يريدون «الهجوم بلا هوادة». وكان قرار الرئيس بوش بإلغاء الحماية التى توفرها اتفاقيات جنيف بمثابة رسالة تفيد بأنه ليست هناك قواعد.

أمضت صحف ماكلاتشى ثمانية أشهر فى التحقيق وإعداد المقالات. (يذكرنا هذا بأنه من غير المرجح أن يكون لدى المدونين، الذين يقال لنا أحيانا إنهم مستقبل الصحافة، الوقت والموارد للتحقيق فى سلوك الحكومة الخاطئ مثلما تحقق فيها الصحف كأحسن ما يكون.) فقد أجرى صحفيو ماكلاتشى مقابلات مع مسئولين أمريكيين وأفغان وغيرهم. وستة وستين معتقلاً سابقاً.

من بين السجناء الستة والستين كان اثنان وعشرون فقط قد اعتقلتهم القوات الأمريكية فى الأصل. أما الباقون فقد سلمهم أفراد قبائل أخرى على نزاع معهم، أو جيران غاضبون، أو أشخاص يريدون تحصيل المكافآت الكبيرة التى تقدمها الولايات المتحدة مقابل «الإرهابيين». وقال توماس وايت وزير الجيش السابق إنه كان من الواضح منذ فتح معتقل جوانتانامو فى أوائل ٢٠٠٢ أن ثلث السجناء على الأقل لا ينتمون إلى ذلك المكان.

النقطة الواضحة الأخرى التى أوضحتها مقالات ماكلاتشى هى أن سوء معاملة السجناء جعلت البعض ممن لم تكن لهم صلة سابقة بالحركات المعادية لأمريكا يغضبون بشدة من الولايات المتحدة. وليست هذه نتيجة مستغربة تنقلها المقالات، إلا أنها تقدم معلومات دقيقة. فقد اقتبست تقريراً للاستخبارات الباكستانية عن الرجال الذين أُطلق سراحهم من جوانتانامو يقول إن لديهم «مشاعر شديدة التطرف من الاستياء والكراهية ضد الولايات المتحدة الأمريكية».

[٣]

رفضت المحكمة العليا ثلاث مرات خلال الشهور الأربعة الأخيرة دفاعات إدارة بوش القانونية الخاصة ببرنامجها لاعتقال «المقاتلين الأعداء» المزعومين. وفى عام ٢٠٠٤، وفى قضية رسول ضد بوش، رأت أغلبية ٦ ضد ٣ أن بإمكان السجناء فى جوانتانامو التحقق من مشروعية اعتقالهم عن طريق التقدم بطلب للمحاكم الفدرالية لاستصدار

السادية الأمريكية الرسمية!

أمر قضائى للنظر فى مشروعية حبسهم. وفى عام ٢٠٠٦، فى قضية حمدان ضد رامسفلد، رأت أغلبية ٥ ضد ٣ أن محاكمات السجناء أمام اللجان العسكرية فى ظل القواعد التى وضعتها حكومة بوش غير قانونية لأن القيود المفروضة على المتهمين تخالف القانون الموحد للعدالة العسكرية واتفاقيات جنيف. وفى شهر يونيو الحالى، وفى قضية بومدين ضد بوش، رأت أغلبية ٥ ضد ٤ أن لائحة الكونجرس التى تحظر على معتقلى جوانتانامو استصدار أمر قضائى للنظر فى مشروعية حبسهم مخالفة لضمان الدستور لهذا الحق.

تسببت تلك القرارات فى خروج صرخة احتجاج من اليمين السياسى. فقد دعا السناتور جون ماكين، وهو أحد الناجين من التعذيب كأسير فى فيتنام الشمالية، وكان فى يوم من الأيام منتقداً لممارسات بوش الخاصة بالاعتقال، قرار بومدين «واحداً من أسوأ القرارات فى تاريخ البلاد». أما آراء القضاة المعارضة لحكم الأغلبية فقد تنبأت بلغة مدوية أن يلحق القرار ضرراً خطيراً بأمن البلاد.

القاضى أنطونين سكاليا، الذى لديه موهبة خاصة بالمعارضين المثيرين للقلق بلا داع المقدر أن يثيروا هجمات سياسية على قرارات المحكمة، وقد استخدمها على نحو بالغ الأثر فى قضية بومدين. فقد تنبأ بأن القرار سوف تكون لها نتائج «مدمرة»، وقال إن «ثلاثين من السجناء على أقل تقدير أُطلق سراحهم من جوانتانامو عادوا إلى ميدان القتال». وبالنسبة للرقم ثلاثين اقتبس القاضى سكاليا تقرير لجنة جمهورية معارضة فى مجلس الشيوخ اعتمد على بيان ألقاه المتحدث باسم البنتاجون فى عام ٢٠٠٧: «تشير تقاريرنا إلى أن ثلاثين على أقل تقدير من معتقلى جوانتانامو السابقين شاركوا فى أنشطة عسكرية معادية للتحالف بعد مغادرتهم المعتقل الأمريكى».

غير أن ادعاء سكاليا عودة ثلاثين إلى ميدان القتال فضح زيفه المنتقدون، والبنتاجون نفسه، منذ إعلانه أول مرة. فقد أشار البروفيسور مارك دينبو من جامعة سيتون هول إلى أن وزارة الدفاع نفسها ذكرت أسماء خمسة عشر فقط من المفترض أنهم أصحاب سوابق، وقيل إن ثمانية من هؤلاء لم يفعلوا شيئاً سوى انتقاد سياسة الاعتقال الأمريكية بالكلام. وقد تخلت وزارة الدفاع عن الرقم ٣٠ فى وثيقة سلمتها للكونجرس قبل أسبوعين من قرار بومدين. وبعد القرار كتب المحامى من بوسطن سابين ويليت، الذى مثل اثنين من المعتقلين السابقين جاء اسماهما ضمن الثلاثين، فى صحيفة «ذا بوسطن جلوب» مقالاً فى صفحة الرأى أن موكليه لم يفعلا شيئاً سوى (أ) نشر مقال فى «النيويورك تايمز» و(ب) إجراء مقابلة. وقد حكم البنتاجون على هذه التعليقات العامة بأنها «عدائية».

لوّح السناتور ماكين كذلك بالمقاتلين الثلاثين المفترض أنهم عادوا. وكذلك فعل جون يو كبير صائغى آراء وزارة العدل التى تقول إن للرئيس سلطة مطلقة لتعذيب السجناء. وقال البروفيسور (وهو حالياً يدرّس القانون فى جامعة كاليفورنيا ببركلى) إن المحكمة العليا فى قضية بومدين فتحت الطريق أمام الأجانب «الذين أسروا وهم يقاتلون ضد الولايات المتحدة، كى يتحدوا اعتقالهم». وقد أعطى ذلك صورة زائفة. لا شك فى كونها زائفة عمداً. للمعتقلين فى جوانتانامو. فمعظمهم لم «يؤسروا وهم يقاتلون». وكما رأينا فإن معظمهم سلمهم الجيران الأفغان الحاسدون الذين كانوا يرغبون فى الحصول على الجوائز الأمريكية. وقد أعتُقل آخرون فى أماكن بعيدة جداً مثل زامبيا. والواقع أن مقدمى الالتماسات فى قضية بومدين شملوا ستة جزائريين كانوا يقيمون فى البوسنة وألقت الشرطة البوسنية القبض عليها، بناءً على طلب المسئولين الأمريكيين، وسلمتهم لهم.

قال كبير القضاة جون روبرتس فى رأيه المخالف لحكم الأغلبية فى قضية بومدين إن المحكمة ألغت أكثر أنساق الحماية الإجرائية سخاءً التى تم توفيرها للأجانب الذين يعتقلهم هذا البلد كمقاتلين أعداء. وقد صاغت الفروع السياسية هذه الإجراءات وسط صراع عسكرى دائر، بعد قدر كبير من البحث المتأنى والنقاش المضنى.

ولكن فى هذا الصراع، على عكس ما سبقه من صراعات، لم يكن للرجال الذين أسروا حق اللجوء إلى ذلك البند من اتفاقية جنيف الذى يطالب بالاستماع المنصف لاكتشاف ما إذا كانوا بالفعل مقاتلين أعداء أم لا. وقد غيرت إدارة بوش الإجراءات على استحياء فقط بعد أن أجبرتها الأحداث على ذلك: أى فضيحة أبو غريب ثم قرارات المحكمة العليا المتعاقبة.

كان مصور الجزيرة سامى الحاج فى طريقه إلى أفغانستان فى عام ٢٠٠١ عندما أوقفه مسئول باكستانى وسلمه للولايات المتحدة. وقد احتُجز ست سنوات فى جوانتانامو. ولم يُسأل عن القاعدة وإنما عن الجزيرة. (وقد أطلق سراحه فى عام ٢٠٠٨). وكانت قضيته ضمن قضايا عديدة لم يكن فيها ما يشير إلى أن المعتقل «مقاتل عدو».

لا يعد فتح المحاكم الفدرالية أمام طلبات استصدار أمر قضائى للنظر فى مشروعية حبس المعتقلين بإعطائهم تذكرة سريعة إلى الحرية. ولكنه على أقل تقدير بمثابة خطوة أولى نحو المحاسبة. فهو منبر يمكن من فوقه بحث معاملة المعتقل والأسباب المؤكدة لحبسه. وكما كتب جورج ويل فى عمود انتقد فيه السناتور ماكين بشدة لما اتسمت به تعليقاته على استصدار الأمر القضاء للنظر فى مشروعية حبس المعتقلين من جهل، «يبدأ حكم المحكمة العليا فقط رسم حد لسلطة الحكومة الخاصة باعتقال الأشخاص بلا تمييز التى لولا ذلك لظلت غير محدودة».

المثال المذهل لأهمية لجعل المحاكم تقيد القرارات الرسمية بأن شخصاً ما «مقاتل عدو»، هى حالة حذيفة چرهات وهو من المسلمين الأويغور فى الصين الموجودين فى جوانتانامو. وچرهات الذى زعم الجيش الأمريكى أنه كان فى معسكر تدريب فى أفغانستان فى عام ٢٠٠١، قُبض عليه فى باكستان فى خريف ٢٠٠١. وقد وجدت لجنة من ثلاثة قضاة من محكمة الاستئناف بدائرة مقاطعة كولومبيا فى شهر يونيو أنه ليست هناك أدلة مقنعة تدعم تسمية الحكومة له بالمقاتل العدو. وضمت اللجنة كبير قضاة المحكمة ديفيد سنتل، وهو واحد من أكثر القضاة الفدراليين محافظةً فى البلاد. وقد سَخَر رأيها من حجة الحكومة، حيث قارنها بعبارة شخصية لويس كارول: «لقد قلتها ثلاثاً: ما أقوله لكم ثلاث مرات فهو صحيح».

[٤]

على عكس جون يو وويليام هاينز، دافع معظم المحامين الأمريكيين الذين أشركوا فى قضايا التعذيب والاعتقال غير المحدود عن مُثل العدالة الأمريكية. وكان ذلك على نحو مذهل فى قضية المحامين فى الخدمات العسكرية، أى القضاء العسكرى. والميجور فراكت، الذى أشرت من قبل إلى حجته القوية نيابةً عن محمد جواد، مثال واحد من بين أمثلة عديدة. وقد تطوعت أعداد كبيرة من المحامين الخاصين بوقتهم وكافحوا ضد العقبات الرسمية كى يمثلوا السجناء.

جرى بحث عمل المحامين من أجل المعتقلين فى كتاب جوناثان ماهلر The Challenge: Hamdan v. Rumsfeld and Fight over Presidential Power (التحدى: قضية حمدان ضد رامسفلد والحرب على السلطة الرئاسية). ولكنه يزيد كثيراً عن كونه كتاباً عن القانون والمحامين. فهو يحكى قصة الأسير الذى أعطى اسمه لقرار دستورى عظيم: وهو يصف الكفاح الشخصى للمحامين، وشجاعتهم، وأخطاءهم. والنتيجة عمل ذو دراما نادرة.

كان سالم حمدان، الذى أعطى اسمه لقرار دستورى رائد فى المحكمة العليا، يمنياً مسكيناً جرى تجنيده للجهاد وأصبح سائق أسامة بن لادن فى أفغانستان. وقد ألقت قوات التحالف الشمالية القبض عليه هناك فى أواخر ٢٠٠١ وسلمته للولايات المتحدة. وفى مايو من عام ٢٠٠٢ نُقل إلى المعسكر السجن فى جوانتانامو.

(فى ٦ أغسطس، وبعد محاكمة اللجنة العسكرية الأولى فى جوانتانامو، أُدين حمدان بتقديم الدعم المادى للإرهاب، ولكن ليس بتهمة التآمر الأكثر خطورة. وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات ونصف السنة، وهو ما يقل كثيراً عن السجن مدى الحياة الذى سعى إليه المحققون العسكريون طويلاً. وعلاوة على ذلك، فقد صدّقت المحكمة على الشهور الواحد والستين التى أمضاها حمدان فى الاعتقال منذ توجيه التهمة، وهو ما يعنى أن حكمه سوف يكتمل مع نهاية العام الحالى. ولكن مصيره بعد ذلك غير مؤكد، لأن إدارة بوش تزعم أنه يمكنها الإبقاء على المعتقلين فى جوانتانامو، سواء صدرت ضدهم أحكام أو بُرئوا فى محاكمة عسكرية، أو لم يحاكموا بالمرة، إلى أن تنتهى «الحرب على الإرهاب».)

إحدى الحقائق البارزة التى كُشفت فى هذا الكتاب هى أن حمدان كان أول من استجوبه عميل لمكتب التحقيقات الفدرالى فى جوانتانامو كان حريصاً على توطيد العلاقة معه، وفى أثناء ذلك حصل على بيانات مفصلة منه عن القاعدة وبعض قياداتها. وكانت لدى العميل أدلة كثيرة تمكّن من التحقيق مع حمدان فى محكمة فدرالية؛ وقد ظن أنه يمكن إقناع حمدان بالشهادة ضد شخصيات أكثر أهمية من القاعدة مقابل تخفيف الحكم.

أحد منجزات سلسلة مقالات لاستيرهو أنها ذكّرت القراء بأن جوانتانامو ليست المكان الوحيد الذى كان يحتجز فيه السجناء، ومازالوا

لم يعد هناك شك فيما إذا كانت إدارة بوش قد ارتكبت جرائم حرب أم لا

ولكن ما أغضبه هو أنه تحددت محاكمة حمدان أمام لجنة عسكرية؛ وعلى الفور فُصل مكتب التحقيقات الفدرالي عنه وفقد شاهداً كان من المحتمل أن يصبح مهماً.

كان القاضي العسكري الذي عينته السلطات العسكرية ممثلاً لحمدان في اجراءات اللجنة هو اللفتنانت كوماندر تشارلز سويفت من البحرية. وقد عاد إلى البحرية بعد مدرسة القانون وأمضى جزءاً كبيراً من وقته كمحامي دفاع جريء في القضاء العسكري. وعند فتح قضية حمدان كان لسويفت دور مهم، وهو التعامل مع الموكل. فقد زار حمدان في جوانتانامو في محاولة لرفع معنوياته خلال سنوات من التقدم القليل على نحو محبط والمعاملة التي تتسم بالعقاب في السجن. (أضرب حمدان عن الطعام وكان يُغذّى تغذية قسرية لفترة طويلة.) تحدث سويفت كذلك مع الصحافة، بحرية وبإسهاب، عن عدم نزاهة طريقة عمل اللجنة.

وكان زميل سويف المدني في القضية أستاذاً بمركز القانون في جامعة جورج تاون اسمه نيل كاتايل. وكان دوره هو تولى التحدي الدستوي لشروط اللجنة التي وضعها الرئيس بوش. وكانت تلك مهمة مخيفة، حيث بدأت بضرورة تأكيد حق المعتقل في رفع الدعوى القضائية وفي الاستعانة باتفاقيات جنيف. وقد قاوم محامو الحكومة الأمرين تماماً.

كان لدى كاتايل دافع قوي للنجاح في تكريسه لجهده في مراحل القضية المختلفة. ويصفه ماهلر وهو يكتب ستّاً وعشرين مسودة لمذكرة ويجرب الحجة الشفاهية في خمسة عشر مسعى قضائياً موضع جدل في خمس مدن. ويقول ماهلر إنه جاء بمحامين من مؤسسة كبيرة كمحام مشارك ولكنه كان «شديد الغطرسة» بحيث لم يستمع إلى أرائهم. لقد كان يعمل بلا هوادة وينهي المذكرة في الساعة ٤٥، ٥ صباح اليوم الواجب تقديمها فيه. وأثناء ذلك كله كان يشارك زوجته مسئوليات رعاية الأطفال، وقام برحلة إلى الهند للمساعدة في دفن والده. وقد بلغ تلف علاقته بتشارلى سويفت حد الأزمة تقريباً.

ونحن نقرأ هذا الكتاب نعرف أن المحكمة العليا ستتخذ القرار في النهاية؛ ولكنى وجدت نفسى داخل دراما صراع المحامين الذى كنت أنتظره، مع قلقهم، لرؤية ما إذا كانت المحكمة سوف ستنظر القضية أم لا، ومن ثم ما الذى سوف تفعله. وعند التوصل إلى حل خرج من المحكمة العليا وقال للصحفيين:

ما حدث اليوم هو أن رجلاً من اليمن، وصل فى تعليمه إلى الصف الرابع متهم بالتآمر مع واحد من أكثر الأشخاص رعباً على هذا الكوكب، يمكنه مقاضاة أكثر رجال العالم نفوذاً، وهو رئيس الولايات المتحدة، وتُنظر قضيته. وهذا شيء على قدر كبير من العظمة فيما يتعلق بأمريكا.

وهو ما أضاف إليه تشارلى سويفت: «فيما هى التى فازت هنا اليوم، مبادئنا الخاصة بحكم القانون...».

[٥]

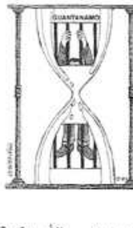
دفع سويفت ثمناً غالياً فى البحرية مقابل عمله الناجح نيابة عن حمدان. فقد تخطوه فى الترقية واستقال من تكليفه. وقد أصبح أستاذاً زائراً فى مدرسة إمروى للقانون، ومثّل باعتباره محامياً مدنياً حمدان فى إجراءات اللجنة العسكرية ضده التى بدأت أخيراً فى عام ٢٠٠٨. ولكنه لم يكن الوحيد الذى عوقب للدفاع عن القيم الأمريكية. فالميجور جنرال أنطونى تاجوبا، الذى عُيّن للتحقيق فى التعذيب داخل سجن أبو غريب ووجد أن هناك «إساءة إجرامية ماجنة» إلى المعتقلين، أُجبر على التقاعد.

كتب الجنرال تاجوبا مقدمة لكتاب Broken Laws, Broken Lives: Medical Evidence of Torture by US Personnel and Its Impact (قوانين محطمة، أرواح محطمة: أدلة طبية على التعذيب الذى مارسه أفراد الجيش الأمريكى وآثره) وهو تقرير أصدره فى شهر يونيو أطباء من أجل حقوق الإنسان عن الآثار الباقية على المعتقلين لما مورس عليهم، بناء على الفحوص الطبية التى أجريت لبعضهم. وقال الجنرال تاجوبا إن «القائد العام وهؤلاء الذين تحت امرته صرحوا بنظام مرتب من التعذيب». وأضاف تاجوبا:

بعد سنوات من الإفشاءات بواسطة التحقيقات الحكومية، والروايات الإعلامية، والتقارير من منظمات حقوق الإنسان، لم يعد هناك شك فيما إذا كانت الإدارة الحالية قد ارتكبت جرائم حرب أم لا. والسؤال الوحيد الذى ما زال بحاجة إلى إجابة هو ما إذا كان الذين أمروا باستخدام التعذيب سيحاسبون أم لا.

حتى الآن، «من سهلوا التعذيب» كما أسماهم الميجور فراكت، فى حال طيبة. ظهر يو وأدنجتون فى شهر يونيو أمام اللجنة القضائية فى مجلس النواب؛ وقد تحاشيا الإجابة عن الأسئلة الخاصة بمسئوليتهما. وعندما سُئل أدنجتون عما إذا كان من المشروع تعذيب ابن أحد المعتقلين قال: «لست هنا لتقديم مشورة قانونية للجنتكم». وظهر ويليام هاينز المستشار القانونى السابق لوزارة الدفاع أمام لجنة مجلس الشيوخ وقال مراراً، رداً على الأسئلة، إنه لا يتذكر. وكان عنوان أحد الأعمدة فى «واشنطن بوست» عن شهادته «أبو غريب؟ لا أتذكر هذا الاسم».

التعذيب بواسطة المسئولين أمر يحظره القانون الجنائى الأمريكى وكذلك معاهدة منع التعذيب الدولية ومعاهدات جنيف. وطبقاً لما جاء فى كتاب جين ماير الجديد، فقد انتهت لجنة الصليب الأحمر الدولية فى تقرير لها فى العام الماضى إلى أن أساليب التحقيق التى استخدمها وكالة الاستخبارات المركزية على مسجون رفيع المستوى تمثل تعذيباً على نحو مطلق.



وذكر كتابها The Dark Side: The Inside Story of How The War on Terror Turned into a War on American Ideals (الجانب المظلم: القصة الحقيقية لكيفية تحول الحرب على الإرهاب إلى حرب على المُثل العليا الأمريكية) أن تقريراً للجنة الدولية للصليب الأحمر أرسل إلى وكالة الاستخبارات المركزية. سلطة الاعتقال، التى «كان يشاركها فيها الرئيس ووزير الخارجية». ويقول ماير إن التقرير «نبه إلى أن الإساءة كانت تمثل جرائم حرب. مما يجعل أكبر المسئولين فى الحكومة الأمريكية معرضين لخطر مقاضاتهم».

على الأغلب لن تكون هناك مقاضاة أمريكية لمن سهلوا التعذيب. ولكن ربما لا يكون من الأمان للبارزين منهم أن يسافروا للخارج على نحو شخصى. فمن الممكن أن يحاول شخص ما تأكيد مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى بشأن ممارسى الانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان الذى تمسّك به مجلس اللوردات عندما ألقى القبض على بينوشيه بناءً على أمر قضائى إسبانى.

وقد حذر المعلقون المحافظون بالفعل من أية مقاضاة أمريكية فى المستقبل، قائلين إن هؤلاء المسئولين لم تكن لديهم نية جنائية، بالرغم من المعاملة المستهجنة لبعض المعتقلين. وهذه المقولة غير مقنعة بناءً على الحقائق، لأن الوزير رامسفلد وآخرين حذرهم كبار محامى البنتاجون المدنيين والعسكريين، بمن فى ذلك المستشار القضائى للبحرية ألبرتو مورا، من أن سياساتهم سوف تنتهك القانون. وهى غير مقنعة طبقاً للقانون، لأن الرؤية الخاطئة للقانون ليست دفاعاً فى ظل المبادئ التى وضعت فى محاكمات نورمبرج. كما أن سوابق نورمبرج تدحض مقولة دين إدلى التى ترى أنه لا يمكن مقاضاة المحامين لتقديمهم مشورة للمسئولين تجعلهم يرتكبون ما هى فى واقع الأمر جرائم. فقد أدين المحامون الألمان فى نورمبرج باعتبار أنهم سهلوا ارتكاب الجرائم بتقديمهم المشورة القانونية للجرائم النازية. وقال الرئيس بوش: «لدينا آراء قانونية تمكننا من عمل ذلك».

ليست المقاضاة مسلكاً مرجحاً بالنسبة للإدارة الأمريكية الجديدة، ولكن هناك خطوات ينبغى اتخاذها لمواجهة الفظائع التى ارتكبتها حكومتنا. إذ يجب علينا على أقل تقدير أن نكشف غطاء السرية عما تم وعما لا تزال مصنفة على أنها آراء قانونية كانت ترمى إلى إضفاء الصفة القانونية على تلك الأفعال.

إن على هذا البلد أن يعيد بشكل ما تأكيد نفوره من استخدام التعذيب. وربما لا يكون هذا سهلاً. فقد أظهر استطلاع للرأى أجرى مؤخراً أن تأييد الأمريكيين لتعذيب الإرهابيين المزعومين قد ارتفع من ٣٦ بالمائة ممن سئلوا فى عام ٢٠٠٦ إلى ٤٤ فى العام الحالى. وقد صدمتنا صور أبو غريب. ومنذ ذلك الحين أزيلت من الكثير منا حساسية استخدام التعذيب.

من الواضح أن الرئيس بوش وكبار مسئوليه نجحوا فى إقناع الكثيرين بزعمهم أن «تكنيكات الاستجواب المحسّنة»، كما يسمون التعذيب، توفر معلومات قيمة. والأدلة التى تؤكد هذ الزعم ضعيفة؛ فقد قال السناتور جاى روكفلر استناداً إلى خبرته كرئيس للجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ:

لم أسمع شيئاً يشير إلى أن المعلومات التى تم الحصول عليها نتيجة لتكنيكات الاستجواب المحسّنة منعت هجوماً إرهابياً وشيكاً. ولم أسمع شيئاً يجعلنى أظن أن المعلومات التى تم الحصول عليها نتيجة لتلك التكنيكات لم يكن بالإمكان الحصول عليه من خلال أساليب التحقيق العادية التى يستخدمها محققو الجيش وتنفيذ القانون.

ولكن على أى الأحوال فقد كان الثمن الذى دفعته سمعة أمريكا، وأمنها القومى، بسبب تلك السياسة هائلاً. إذ أثار كراهية جزء كبير من العالم الإسلامى للولايات المتحدة. كما قوّض إيمان العديد من الأمريكيين باستقامة الأخلاق فى بلدهم.

وفى النهاية يجب أن يأتى العلاج. إذا كان لابد أن يكون هناك علاج، من القيادات التى تعيد تأكيد مكانة القانون الأساسية فى الطابع الأمريكى؛ أى من الرئيس الذى لا يسعى للحصول على سلطة غير مقيدة، ومن النائب العام وغيره من المسئولين الذين يحترمون القانون. ولم يفت الوقت بعد للعودة إلى حكم القانون وليس حكم الرجال. ■



من يدفع ثمن قهوتك؟!

تيم هارفورد Tim Harford

■■ سواء كنت تعيش في نيويورك أو طوكيو أو أنتويرب أو براغ، يعتبر استخدام المواصلات العامة يوميًا في الرحلات الطويلة للذهاب إلى العمل والعودة منه تجربة حياتية مألوفة في مدن العالم الكبرى. وهذه الرحلات اليومية لها تأثير عام وتأثير خاص، على نحو يفقد المرء حماسه. فالتأثير الخاص يحدث لأن كل راكب بمنزلة الفأر الذي يدور في متاهته الخاصة؛ فهو يقيس الزمن الذي يستغرقه بدءًا من حمام الصباح حتى الوصول إلى ماكينة التذاكر بمحطة المترو، ولكي يسرع من انتقاله بين القطارات المختلفة، تراه يعرف جداول مواعيد القطارات والاتجاه الصحيح للرصيف؛ ويفاضل بين مساوئ الوقوف في أول قطار يمر عليه وبين الجلوس في آخر قطار. ومع ذلك، فإن هذه الرحلات اليومية ينتج عنها تأثيرات عامة، مثل ساعات الذروة والاختناقات المرورية، التي يستغلها أصحاب الأعمال لصالحهم في جميع أنحاء العالم. وتختلف رحلتي اليومية هنا في واشنطن العاصمة عن رحلتك في لندن أو في نيويورك أو في هونج كونج، ومع ذلك فإنها ستبدو مألوفة على نحو مدهش.

وإذا كنت تشتري مثلي قدرًا كبيرًا من القهوة، فربما تستنتج أن شخصًا ما يثرى ثراء فاحشًا من وراء ذلك. فمن يكون هذا الشخص؟

تقع محطة مترو «فاراجوت ويست» Farragut West في موقع مثالي لخدمة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وكذلك البيت الأبيض. في كل صباح، يظهر الركاب سريعو الغضب الذين لم ينالوا قسطًا كافيًا من النوم وهم خارجون من محطة فاراجوت ويست قاصدين الطوابق المختلفة في مجمع «إنترناشيونال سكوير» International Square، بحيث يتعذر أن يحيدوا بسهولة عن طريقهم المعتاد. إنهم ينشدون الابتعاد عن الضجيج والصخب، حول السائحين المتجولين، ويريدون الوصول إلى مكاتبهم قبل وقت قليل من وصول رؤسائهم. وهم لا يرحبون باستخدام أي طريق غير طريقهم المعتاد، ومع ذلك فهناك مكان للسلام والإكرام يمكن أن يغريهم بأن يتأخروا لبضع دقائق. في هذه الواحة، تقدم بعض الملذات التي يصاحبها ابتسامات من نساء ورجال غرباء وجذابين. فاليوم رأيت ابتسامة نادلة المقهى الفاتنة، التي تضع شارة تفصح عن أن اسمها «ماريا». المقهى الذي أقصده بالطبع هو مقهى «ستاربكس» Starbucks الذي يقع في مكان يتحتم رؤيته عند المخرج المؤدي إلى إنترناشيونال سكوير. وهذا ليس بشيء غريب تختص به محطة فاراجوت ويست وحدها. فعلى سبيل المثال عندما تخرج من محطة مترو فاراجوت نورث Farragut North المجاورة، ستجد أن أول واجهة تجارية تخص فرعًا آخر من فروع ستاربكس. وفي جميع أنحاء العالم، توجد مثل هذه المقاهي، التي تقع بأماكن

للاستزادة:

The Undercover Economist:
Exposing Why the Rich Are Rich, the Poor Are Poor—and Why You Can Never Buy a Decent Used Car!
by Tim Harford
Random House Trade Paperbacks, 2007

المخبر الاقتصادي
تيم هارفورد
ترجمة: رشا سعد زكي
مراجعة: سامح رفعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر - القاهرة ٢٠٠٨
كلمة: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث

يسهل الوصول إليها، لتلبى احتياجات ركاب فى أشد الحاجة إلى هذا المكان، فتجد مثلا مقهى كوزى Cosi على بعد عشر ياردات من مخرج محطة مترو واشنطن دوبون سيركل Washington Dupont Circle. وتفخر محطة مترو بن Penn بنيويورك بوجود مقهى سياتل كوفى روسترز Seattle Coffee Roasters بالضبط عند مخرج المحطة المؤدى إلى شارع إيتث أفنيو Eighth Avenue. أما فى محطة شنجوكو Shinjuku فى طوكيو فيستطيع المرء أن يتمتع بقهوة ستاربكس حتى دون مغادرة ساحة المحطة، وفى محطة ووترلو Waterloo فى لندن تجد كشك قهوة تابعا لشركة أيه إم تى AMTيحرس المخرج المؤدى إلى الضفة الجنوبية لنهر التايمز.

لا يعتبر كوب الكابوتشينو الكبير الذى يبيعه مقهى ستاربكس بسعر ٢,٥٥ دولار رخيصاً، ولكنى أستطيع دفع هذا السعر، فثمن هذا الكوب لا يمثل لى، وأيضاً للكثيرين من مرتادى المقهى، أكثر من الأجر الذى أحصل عليه عن عملى لبضع دقائق. ومن المؤكد أنه ما من أحد منا سيضيع وقته لتوفير بضعة سنتات ليبحث عن مقهى أرخص فى الساعة الثامنة والنصف صباحاً. يوجد طلب هائل على المقهى الذى يحظى بأفضل موقع يسهل الوصول إليه، فمحطة ووترلو على سبيل المثال يمر بها كل عام أربعة وسبعون مليون شخص، الأمر الذى يجعل موقع ذلك المقهى مسألة فى غاية الأهمية.

لا يعتبر موقع مقهى ستاربكس فى محطة فارجوت ويست موقعاً ذا قيمة لأنه يقع على طريق حتمى نشيط لمرور الناس بين أرصفة المحطة فى طريقهم إلى خارجها، وإنما أيضاً لعدم وجود مقاه أخرى على طول الطريق، فلا عجب إذن أن يحقق هذا المقهى أرباحاً طائلة.

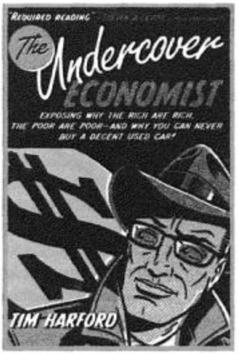
وإذا كنت تشترى مثلى قدراً كبيراً من القهوة، فربما تستنتج أن شخصاً ما يثرى ثراءً فاحشاً من وراء ذلك. وإذا كانت الشكاوى التى تنشر فى الصحف بين حين وآخر حقيقية، فإن البن فى فنجان الكابوتشينو لا يتكلف سوى بضعة سنتات. وبالطبع لا تخبرنا الصحف بالقصة كاملة: فهناك اللبن، والكهرباء، وتكاليف الأكواب الورقية، والراتب الذى يُدفع لماريا كى تبتسم طوال اليوم فى وجه الزبائن كثيرى الشكوى. ولكن لو جمعت كل هذا سيظل الناتج أقل بكثير من سعر كوب الكابوتشينو. يرى أستاذ الاقتصاد براين ماكمانوس Brian McManus أن هامش الربح فى القهوة يكون قرابة ١٥٠٪، فتكلفة إعداد كوب من القهوة



المقطرة الذى يباع مقابل دولار لا يتكلف فى الحقيقة سوى ٤٠ سنتاً، أما كوب القهوة الصغير المضاف إليه اللبن الساخن الذى يباع بسعر ٢,٥٥ دولار فيتكلف أقل من دولار. هناك إذن شخص ما يحقق أرباحاً طائلة، فمن يكون هذا الشخص؟

ربما يكون هاورد شولتز Howard Schultz مالك سلسلة مقاهى ستاربكس هو أول من سيتبادر إلى ذهنك. ولكن الإجابة ليست بهذه البساطة، فالسبب الرئيسى فى أن مقهى ستاربكس يستطيع مطالبة مرتاديه بدفع ٢,٥٥ دولار مقابل كوب الكابوتشينو هو أنه لا يوجد مقهى بجواره يبيع هذا الكوب بدولارين. فلماذا إذن لا يوجد مقهى آخر يبيع القهوة بسعر أقل من ستاربكس؟ وبدون أن نبخس السيد شولتز حقه، فالكابوتشينو فى حقيقة الأمر ليس منتجاً معقداً. لا يعانى السوق أى نقص من الكابوتشينو الصالح للشرب (وللأسف لا يعانى أيضاً أى نقص من الكابوتشينو غير الصالح للشرب). والمرء لا يحتاج إلى الكثير كى يشترى بعض ماكينات إعداد القهوة ومنضدة طويلة، وبناء اسم تجارى ببعض الدعاية وببعض العينات المجانية، وتعيين طاقم عمل مهذب، فحتى ماريا يمكن استبدالها بأخرى.

وفى حقيقة الأمر فإن أهم ميزة يتمتع بها ستاربكس هى موقعه على طريق مشاه يسير عليه آلاف القائمين



برحلات يومية جيئة وذهاباً. ولا يوجد اليوم كثير من الأماكن الجيدة التى يمكن أن تلائم إقامة المقاهى مثل مخارج المحطات أو نواصى شوارع مزدحمة، والسبب هو أن ستاربكس ومنافسيه قد التهموا هذه الأماكن. فلو كان لشركة ستاربكس تأثير التنويم المغناطيسى على زبائنها كما يزعم منتقدوها، فما كانت ستحتاج أن تبذل مثل هذا الجهد الهائل كى تجعلهم يرتادون المقهى. فهامش الربح الجيد الذى تجنيه ستاربكس من بيع الكابوتشينو لا يرجع إلى جودة البن أو طاقم العمل، ولكن بسبب موقع المقهى، ثم الموقع، ثم الموقع.

ولكن من يتحكم فى الموقع؟ انظر إلى المفاوضات التى تعقد قبل إبرام عقد إيجار جديد، فمالكة مجمع إنترناشيونال سكوير لا تتفاوض مع شركة ستاربكس فحسب، ولكنها تتفاوض مع شركات أخرى تضم سلاسل مقاه، مثل: كوزى، وكاريبو كوفى Caribou Coffee، والشركات المحلية الأخرى التى لها مقاه فى واشنطن العاصمة، مثل: جافا هاوس Java House، وسوينجس Swing's، وكابيتول جراوندز Capitol Grounds، وتييزم Teaism. فقد توقع مالكة المجمع عقداً مع كل هؤلاء، أو قد تبرم عقداً حصرياً مع شركة واحدة منهن فقط. ولكن سرعان ما ستكتشف أنه لا توجد شركة تتحمس لدفع قيمة إيجارية كبيرة مقابل مكان بجوار عشرة مقاه أخرى، لذلك ستحاول أن تحقق أفضل ربح ممكن عند إبرامها العقد الحصرى مع شركة واحدة منها.

وفى محاولتك لاستنتاج من سيجنى كل الأرباح، تذكر ببساطة أن طاولة المفاوضات يوجد على جانب منها نحو عشر شركات متنافسة على الأقل، وعلى الطرف الآخر يجلس مالك الموقع المتميز الذى تنشده هذه الشركات. وبعد أن يجعل صاحب الأرض هذه الشركات متواجهة لتحقيق مصلحته الشخصية، يصبح قادراً على إملاء شروطه، وإجبار واحدة منها على دفع قيمة إيجارية تستنزف تقريباً كل ربحها المتوقع، والشركة الفائزة بالمكان سوف تفترض أنها ستحصل على بعض الأرباح وليس أرباحاً كثيرة: فلو بدت القيمة الإيجارية قليلة على نحو يساعد على تحقيق ربح وفير، فسترحب شركة مقاه أخرى بدفع قيمة إيجارية أعلى قليلا نظير حصولها على الموقع. وفى حقيقة الأمر يوجد عدد هائل من شركات المقاهى التى قد تؤجر المكان، وفى الوقت نفسه عدد قليل من المواقع الجذابة لهذه الشركات، وهذا يعنى أن ملاك المواقع لهم اليد العليا.

وهذا بالطبع منطق نظرى محض، لذا يغدو من المنطقى أن نسأل أنفسنا عما إذا كان هذا هو ما يحدث بالفعل فى عالم الواقع أم لا. عندما شرحت لصديقة لى - التى طالما عانت من القهوة - كل المبادئ المرتبطة بالمسألة، سألتنى عما لو كان بإمكانى إثبات ذلك. عندها قلت لها إن هذه مجرد نظرية أو كما يقول شيرلوك هولمز: قدر من «الملاحظة والاستنتاج، مبنى على الشواهد المتوفرة لنا جميعاً». وبعدها ببضعة أسابيع أرسلت لى مقالاً من صحيفة فاينانشيال تايمز Financial Times اعتمد على دلائل قدمها خبراء فى الصناعة، ممن يطلعون على حسابات شركات سلاسل المقاهى. بدأ المقال بجملة: «عدد قليل من الشركات يحقق أرباحاً طائلة»، واستنتج أن إحدى المشكلات الرئيسية هى «التكاليف المرتفعة لتشغيل منفذ بيع للمستهلكين فى مواقع متميزة تتمتع بحجم هائل من التجارة العابرة». وفى الواقع فإن قراءة الحسابات أمر يبعث على الكآبة فى حين أن العمل الاقتصادى الاستقصائى هو الطريقة الأسهل للوصول إلى نفس النتيجة.

القوة من الندرة

فوجئت عندما كنت أتصفح كتب الاقتصاد القديمة التى أحتفظ بها فى مكتبة منزلى بأول تحليل اقتصادى عن مقاهى القرن الحادى والعشرين، ومع أنه نشر فى عام ١٨١٧ فإنه لا يتناول بالشرح المقاهى

في محاولتك لاستنتاج من سيجني كل ؟ الأرباح، تذكر ببساطة أن طاولة المفاوضات



الحديثة فقط وإنما يتحدث أيضاً عن كثير من أحوال عالمنا الحديث.

كتب هذا التحليل ديفيد ريكاردو David Ricardo الذى صنع من نفسه مليونيراً (بمعايير اليوم) من عمله كسمسار فى سوق الأوراق المالية، ثم أصبح بعد ذلك عضواً فى البرلمان. كان ريكاردو أيضاً رجل اقتصاد متحمساً يتوق لفهم ما حدث لاقتصاد بريطانيا خلال الحروب النابليونية، التى كانت قد انتهت قبل وقت قصير آنذاك، عندما ارتفعت بحدة أسعار القمح وأسعار إيجارات الأراضى الزراعية، وأراد ريكاردو معرفة السبب.

وأسهل طريقة لفهم تحليل ريكاردو هى تناول أحد الأمثلة التى استخدمها. تخيل إحدى المناطق غير المزروعة بها عدد قليل من السكان ولكنها تتمتع بوفرة من الأراضى الخصبة الصالحة للزراعة، وفى يوم ما يأتى مزارع شاب طموح، يدعى أكسيل Axel، ويعرض على سكانها أن يدفع إيجاراً مقابل حصوله على حق زراعة المحاصيل على فدان واحد من الأرض الخصبة. بالطبع يتفق الجميع بشأن كمية الغلة التى ينتجها الفدان، ولكنهم فى الوقت نفسه يعجزون عن تحديد قدر الإيجار الذى ينبغى أن يدفعه أكسيل. ونظراً لوفرة الأراضى المحروثة المتروكة دون زراعة، لن يمكن لملاك الأراضى المتنافسين المبالغة فى سعر الإيجار أو المطالبة بإيجار مرتفع على الإطلاق. ولهذا يفضل كل مالك أرض الحصول على إيجار زهيد بدلا من عدم الحصول على أى إيجار من الأساس. من هنا، يخفض كل مالك أرض سعر الإيجار الذى يطلبه عن ذلك الذى يطلبه منافسه، إلى أن يتمكن الشاب من البدء فى الزراعة مقابل دفع إيجار ضئيل للغاية، يكون فى الوقت نفسه كافياً لتعويض مالك الأرض عن متاعبه.

إن أول درس نتعلمه من هذه القصة هو أن الشخص الذى يمتلك أحد الموارد المرغوبة - وهو مالك الأرض فى تلك الحالة - لا يملك كثيراً من القوة التفاوضية كما قد يفترض المرء. كما لا تخبرنا القصة عما إذا كان أكسيل فقيراً للغاية، أم أنه يضع حزمة نقود فى كعب حذائه، وذلك لأن هذا الأمر لا يشكل أى فارق فى مسألة الإيجار. فالقدرة التفاوضية تأتى من الندرة: فالمستوطنون نادرون بينما الأراضى الزراعية ليست نادرة، ولهذا فإن ملاك الأراضى ليس لديهم قوة تفاوضية.

ويعنى هذا أن الندرة النسبية لو انتقلت من شخص إلى آخر، تنتقل معها القدرة التفاوضية أيضاً. فإن حذا العديد من المهاجرين بمرور السنوات حذو أكسيل، فإن مساحة الأراضى الزراعية الفائضة تتقلص إلى أن تنتهى تماماً. وما دامت توجد أى من هذه الأراضى، فإن المنافسة بين الملاك الذين لم يجذبوا أى مستأجرين لأراضيهم ستبقى الإيجار منخفضاً. ومع ذلك، يأتى فى يوم من الأيام مزارع آخر إلى نفس البلدة، ولنسمه بوب Bob، ليكتشف عدم وجود أى أراض خصبة فائضة ليزرعها، ويجد أن البديل الذى أمامه هو زراعة أرض مغطاة بالشجيرات القصيرة وإن كانت أقل خصوبة إلا إنها متوافرة بكثرة. وهو ليس خياراً جذاباً. فيعرض المزارع بوب مبلغاً كبيراً لأى مالك أرض حتى يطرد أكسيل، أو أياً من المزارعين الآخرين الذين يزرعون الأرض فى الوقت الحالى دون دفع إيجار تقريباً؛ ليحل المستأجر الجديد محل أى منهم. ولكن مثلما كان بوب مستعداً لدفع المال نظير تأجير الأرض الخصبة بدلا من الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة، فإن كل المزارعين الآخرين سيكونون على استعداد أيضاً لأن يدفعوا حتى لا يطردوا من الأرض. وهكذا تغير كل شىء، وهكذا أيضاً حصل ملاك الأراضى بسرعة مفاجئة على قوة تفاوضية حقيقية؛ لأن المزارعين صاروا فجأة مورداً متوفراً نسبياً فى حين أن الأراضى أضحت مورداً نادراً نسبياً.

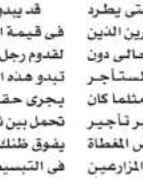
ويعنى هذا أن ملاك الأراضى باتت لديهم القدرة على رفع قيمة الإيجار، ولكن بأى قدر؟ يجب أن يظل الإيجار كافياً بحيث يحصل المزارعون على مقدار من الغلة من زراعة الأرض الخصبة بعد أن يدفعوا الإيجار للمالك؛ يساوى مقدار الغلة التى يحصلون عليها من زراعة الأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة دون دفع أى إيجار. فلو كان الفرق فى الغلة التى تنتجها كلتا الأرضين هو خمسة بوشل من الحبوب سنوياً، فإن الإيجار يجب أن يكون أيضاً خمسة بوشل سنوياً. أما لو حاول مالك الأرض المطالبة بأكثر من هذا فسيذهب المستأجر إلى الزراعة فى الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة. وإن قل الإيجار عن هذا، فسيرغب مزارع الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة أن يدفع إيجاراً أكبر نظير زراعته للأرض الخصبة.

قد يبدو من الغريب أن يحدث التغيير فى قيمة الإيجار بهذه السرعة فقط لقدوم رجل واحد آخر ليزرع فى المنطقة. تبدو هذه القصة عاجزة عن تفسير ما يجرى حقيقة فى أرض الواقع، ولكنها تحمل بين ثناياها قدراً كبيراً من الحقيقة يفوق ظنك حتى لو كانت قصة مفرطة فى التبسيط. توجد بالطبع أمور أخرى على أرض الواقع ينبغى أن تؤخذ فى الحسبان مثل قوانين طرد المستأجر، والعقود طويلة الأجل، وحتى العادات الثقافية مثل حقيقة أن طرد شخص فى يوم ليحل محله مستأجر جديد فى اليوم التالى أمر «غير لائق اجتماعياً». وفى حقيقة الأمر يوجد أكثر من نوعين من الأراضى فى دنيا الواقع، وسيكون أمام بوب خيارات مختلفة ليعمل فى مجال عمل آخر غير الزراعة. فقد يتجه إلى العمل كمحاسب أو كسائق تاكسى. كل تلك الحقائق تزيد من تعقيد ما يحدث فى عالمنا الواقعى، فهى تبطئ من عملية انتقال القدرة التفاوضية وتغير الأرقام المطلقة المرتبطة بهذا الشأن وتحد من التغييرات المفاجئة فى قيمة إيجار الأرض.

ومع ذلك فإن تعقيدات الحياة اليومية غالباً ما تخفى الاتجاهات الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند انتقال قوة الندرة من مجموعة إلى أخرى. ووظيفة الخبير الاقتصادى هى تسليط الضوء على العمليات غير الظاهرة، فلا ينبغى أن نندهش لو تحول سوق الأراضى فجأة ضد مصلحة المزارعين، أو لو ارتفعت أسعار المنازل ارتفاعاً حاداً، أو لو امتلأ العالم بالمقاهى فى غضون أشهر قليلة. ولذلك تؤكد لنا بساطة تلك القصة جزءاً من الحقيقة غير الظاهرة، ولكن هذا بالتأكيد يفيد فى الكشف عن أمر مهم ألا وهو أن الندرة النسبية والقدرة التفاوضية، تتغيران حقاً فى بعض الأحيان تغيراً سريعاً وتحدثان تأثيرات عميقة فى حياة الناس. ونحن غالباً نشكو من أعراض المشكلة - مثل التكلفة العالية لشراء كوب قهوة أو حتى لشراء منزل - ولكننا فى حقيقة الأمر لن نتمكن من علاج الأعراض بنجاح دون فهم نماذج الندرة التى تعتبر أساس تلك الأعراض.

الأرض «الحدية» وأهميتها المحورية

لا يجب أن تتوقف التغيرات فى القدرة التفاوضية عند ذلك الحد. فبينما يمكن أن تتعقد قصتنا عن الزراعة إلى ما لا نهاية فإن القواعد الأساسية تظل كما هى دون تغيير. فمثلاً، لو استمر المزارعون فى الاستيطان بالمنطقة، فسينتهى بهم الأمر بأنهم لن يزرعوا الأرض الخصبة فحسب بل والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة أيضاً. فحينما يصل مستوطن جديد يدعى كورنيليوس Cornelius فسيجد أن الأرض الوحيدة المتاحة أمامه هى الأرض العشبية الأقل إنتاجية حتى من الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة، وهنا نتوقع أن تحدث نفس عملية المفاوضات التى تحدثنا عنها آنفاً، سيعرض كورنيليوس المال على ملاك الأراضى فى محاولة منه ليحصل على قطعة أرض مغطاة بالشجيرات القصيرة ليزرعها، وسرعان ما سيرتفع إيجار الأراضى المغطاة بالحشائش القصيرة، وينبغى آنذاك أن يبقى الفرق بين إيجار الأرض الخصبة



عندما ينظر علماء الاقتصاد إلى العالم يرون أنماطاً اجتماعية مستترة

يوجد على جانب منها نحو عشر شركات متنافسة على الأقل

والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة كما هو دون تغيير (وإلا فإن المزارعين المستأجرين للأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة سيرغبون فى الانتقال إلى الأراضى الخصبة.) ومن ثم، يرتفع إيجار الأرض الخصبة أيضاً.

ولهذا سيكون إيجار الأرض الخصبة مساوياً دائماً للفرق فى محصول الغلة الذى تنتجه الأرض الخصبة والذى تنتجه أى أرض أخرى يمكن للمزارعين الجدد زراعتها دون دفع أى إيجار. ويسمى علماء الاقتصاد هذه الأرض الأخرى بالأرض «الحدية»، لأنها تقع على الحد بين كونها مزروعة وبين كونها غير مزروعة. (وسرعان ما سترى أن علماء الاقتصاد يفكرون كثيراً بشأن القرارات التى تُتخذ عن الحد). ففى البداية، عندما كانت الأراضى الخصبة متوفرة على نحو يفوق عدد المستوطنين اللازمين لزراعتها، لم تكن هذه الأرض أفضل أنواع الأراضى فحسب، بل كانت هى الأرض «الحدية» أيضاً لأن المزارعين الجدد كان بإمكانهم استغلالها. ونظراً لأن أفضل أنواع الأراضى كانت تؤدى نفس دور الأرض الحدية فلم يكن هناك إيجار بخلاف المبلغ البسيط الذى كان يعوض مالك الأرض عن متاعبه. وفيما بعد، عندما زاد عدد المزارعين حتى لم يعد يكفيهم عدد الأراضى الخصبة الموجودة، صارت الأراضى المغطاة بالشجيرات القصيرة هى الأرض الحدية، وارتفع إيجار الأرض الخصبة إلى خمسة بوشل سنوياً - وهو الفرق فى إنتاجية الأرض الخصبة والأرض الحدية (أى الأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة فى تلك الحالة). وعندما وصل كورنيليوس، صارت الأرض العشبية هى الأرض الحدية، وباتت الأراضى الخصبة أكثر جاذبية مقارنة بالأرض الحدية، ولذلك تمكن ملاك الأراضى من رفع قيمة إيجار الأراضى الخصبة مرة أخرى. من المهم أن نشير هنا إلى عدم وجود قيمة مطلقة: فكل شىء يصبح نسبياً لهذه الأرض الحدية.

من الزراعة إلى أكشاك

القهوة مرة أخرى

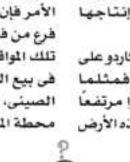
إنها قصة لطيفة، ولكن قد يفضل أمثالنا ممن يحبون أفلام الغرب الأمريكى تلك الأفلام التى تتناول الشجاعة مثل فيلم Unforgiven، أو شيئاً من العزلة النفسية التى نراها فى فيلم مثل High Noon. لذلك لم أحصل أنا أو ديفيد ريكاردو على جوائز فى الكتابة السينمائية، ولكن ربما لدينا بعض العذر حيث إن القصص التى نسردها تخبرنا بالفعل بشىء مفيد عن عالمنا الحديث.

يمكن أن تكون أكشاك القهوة هى نقطة البدء. لماذا ترتفع أسعار القهوة فى لندن ونيويورك وواشنطن وطوكيو؟ قد تخبرنا فطرتنا أن القهوة غالية الثمن لأن أكشاك القهوة تضطر لدفع قيمة إيجارية عالية. أما نموذج ديفيد ريكاردو الاقتصادى، فيستطيع أن يبين لنا أن هذه الطريقة خاطئة للتفكير فى تلك القضية لأن «القيمة الإيجارية العالية» ليست حقيقة عشوائية من حقائق الحياة، وإنما لها سبب يبررها.

يوضح المثال الذى استخدمه ريكاردو أن ثمة أمرين يحددان القيمة الإيجارية للمواقع المتميزة، تماماً مثلما يتحدد إيجار الأراضى الخصبة وفقاً للفرق فى الإنتاجية الزراعية بين الأراضى الخصبة والأرض الحدية، وأهمية الإنتاجية الزراعية نفسها. فإذا كان سعر البوشل (مقياس لكيل الحبوب يساوى ثمانية جالونات) دولاراً فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجاراً قدره خمس دولارات. وإن كان سعر البوشل مائتى ألف دولار، فإن خمسة بوشل من الحبوب تستحق إيجاراً قدره مليون دولار. وتستحق الأرض الخصبة قيمة إيجارية مرتفعة مُقَيَّمة بالدولار إذا كانت الحبوب التى تساعد هذه الأرض على إنتاجها مرتفعة القيمة.

والآن دعنا نطبق نظرية ريكاردو على المقاهى التى تحدثنا عنها. فمثلما تستحق الأرض الخصبة إيجاراً مرتفعاً إذا كانت الحبوب التى تنتجها هذه الأرض مرتفعة القيمة، فإن المواقع المتميزة للمقاهى تستحق هى الأخرى إيجاراً مرتفعاً إذا كان الزبائن سيدفعون أسعاراً مرتفعة للقهوة. وبالطبع يكون زبائن ساعة الذروة فى حاجة ماسة للكافيين، وفى عجالة من أمرهم بحيث إنهم لا يدققون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا. لذلك فإن استعدادهم لدفع أعلى سعر مقابل مقهى يتمتع بسهولة الوصول إليه هو السبب فى ارتفاع القيمة الإيجارية، وليس العكس.

تتشابه الأماكن المناسبة لأكشاك القهوة مع الأرض الخصبة فى أنها أفضل نوعية من الممتلكات العقارية تناسب الغرض المنشود منها ولذلك تنفد جميعها بسرعة. لهذا تجد المتاجر التى تقع على نواصى شوارع منطقة «ميد تاون مانهاتن» تحتجزها شركتا ستاربكس، وكوزى إلى جانب الشركات المنافسة لهما. أما بالقرب من محطة مترو دوبون سيركل Dupont Circle فى واشنطن العاصمة، فتجد مقهى كوزى يحتل البقعة المتميزة عند المخرج الجنوبى للمحطة فى حين يوجد مقهى ستاربكس عند المخرج الشمالى لها، ناهيك عن ادعاء السيادة على الأرض فى الأماكن المواجهة للمحطات القريبة أعلى وأسفل خط المترو. وفى لندن تجد مقاهى شركة أيه إن تى فى محطة ووترلو ومحطات كينجز كروس King's Cross، وماريلبون Marylebone، وتشيرنج كروسCharing Cross ، وفى حقيقة الأمر فإن كل محطة مترو فى لندن بها فرع من فروع شركات المقاهى الكبرى. إن تلك المواقع كان من الممكن أن تستخدم فى بيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى، إلا أن هذا لم يحدث ليس لأن محطة المترو غير مناسبة لبيع الطعام الصينى أو السيارات المستعملة، ولكن لأن هناك وفرة فى الأماكن الأخرى منخفضة القيمة الإيجارية والملائمة لبيع السيارات المستعملة أو الطعام الصينى، ولن يكون فيها الزبائن فى عجالة من أمرهم بل أكثر استعداداً للتنزه أو لطلب الطعام. أما بالنسبة للمقاهى وغيرها من المنشآت التى تبيع الوجبات الخفيفة أو الجرائد، فإن القيمة الإيجارية المنخفضة لا تعوض خسارة وابل الزبائن الذين لا يدققون إذا كانت الأسعار التى يدفعونها مرتفعة أم لا.



تبسيط النماذج الاقتصادية قد اشتهر بأنه يضلل علماء الاقتصاد

نماذج قابلة للتكيف

مع مجالات أخرى

استطاع ديفيد ريكاردو أن يكتب تحليلا عن مقاهى الكابوتشينو فى محطات المترو قبل أن تخرج إلى الوجود مقاهى الكابوتشينو أو محطات المترو. وهذا هو نوع الحيل الذى يجعل الناس إما يعشقون علم الاقتصاد، أو ينفرون منه. فالذين ينفرون منه يزعمون أننا لو أردنا فهم كيفية عمل تجارة القهوة فى العالم الحديث لا يجب علينا أن نقرأ تحليلا عن الزراعة نُشر عام ١٨١٧.

ومع ذلك فالكثيرون منا يُغرمون بحقيقة أن ريكاردو، منذ حوالى مائتى عام، استطاع أن يخرج برؤية واضحة تُنير طريقنا اليوم نحو الفهم. فمن السهل أن ترى الفرق بين الزراعة فى القرن التاسع عشر، وبين بيع القهوة ذات الرغوة فى القرن الحادى والعشرين، ولكن ليس من السهل أن ترى وجه الشبه بينهما قبل أن يقوم أحدهم بتسليط الضوء عليه. يدور علم الاقتصاد بقدر ما حول وضع النماذج الاقتصادية، وحول التعبير بوضوح عن المبادئ والأنماط الأساسية المسئولة عن الموضوعات التى تبدو معقدة مثل إيجار الأراضى الزراعية أو إيجارات المقاهى.

وثمة نماذج أخرى تجدها فى صناعة القهوة، والتى تعتبر نافعة للعديد من الأمور المختلفة، فمثلا قد يكون نموذج التصميم المعمارى للمقهى مفيداً كدراسة حالة ليدرسها المهندسون العاملون بمجال التصميم الداخلى. وقد يساعد أحد النماذج الفيزيائية فى تحديد الملامح البارزة للآلة التى تولد مقدار ١٠ ضغط

إن أول درس نتعلمه هو أن ؟ الشخص الذي يمتلك أحد



جوى وهو المقدار اللازم لتخمير القهوة الإسبرسو، ونفس النموذج قد يصبح نافعاً عند الحديث عن مضخات الشفط، أو محركات الاحتراق الداخلى. واليوم لدينا نماذج من التأثيرات البيئية التى تحدثها الطرق المختلفة للتخلص من بقايا البن المتخثرة فى قاع الفنجان. وكل نموذج منها مفيد لأمور مختلفة. أما «النموذج» الذى حاول أن يصف فى آن واحد كلا من التصميم والهندسة وعلم البيئة وعلم الاقتصاد فإنه لن يكون أبسط من الواقع نفسه وبالتالى لن يضيف شيئاً لفهمنا.

ويصلح نموذج ريكاردو الاقتصادى لمناقشة العلاقة بين الندرة والقدرة التفاوضية حيث يذهب النموذج إلى ما هو ابعد من القهوة أو الزراعة ثم يفسر لنا فى النهاية كثيراً من أمور العالم التى تحدث من حولنا. فعندما ينظر علماء الاقتصاد إلى العالم يرون أنماطاً اجتماعية مستترة، تصبح جلية فقط عندما يركز المرء على العمليات الجوهرية غير الظاهرة. ويدفع هذا التركيز النقاد إلى القول بأن علم الاقتصاد لا يأخذ فى اعتباره الأمر برمته أو «النظام» بأكمله. ومع ذلك كيف لتحليل عن الزراعة يعود إلى القرن التاسع عشر أن يكشف حقيقة مقاهى القرن الحادى والعشرين، بغض النظر عن إخفاقه فى ملاحظة كل أنواع الفروق المهمة؟ والجواب هو أنه يتعذر فى الواقع فهم أى مسألة معقدة دون التركيز على عناصر محددة تقلل من تعقيدها. يفضل علماء الاقتصاد التركيز على أمور محددة، والندرة هى أحد تلك الأمور، وهذا التركيز يعنى أننا لا نلاحظ الميكانيكا التى تعمل بها ماكينة إعداد القهوة الإسبرسو، واختيار الألوان المستخدمة فى تصميم المقاهى، وغير ذلك من الحقائق المثيرة الأخرى. ومع ذلك فهذا التركيز يفيدنا أيضاً، وأحد الأشياء التى نستفيدها هو فهم «النظام»، أقصد النظام الاقتصادى، الذى يعد أشمل كثيراً مما قد يظن الكثيرون.

ومع ذلك فيلزم هنا قرع جرس تحذير. فتبسيط النماذج الاقتصادية قد اشتهر بأنه يضلل علماء الاقتصاد. حتى إن ريكاردو نفسه كان من أوائل ضحايا هذا التبسيط، فقد كان يحاول أن يمد نموذجه الاقتصادى الناجح والرائع عن المزارعين وملاك الأراضى ليفسر توزيع الدخل فى النظام الاقتصادى بأسره، مثل: كم الدخل الذى يحصل عليه العمال، والدخل الذى يحصل عليه ملاك الأراضى، والدخل الذى يحصل عليه الرأسماليون. ولكن لم يحقق هذا النموذج نجاحاً تاماً فى مهمته: لأن ريكاردو تعامل مع القطاع الزراعى بأكمله وكأنه مزرعة واحدة شاسعة يملكها فرد واحد. فالقطاع الزراعى الموحد لن يستفيد شيئاً من تحسين إنتاجية الأرض عن طريق تعبيد الطرق، أو تحسين الرى: لأن تلك الأمور من شأنها أن تقلل من ندرة الأرض الخصبة. ومع ذلك فالمالك الفرد حينما يكون فى منافسة مع ملاك آخرين فسيكون لديه الكثير من الدوافع لعمل تلك التحسينات. وبسبب انشغاله بالتفاصيل الفنية دون غيرها، أخفق ريكاردو فى إدراك حقيقة أن الآلاف من ملاك الأراضى ينافس بعضهم بعضاً مما يجعلهم يتخذون قرارات مختلفة وليس قراراً واحداً.

وهكذا فليس بمقدور نموذج ريكاردو تفسير كل شيء، إلا أننا نوشك على معرفة أن النموذج بمقدوره تفسير أمور لم يتصورها ريكاردو نفسه. لا يفسر هذا النموذج المبادئ الكامنة خلف مقاهى القهوة والزراعة فحسب، وإنما - إذا جرى تطبيقه على النحو الصحيح - يظهر أن التشريعات البيئية يمكن أن تؤثر تأثيراً كبيراً على توزيع الدخل، ويفسر السبب وراء تحقيق بعض الصناعات بطبيعتها للأرباح العالية فى حين تعتبر الأرباح العالية فى بعض الصناعات الأخرى دليلا دامغاً على الاحتيال، وكذلك فهو ينجح فى تفسير السبب وراء معارضة المتعلمين لهجرة أمثالهم من المتعلمين فى حين تشكو الطبقات العاملة من هجرة العمالة التى تعمل فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة.

هل ستبالى إذا بعت لك سلعة بثمن أكبر بكثير من ثمنها الحقيقى؟

أنا شخصياً سأبالى، فالحياة مليئة بالسلع باهظة الثمن وبالتأكيد هذا الغلاء ما هو إلا نتيجة طبيعية فى بعض الأحيان لما للندرة من قوة. فمثلا، هناك عدد محدود من الشقق السكنية التى تطل على حديقة سنترال بارك Central Parkفى نيويورك، أو على حديقة هايد بارك Hyde Parkفى لندن. ونظراً لرغبة الكثيرين فى امتلاكها، تصبح أسعار تلك الشقق باهظة الثمن، لذلك ينتهى الأمر بخيبة أمل الكثيرين الذين لا يستطيعون دفع ثمنها. صحيح أن هذه مسألة ليس فيها شر أو أذى، ومع ذلك فليس من السهل فهم السبب فى أن الفشار غالى الثمن للغاية فى دور السينما حيث لم أجد نقصاً فى المعروض من الفشار خارج دور السينما فى آخر مرة تحريت فيها عن هذا الأمر. لهذا فربما يكون أول شيء نرغب فى عمله هو التفرقة بين الأسباب المختلفة التى تتسبب فى غلاء سعر السلع.

وفيما يخص نموذج ريكاردو، ينبغى أن نعرف الأسباب المختلفة التى تتسبب فى ارتفاع أسعار الإيجارات: فمعرفة هذه الأسباب قد تكون شيقة بعض الشيء حين نتحدث عن الأراضى الخصبة، (وإذا كنت مزارعاً فحينها ستكون شيقة للغاية)، ولكن معرفة الأسباب تصبح مسألة فى غاية الأهمية عندما يتعلق الأمر بمعرفة لماذا تبدو أسعار إيجارات الشقق السكنية باهظة للغاية، أو معرفة ما إذا كانت البنوك تحتال علينا أم لا. ومع ذلك يمكن أن نبدأ بمسألة الأراضى الخصبة ثم نطبق ما سنصل إليه على نطاق أوسع.

نحن نعرف أن تحديد سعر إيجار أفضل أنواع الأراضى يتحدد بواسطة الفرق فى الخصوبة بين الأرض الخصبة والأرض الحدية. لذلك فإن السبب الواضح فى ارتفاع قيمة الإيجار هو أن الأرض الخصبة تنتج محاصيل عالية القيمة مقارنة بالأرض الحدية. وكما ذكرت آنفاً أنه عندما يكون سعر البوشل من الحبوب دولاراً والفارق فى الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا الفارق يستحق إيجاراً قدره خمسة دولارات، ولكن عندما يكون ثمن البوشل مائتى ألف دولار والفارق فى الإنتاج خمسة بوشل فإن هذا الفارق يستحق إيجاراً قدره مليون دولار. وإذا كانت الحبوب غالية الثمن، يصبح من الطبيعى أن تكون الأراضى الخصبة النادرة التى تنتجها غالية الثمن أيضاً.

وثمة سبب آخر يرفع سعر إيجار الأراضى الخصبة، وهو سبب لا علاقة له بالتطور الطبيعى للأسواق، فلنفترض أن ملاك الأراضى قد اجتمعوا معاً ونجحوا فى إقناع عمدة البلدة بضرورة وجود ما تسميه انجلترا «الحزام الأخضر» وهو عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض حول المدينة تطوق المدينة بحيث تعرقل بشدة قوانين التخطيط الصارمة استغلالها فى أى مجال من مجالات التنمية العقارية. سيزعم ملاك الأراضى حينها أن من العار إقامة المزارع على تلك الأرض البرية الرائعة، ويطالبون بأن يمنع القانون زراعتها.

وفى الواقع يستفيد ملاك الأراضى كل الاستفادة من مثل ذلك الحظر، لأنه يرفع سعر إيجار كل الأراضى التى لا يمنع القانون زراعتها. وتذكر أن إيجار الأرض الخصبة يحدده الفرق بين إنتاجية تلك الأرض وإنتاجية الأرض الحدية. وبالتالى لو منعنا زراعة الأرض الحدية بأمر القانون فسيرتفع سعر إيجار الأرض الخصبة: فذات يوم كانت زراعة الأراضى العشبية دون دفع أى إيجار هى البديل لزراعة الأراضى الخصبة ودفع إيجار مقابل الزراعة. أما الآن فلا يوجد بديل حيث يتوق المزارعون الآن كثيراً لزراعة الأرض الخصبة لأن زراعة الأراضى العشبية أصبحت أمراً مخالفاً للقانون، وهكذا يرتفع أيضاً سعر الإيجار الذى يكون هؤلاء المزارعون على استعداد لدفعه.

ها نحن قد كشفنا عن سببين وراء ارتفاع سعر إيجار الأراضى: أولهما، هو



هل ستبالى إذا بعت لك سلعة بثمن أكبر بكثير من ثمنها الحقيقى؟

أن الأمر يستحق أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال مقابل إيجار الأرض الخصبة لأن الحبوب التى تنتجها تلك الأرض مرتفعة القيمة، وثانيهما، أنها تستحق الإيجار المرتفع؛ لأنه ليس أمامك بدائل أخرى.

وهذه النقطة قد تصيب بالدهشة أولئك القراء الذين يؤجرون فى الوقت الحالى أى ممتلكات عقارية فى لندن، وهى المدينة التى يطوقها «الحزام الأخضر» الأصلى الذى أنشئ فى الثلاثينيات من القرن العشرين. فهل السبب فى غلاء تأجير أو شراء الممتلكات العقارية فى لندن لا يرجع إلى أنها أفضل بكثير من البدائل الأخرى وإنما يرجع إلى أن تلك البدائل أصبحت ممنوعة بأمر القانون؟

فى حقيقة الأمر فإن السبب هو خليط بين هذا وذلك؛ فمسألة أن لندن مدينة فريدة هى مسألة صحيحة لا جدال فيها، وأنها مكان أفضل لأن توجد به الشقق السكنية أو حتى المبانى الإدارية على نحو يفوق أماكن أخرى مثل سيبريا أو كانساس سيتى Kansas City، أو حتى باريس. وترجع أسعار الإيجارات المرتفعة إلى ذلك السبب بقدر ما، ولكن السبب الآخر فى أن العقارات فى لندن باهظة الثمن هو الحزام الأخضر. صحيح أن أحد تأثيراته المحافظة على لندن من التمدد العمرانى إلى المنطقة المجاورة وهو أمر يرى الكثيرون أنه جيد. ولكن تأثيره الآخر هو أنه ينقل كمية ضخمة من الأموال من جيوب المستأجرين فى لندن إلى جيوب الملاك: فالحزام الأخضر يتسبب فى إبقاء أسعار المنازل والإيجارات فى لندن مرتفعة بكثير عن المستوى الذى ينبغى أن تكون عليه، وذلك بنفس الطريقة تماماً التى يبقى فيها حظر الزراعة على الأرض العشبية قيمة الإيجار للأرض الخصبة والأرض المغطاة بالشجيرات القصيرة مرتفعة بكثير عن المستوى الذى ينبغى أن تكون عليه إذا لم يكن هذا الحظر موجوداً.

وليس هذا نقداً لفكرة الحزام الأخضر. فهناك فوائد جمة من تحديد عدد سكان لندن عند ما يقرب من ستة ملايين نسمة بدلاً من أن يصبح ستة عشر أو ستة وعشرين مليون نسمة. ولكن عندما نقوم بتقييم مزايا ومساوئ إصدار تشريع مثل تشريع الحزام الأخضر فمن المهم أن ندرك أن تأثيراته أكثر من مجرد الحفاظ على البيئة. فأسعار إيجارات المكاتب فى منطقة ويست إند West End فى لندن أغلى منها فى مانهاتن، أو فى وسط طوكيو، وفى حقيقة الأمر فإن أسعار إيجارات المكاتب فى منطقة وست إند هى الأغلى فى العالم، وبجانب المكاتب، تتصدر المنطقة أيضاً التصنيف العالمى فى غلاء أسعار المنازل حيث يوجد بها أغلى منزل فى العالم الذى بلغ ثمنه ٧٠ مليون جنيه إسترلينى (أى حوالى ١٣٠ مليون دولار). ويرجع هذا إلى أن الحزام الأخضر تسبب فى جعل الممتلكات العقارية فى لندن نادرة مقارنة بمن يرغبون فى استخدامها، وبالطبع فإن القوة تأتى من الندرة.

والآن آن الأوان كى تؤدى أول اختبار فى علم الاقتصاد: لماذا يعد التحسين فى جودة الخدمات والأسعار فى القطار الذى ينقل راكبيه إلى محطة «بن» فى نيويورك من الضواحى المجاورة؛ أمراً يسر كل المستأجرين لممتلكات عقارية فى مانهاتن؟ ولماذا ربما يكون ملاك العقارات فى نيويورك أقل حماساً فيما يتعلق بهذا التحسين؟

الإجابة هى أن النقل العام المطور يزيد من البدائل فيما يتعلق بمسألة تأجير عقار فى المدينة. فعندما يقل زمن رحلة القطار ليصبح ساعة واحدة بدلاً من ساعتين، ويكون بوسع الركاب أن يجلسوا على مقاعد فى القطار بدلاً من الوقوف، سيرى البعض منهم عندئذ أنه من الأفضل توفير المال والانتقال للحياة خارج حى مانهاتن. وعندئذ ستظهر بالسوق الشقق الخالية، وتقل الندرة، وتنخفض أسعار الإيجارات. وهكذا فتطوير الخدمات المقدمة إلى الركاب القائمين برحلات يومية هو أمر لا يقتصر أثره على هؤلاء الركاب فحسب، بل إنه يؤثر على كل المتعاملين فى سوق العقارات فى نيويورك.

هل نقع ضحايا جشع الشركات؟

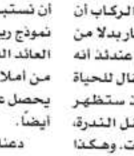
من إحدى مشكلات أن تصبح مخبراً اقتصادياً، أنك ستبدأ فى رؤية «أحزمة خضراء» من أنواع مختلفة فى كل مكان. فكيف نفرق بين السلع باهظة الثمن بسبب ندرتها الطبيعية وبين السلع باهظة الثمن بسبب أسباب مصطنعة مثل التشريعات أو اللوائح أو الخداع؟

يمكن أن يفيدنا نموذج ريكاردو فى هذه المسألة أيضاً، فنحن بحاجة لأن ندرك التماثل المستتر بين الموارد الطبيعية مثل: الحقول والمواقع التجارية المزدحمة والشركات. فالحقول تقوم بتحويل بعض الأغراض إلى أغراض أخرى، فبها يتحول السماد والبذور إلى حبوب. وهذا ما تفعله الشركات أيضاً. فمصنعو السيارات يحولون الصلب والكهرباء والمكونات الأخرى إلى سيارات، ومحطات الوقود تحول المضخات وخزانات الوقود الكبيرة وأرض المحطة إلى بنزين. والبنك يحول أجهزة الحاسب الآلى وأنظمة المحاسبة المتقدمة والنقود إلى خدمات مصرفية. وبدون أن نعتدى كثيراً على حقوق الملكية الفكرية، يمكن أن نستبدل بكلمة «إيجار الأرض» فى نموذج ريكاردو كلمة «ربح». فالإيجار هو العائد الذى يحصل عليه ملاك الأراضى من أملاكهم، والربح هو العائد الذى يحصل عليه ملاك الشركات من أملاكهم أيضاً.

دعنا نتناول النظام المصرفى كمثال. هب أن أحد البنوك يتقن تقديم الخدمات المصرفية إتقاناً كبيراً، ويتمتع بثقافة تنظيمية رائعة، وباسم تجارى ذى ثقل، ونجح فى تطوير أفضل برمجيات مصرفية متخصصة. ويعمل به الموظفون الماهرون حتى إن الآخرين ينضمون إلى العمل بالبنك ليستمدوا منهم الخبرة. كل هذا يقود إلى ما أسماه خبير الاقتصاد جون كاى John Kay (الذى يشير بوضوح إلى نموذج ريكاردو) بـ الميزة التنافسية المستدامة؛ والتى تعنى ذلك النوع من التميز التنافسى على المنافسين الذى ينتج عنه تحقيق أرباح العام تلو الآخر.

دعنا نطلق على هذا البنك اسم «مؤسسة أكسيل المصرفية»، ولنفرض أن هناك بنكاً آخر، ولنسمه «بنك بوب للديون والائتمان» وهو بنك لا يتمتع بكفاءة كبيرة، واسمه التجارى أقل ثقلاً، وبه ثقافة تنظيمية مقبولة. وهذا البنك ليس سيئاً، ولكنه ليس ممتازاً أيضاً. ولنفرض أن هناك بنكاً ثالثاً ولنسمه «مؤسسة كورنيليوس للإيداع»، الذى لا يتمتع بأى درجة من درجات الكفاءة، وسمعته غاية فى السوء، ويعامل موظفوه العملاء بفظاظة، ولا يوجد به أى نظام تحكم فى النفقات. فكفاءة «مؤسسة كورنيليوس للإيداع» أقل من كفاءة «بنك بوب للديون والائتمان»، وتنعدم على الإطلاق مقارنته «بمؤسسة أكسيل المصرفية». كل هذا يذكرنا بأنواع الأراضى الثلاثة التى تحدثنا عنها؛ من أراض خصبة تتمتع بكفاءة فى إنتاج الحبوب، وأراض مغطاة بالشجيرات القصيرة أقل كفاءة، وأراض عشبية وهى أدناها كفاءة.

وتتنافس بنوك أكسيل وبوب وكورنيليوس على بيع الخدمات المصرفية بإقناع الناس بفتح حسابات لديهم أو الحصول على قروض منهم. وبالطبع فإن بنك أكسيل غاية فى الكفاءة حتى إنه قادر على المنافسة إما ببيع الخدمات المصرفية بتكلفة أقل، أو بتجويد الخدمات وبيعها بنفس السعر. وفى نهاية كل عام يجنى بنك أكسيل الأرباح الوفيرة، ويجنى بنك بوب، الذى لا يقدم لعملائه نفس جودة الخدمات، ربحاً أقل من أرباح بنك أكسيل. أما بنك كورنيليوس، فبالكاد يغطى تكاليفه. وإذا كانت السوق المصرفية أكثر صرامة، فسيتوقف بنك كورنيليوس عن مزاولة أعماله. أما إذا غدت السوق المصرفية أكثر جاذبية، فسيبدأ بنك كورنيليوس فى جنى الأرباح وسيدخل إلى المجال بنك جديد ربما أقل كفاءة من بنك كورنيليوس. وهذا البنك الجديد سيكون هو البنك الحدى وسيغطى تكاليفه بالكاد.



يصلح نموذج ريكاردو الاقتصادي لمناقشة العلاقة بين الندرة والقدرة التفاوضية



وبدون تكرار كل خطوة من خطوات التحليل، يمكن أن نذكر أنفسنا بأن إيجار الأرض الخصبة جرى تحديده عن طريق المقارنة بين إنتاجيتها وإنتاجية الأرض العشبية الحدية. وبنفس الطريقة فإن أرباح بنك أكسيل سيجرى تحديدها عن طريق المقارنة بينه وبين بنك كورنيليوس، البنك الحدى، الذى نعرف أننا ينبغى أن نتوقع منه أن يجنى الأرباح القليلة، أو حتى ألا يجنى أرباحًا على الإطلاق. فأرباح الشركات مثلها كمثل إيجارات الأراضى تحددها البدائل. فالشركة التى تواجه منافسة قوية تجنى أرباحًا أقل من الشركة التى تواجه منافسين غير أكفاء.

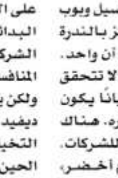
قد تظن أن هناك عيبًا فى هذه المقارنة، فقد تقول إن أفدنة الأراضى الخصبة عددها محدد، ولكن الشركات يمكنها أن تنمو. ولكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، فالشركات لا يمكنها أن تنمو بين عشية وضحاها دون أن تتشوه سمعتها وسمعة المقومات الأخرى التى دفعتها نحو النجاح. من ناحية أخرى، بينما يستحيل أن يتغير عدد الأفدنة، فإن التمييز بين الأنواع المختلفة من الأراضى سوف يتغير بمرور الزمن مع تطور نظم الرى ومكافحة الآفات وتقنيات الأسمدة. إن نموذج ريكاردو، الذى يتجاهل تلك التغييرات التى تحدث بمرور الزمن، سوف يفسر الاتجاهات فى أسعار المنتجات الزراعية على مدار العقود وليس على مدار القرون، ولكنه سوف يفسر ربحية المؤسسات على مدار السنين وليس على مدار العقود. وهذا التحليل شأنه شأن الكثير من النماذج الاقتصادية سيؤدى وظيفته جيدًا عندما يُطبق خلال فترة زمنية محددة، وفى حالتنا هذه، تكون الفترة الزمنية على المدى القصير أو المتوسط. أما بالنسبة إلى الفترات الزمنية الأخرى، فهناك نماذج اقتصادية أخرى تفلح فى هذا الصدد.

كل هذا رائع ... ولكن ما علاقة هذا بجشع الشركات؟

كثيرًا ما نجد الصحف تتحدث عن الأرباح التى تجنيها الشركات وكأنها تعتبر هذه الأرباح علامة على أنها تغش المستهلك. فهل هذه الصحف محقة؟ ليس دائمًا. يقول تحليل ريكاردو إن هناك سببين ربما يدفعان متوسط الأرباح التى تجنيها صناعة مثل صناعة البنوك إلى الارتفاع، فلو كان العملاء يقدرون حقًا قيمة الخدمة الممتازة والسمعة الطيبة، فسيجنى بنكا أكسيل وبوب الكثير من النقود. (أما بنك كورنيليوس الذى يعد بمنزلة البنك الحدى فسيجنى ربحًا ضئيلًا.) وسيكون عندئذ بوسع الكتاب فى الصحف أن يشتكوا من الكسب المفرط لهذه الشركات. أما لو كان العملاء يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر ضئيل، فسيجنى أكسيل وبوب أرباحًا تزيد قليلا عن تلك التى يجنيها كورنيليوس (الذى لا يزال يعتبر البنك الحدى ولا يزال يجنى الربح الضئيل). وسيصبح متوسط الأرباح منخفضًا. وعندئذ سيصمت الصحفيون رغم عدم تغير دوافع واستراتيجيات الصناعة حيث إن الأمر الوحيد الذى تغير هو أن العملاء أصبحوا يهتمون بالخدمة الممتازة بقدر كبير. وهكذا فليس لدينا سارق أو مسروق وإنما يُكافئ كل من أكسيل وبوب لأنهما يعرضان شيئًا يتميز بالندرة والتقدير الكبير لأهميته فى آن واحد.

ولكن تلك الأرباح العالية لا تتحقق دائمًا على نحو عادل، فأحيانًا يكون غضب الصحف له ما يبرره. هناك تفسير آخر للأرباح العالية للشركات. فماذا لو كان هناك «حزام أخضر» مصرفى يمنع بنك كورنيليوس من دخول السوق منعًا تامًا؟ يوجد بالفعل على أرض الواقع العديد من الأسباب التى تجعل الشركات الجديدة عاجزة عن الدخول إلى الأسواق والمنافسة. وفى بعض الأحيان يكون العملاء أنفسهم سببًا فى هذا، فهم لا يتعاملون إلا مع الشركات ذات المكانة الراسخة فى السوق، ولهذا تجد الشركات الجديدة صعوبة فى دخوله. يفيد جون كاى أن بعض المنتجات «المحرجة» مثل العازل الطبى والفوط الصحية تجنى الكثير من الربح لأن الداخلين الجدد إلى تلك الصناعة يصعب عليهم إحداث ضجة إعلامية عن منتجاتهم. كما يحدث فى كثير من الأحيان أن تضغط الشركات نفسها على الحكومة طالبة الحماية من المنافسة، ولذلك نجد العديد من حكومات العالم تمنح تراخيص احتكارية، أو نجدها تضع القيود الصارمة على دخول سوق الصناعات «الحساسة» مثل البنوك أو الزراعة أو الاتصالات. ولكن تعددت الأسباب والتأثير واحد: تحصل الشركات الراسخة فى السوق وهى فى بعد عن المنافسة على الأرباح العالية. وفى حقيقة الأمر، يطلق علماء الاقتصاد كثيرًا على هذه الأرباح اسم «الإيجارات الاحتكارية» monopoly rents نظرًا لوجه الشبه بين الإيجار الذى يُفرض على الأرض فى ظل وجود عدد قليل من البدائل والأرباح التى تحصل عليها الشركات فى ظل وجود عدد قليل من المنافسين. قد يكون مصطلحًا محيرًا، ولكن يمكنك أن تلقى باللوم على نموذج ديفيد ريكاردو وعلى نقص القدرة على التخيل عند علماء الاقتصاد منذ ذلك الحين.

إذا أردت معرفة ما إذا كنت قد وقعت ضحية غش متاجر البقالة، أو البنوك، أو شركات الأدوية، يمكننى معرفة كم تجنى تلك الشركات من أرباح. فلو كانت تجنى أرباحًا عالية، أبدأ أشك فى أمرهم. أما إن كان من السهل إنشاء شركة جديدة تنافسهم فى مجال عملهم، فسيقل شكى نحوهم. وهذا يعنى أن الأرباح العالية ترجع إلى الندرة الطبيعية: يعانى العالم بالفعل قلة عدد المؤسسات المصرفية الجيدة، ونحن نعلم أن المؤسسات المصرفية الجيدة تتفوق فى كفاءتها كثيرًا عن نظيرتها السيئة.



العالم مكان تنافسى بطبيعته، ومن الصعب أن يعمل المرء فيه دون منافسة

«إيجارات» الموارد

لا تقتصر الرغبة فى تجنب المنافسة والحصول على إيجارات احتكارية على ملاك العقارات وأصحاب الشركات. فهذه الرغبة تحدو أيضًا كلا من النقابات العمالية وجماعات الضغط ومن يدرسون للحصول على مؤهلات متخصصة بل وحتى الحكومات المحلية. فكل يوم يحاول الناس من حولنا تجنب المنافسة، أو الحصول على نتاج جهد الآخرين الذين نجحوا فى فعل هذا. يسمى علماء الاقتصاد هذا النوع من السلوك «خلق الإيجار» و«السعى وراء الإيجار».

ليس من السهل فعل هذا، فالعالم مكان تنافسى بطبيعته، ومن الصعب أن يعمل المرء فيه دون منافسة. وهذا أمر طيب لأنه إذا كانت المنافسة أمرًا يدعو للضيق إذا كنت من المتضررين منها، فهى مفيدة حينما تنتفع منها كأن تكون مستهلكًا تستفيد من منافسة الشركات لبعضها. فكلنا نستفيد عندما نتفاعل مع أناس يتنافسون ليقدموا لنا الوظائف والصحف وإمكانية الاستمتاع بعطلة فى مكان ذى طقس بديع تمامًا مثلما استفاد ملاك الأراضى فى مثالنا الافتراضى من المنافسة بين أكسيل وبوب.

يعتبر التحكم فى أحد الموارد الطبيعية مثل الأراضى الزراعية أحد الطرق لتجنب المنافسة. صحيح أن هناك عددًا محدودًا من الأراضى الخصبة فى العالم، ولكن بإمكان التقنيات الزراعية المتطورة أن تزيد من هذا الرقم. ولكن الأرض الزراعية ليست المورد الطبيعى الوحيد المحدود فى العالم. فالنفط مورد آخر محدود حيث تنتجه بعض دول العالم بتكلفة منخفضة لاسيما السعودية والكويت والعراق ودول الخليج الأخرى، وعلى النقيض تنتجه بعض الدول الأخرى بتكلفة عالية مثل الاسكا ونيجيريا وسيبيريا والبرتا. أما فى أنحاء عديدة أخرى من العالم فترتفع تكلفة استخراج النفط ارتفاعًا هائلا حتى إنه لا يوجد أحد يفكر فى استخراجه. وفى الوقت الحالى فإن الأماكن مثل ألبرتا هى المنتج «الحدى» للنفط.

يصلح تاريخ صناعة النفط أن يكون دراسة حالة عند دراسة «نظرية الريع» لريكاردو. فحتى عام ١٩٧٣م كان المعروض العالمى من النفط يُنتج بواسطة «حقول النفط الخصبة» التى توجد فى أغلب

بـهـا فـي مـكـتـبـة مـنـزلـي بـأول تحـلـيـل اقـتـصـادي عـن مـقـاهـي الـقـرن الحـادي والـعـشـريـن

الأحيان فى الشرق الأوسط. وبالرغم من أهمية النفط الهائلة للاقتصاديات الصناعية، كان سعر النفط منخفضاً جداً - أقل من عشر دولارات للبرميل حسب قيمة الدولار اليوم - وذلك لأن النفط آنذاك كان متوفراً بكميات كبيرة وبسعر ضئيل جداً. وفى عام ١٩٧٣ قررت منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) - التى تجلس على معظم حقول النفط الخصبة - أن تدع بعض من حقولها دون عمل، عن طريق توجيه أوامر إلى كل الدول الأعضاء بها بأن يقللوا من إنتاجهم. وعندئذ قفزت أسعار النفط إلى أربعين دولاراً للبرميل، ثم إلى ثمانين دولاراً بعدها وذلك حسب قيمة الدولار اليوم. وبقى سعر النفط مرتفعاً لسنوات وذلك بسبب قلة وجود موارد بديلة للنفط على المدى القصير آنذاك. (يعادل هذا فى مثال ريكاردو الافتراضى التوقف فجأة عن زراعة الأرض الخصبة الأمر الذى يترك فترة زمنية قبل أن يتم تشذيب وحرث الأرض العشبية، مما يتسبب فى نقص مؤقت فى الحبوب إضافة إلى زيادة قيمة الريع).

ومع ارتفاع سعر برميل النفط إلى ثمانين دولاراً، بدت العديد من البدائل ارخص ثمناً حتى لجأ إليها الكثيرون لسنوات: مثل توليد الكهرباء باستخدام الفحم عوضاً عن النفط، وتصميم سيارات جديدة أكثر كفاءة فى استهلاك البنزين، والتنقيب عن النفط فى أماكن مثل ألبرتا والاسكا. ومن ثم حُرث المزيد والمزيد من «موارد الطاقة المغطاة بالشجيرات القصيرة» و«موارد الطاقة المغطاة بالأعشاب». ولإبقاء أسعار النفط مرتفعة، اضطرت الأوبك OPEC إلى قبول أن يكون لها حصة أصغر من السوق العالمية للنفط. وفى النهاية أعلنت السعودية تمردها على ذلك النظام عام ١٩٨٥ وزادت من إنتاجها من النفط حتى انهارت الأسعار عام ١٩٨٦. ولبضعة أعوام مضت كان سعر النفط يغطى بالكاد تكلفة إنتاج حقول النفط الحدية فى أماكن مثل ألبرتا التى تتراوح بين خمسة عشر وعشرين دولاراً للبرميل. وفى السنوات القليلة الأخيرة أصابتنا الهلاوس بسبب مزيج من الارتفاع المفاجئ فى الطلب على النفط من جانب الصين، ومشاكل الإنتاج فى السعودية والعراق ونيجيريا وفنزويلا. وقد تسبب كل هذا فى ارتفاع أسعار النفط إلى أكثر من خمسين دولاراً للبرميل. ومع ذلك، فحتى مع الأسعار المنخفضة التى سادت فى تسعينيات القرن العشرين، كان إنتاج النفط المستخرج من أرخص الحقول فى السعودية والكويت بتكلفة إنتاج تبلغ بضعة دولارات للبرميل؛ يعد مكسباً صافياً.

متى تفيد الجريمة؟

لا يرتبط جانب كبير من اقتصاد العالم ارتباطاً وثيقاً بالموارد الطبيعية المحدودة. ويعنى هذا أن البشر عليهم إيجاد وسائل أخرى لمنع المنافسة.

ويعد اللجوء إلى العنف أحد الوسائل الشائعة وعلى الأخص فى تجارة المخدرات وغير ذلك من ضروب الجريمة المنظمة. يفضل تجار المخدرات عدم وجود منافسين يدفعون أسعار المخدرات للانخفاض. ومن الممكن أن يؤدى قيام عصابة إجرامية بقتل عدد كاف من البشر أو ضربهم ضرباً مبرحاً أن يثنى العصابات المنافسة عن الدخول إلى السوق لتتمتع تلك العصابة بالأرباح الطائلة. وهذه التصرفات غير قانونية بالطبع، ولكن هذا الوصف ينطبق أيضاً على تجارة المخدرات: فلو كنت ستخاطر بدخول السجن فى كل الأحوال، لا يوجد مغزى من استخدام أنصاف الحلول. فلو أراد تجار المخدرات التمتع بقوة تمنحها لهم الندرة، فعليهم فعل كل ما فى وسعهم حتى تكون المنافسة نادرة. وبالطبع ليس من المحتمل أن يشكو زبائنهم للشرطة من جشع تجار المخدرات.

ولسوء حظ عصابة المخدرات المبتدئة والعادية أن العنف قد لا يكفى لجنى الأرباح. فالصعوبة تكمن فى أن كلا من الأسلحة والرجال عدوانيى السلوك متوفرون بكثرة. فأى عصابة تكسب جيداً تكون بمنزلة عنصر إغراء يدفع العصابات الأخرى لمحاولة السيطرة على أرضها، وسيكون هناك كثير من المنافسين. استطاع كل من خبير الاقتصاد ستيفن ليفيت Steven Levitt، وعالم الاجتماع سودير فينكاتيش Sudhir Venkatesh تقصى المكاسب التى تجنيها إحدى عصابات الشوارع الأمريكية واتضح لهما أن «جنود المشاة» هؤلاء يجنون أحياناً مكسباً ضئيلا قد يصل إلى ١,٧٠ دولار فى الساعة. وهناك بالطبع احتمالات لزيادة هذا الأجر نظراً للانخفاض المتزايد فى عدد أفراد العصابات، (فمنهم من يترك العصابة، ومنهم من يُقتل، وهذا يحدث طوال الوقت)؛ ولكن حتى مع تلك الاحتمالات يبقى متوسط مكسب الفرد منهم أقل من عشرة دولارات فى الساعة. وهذا ليس بالمبلغ الكبير بالنظر إلى أنه فى فترة عمل تستمر أربعة سنوات؛ يكون من المتوقع أن يُطلق عليه النار مرتين، ويُعتقل ست مرات، واحتمال بنسبة ٢٥٪ أن يتعرض للقتل.

وتحقق بعض التنظيمات الإجرامية نجاحاً أكثر من هذا. فعصابات المافيا غالباً ما تمتهن أعمالا مشروعة مثل تنظيف الملابس على اختلاف أنواعها، وهو مجال يمكن أن يحقق أرباحاً طائلة فقط لو مُنع المنافسون من دخوله. وقد يتم ذلك بترهيب المنافسين، وهو أمر فى غاية السهولة حيث إن العثور على الشاحنات التى تحمل الملابس وتدميرها أو حتى تدمير المغاسل نفسها، أسهل بكثير من العثور على كيس من الكوكايين وتدميره. ومن السهل أيضاً ترهيب الزبائن، فالمتابعون لمسلسل ذا سوبرانوز The Sopranos يعلمون أن عصابات المافيا توفر خدمات الغسيل بأسعار مغالى فيها للمطاعم كطريقة لتربح المال. والسبب واضح بالطبع، فالمطاعم على وجه الخصوص معرضة للوقوع ضحية لابتزاز الأموال لأنها لا ترغب فى أن تجلب لنفسها جلبة تبعد عنها الزبائن، وفى الوقت نفسه تغالى تلك المطاعم فى أسعار خدماتها حتى تستطيع أن تدفع منها الضريبة التى تدفعها للمافيا مقابل الحماية. فى العادة تجتذب الأعمال المربحة المنافسة، ولكن فى هذه الحالة فإن المنافسة تؤمن بوجوب وجود وسيلة أكثر أمناً لكسب العيش.

وهذا يعنى أن هذا النوع من العنف ليس هو الذى يجنى الأرباح المستدامة ويخلق حواجز منع دخول الأسواق، ولكنها فعالية المنظمة التى يملكها بنك أكسيل، ويفتقر إليها بنك كورنيليوس، تماماً مثلما تفتقر إليها عصابات الشوارع العادية، وتتمتع عصابات المافيا بالكثير منها.

مؤامرات ضد عوام الناس

لحسن الحظ أنه يمكنك فى الأماكن الراقية فى العالم المتقدم الاحتماء ممن يستخدمون العنف لمنع المنافسة، ولكن هذا لا يعنى أن الناس لم يطوروا وسائل أخرى للتخلص من المنافسين.

والنقابات العمالية مثال جلى على هذا، فالغرض من النقابة هو منع العمال من منافسة بعضهم بعضاً على فرص العمل حتى لا تنخفض الأجور وتتدهور ظروف العمل. فلو زاد مثلا الطلب على الكهربائيين مع قلة من يتقنون تلك المهنة، سيصبح لمن يتقنونها قوة مستمدة من ندرتهم، ومن ثم، يحصلون على أجور وظروف عمل ممتازة، سواء كان ذلك فى ظل وجود أو عدم وجود نقابة لهم. أما إن ظهر فى السوق المزيد والمزيد من الكهربائيين، فستنهار تلك القوة، وسيؤدى الكهربائيون الجدد نفس دور المزارع بوب الذى تحدثنا عنه من قبل. صحيح أن وظيفة النقابات العمالية هى التفاوض باسم العمال جميعاً، ولكن من وظائفها أيضاً سد الطريق أمام دخول العمال الزائدين عن الحاجة إلى المهنة.

ومع دخول الآلات فى الصناعة بشكل كبير فى القرن التاسع عشر كان دافع الناس لتشكيل النقابات له مبرراته. فقد كان العمال



ما زال الجـدل مستمرا
فى التمحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق
المهاجـرون وظائفنـا؟

تعقيدات الحياة اليومية غالبًا ما تخفي الاتجاهات ؟ الكبيرة الكامنة وراء الأحداث، مثلما يحدث عند



أنذاك كالسلعة المتوفرة بغزارة، وكانوا يتمركزون جميعًا في المدن، ويمكن إحلال بعضهم مكان بعض بمنتهى السهولة. وبدون النقابات، كانت ستظل الأجور منخفضة للغاية. أما في وجود النقابات، فصار من الممكن تجنب دخول المنافسين إلى السوق، وارتفعت أجور العمال الذين مكنهم حظهم من الالتحاق بالنقابة. اذكر أنه في الولايات المتحدة كان هناك قانون يتصدى للنقابات العمالية، فقوانين مكافحة الاحتكار Antitrust laws التي سُنت لتحول دون تواطؤ الشركات الكبيرة بعضها مع بعض في عمليات احتكار؛ استُخدمت أيضًا ضد النقابات. ولكن مع تغير المناخ السياسي، أثبتت تلك القوانين عدم قابليتها للتطبيق، وزادت قوة النقابات العمالية.

ولكن إن كانت النقابات العمالية تحقق هذا النوع من النجاح المبهر، فقد نتوقع أن يتمتع الموظفون التابعون للنقابات بالأجور الضخمة - مثلما كان الحال في صناعة السيارات بالولايات المتحدة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين - عندما يكون للنقابات تأثير ملموس. ولكن الواقع أن النقابات العمالية تواجه العديد من العوائق التي تحول دون تحقيقها لهذا النوع من النجاح. فلما نُظر إلى النقابات العمالية على أنها تطالب بمطالب مبالغ فيها متسببة في زيادة الأسعار إلى درجة لم يقبلها قطاع عريض من الناس الذين، بدورهم، مارسوا ضغطًا على رجال السياسة لإعادة تنظيم النقابات العمالية. وأحيانًا أخرى تهدد المنافسة الدولية الندرة التي تتمتع بها تلك النقابات، مثلما حدث مع مصنعي السيارات بالولايات المتحدة الذي كانوا يتمتعون بالرواتب الممتازة والاستقرار الوظيفي إلى أن استخدم مصنعو السيارات اليابانيون طرقًا أكثر فعالية وبدءوا في وضع مصنعي السيارات الأمريكيين تحت الضغط.

وفي حالة الصناعات الآخذة في الانكماش مثل صناعة بناء السفن في بريطانيا أو صناعة السيارات في الولايات المتحدة، تختفي فرص العمل بمعدل يجعل النقابات العمالية عاجزة عن الحفاظ على قيمة ندرتها، حيث لا يمكن أن تهدد النقابات بتقليص المعروض من العمال بنفس السرعة التي تتمكن بها من مواجهة تناقص الطلب.

أما في الصناعات الأخرى فليس تناقص الطلب هو الذي يحد من قوة النقابات ولكنه العمال الماهرون. ففي الولايات المتحدة مثلا تتمتع شركة وول مارت Wal-Mart بقدرة تفاوضية هائلة، فقد كان هناك فرعان للشركة فقط يتبعان للنقابة في أمريكا الشمالية في صيف ٢٠٠٤م عندما أعلن المسئولون بالشركة أن أحد هذين الفرعين في مقاطعة كويبك Quebec الكندية سيغلق؛ لأن النقابة كانت تدمر نموذج عملها. وفي المملكة المتحدة يحصل المعلمون على رواتب منخفضة بالرغم من حقيقة أن هناك نقصا في المعلمين الأكفاء. ويرجع هذا إلى أن الحكومة، وهي رب العمل الوحيد بالدولة، لديها قدرة تفاوضية هائلة. ففي العادة عندما يوجد نقص في الأيدي العاملة الخاصة بمهنة ما تتسبب المنافسة بين أرباب العمل في رفع أجور العمال. فقط رب العمل الذي يحتكر مجالا ما هو الذي يمكنه المحافظة على وضع ينقص فيه بشكل حاد عدد المعلمين في حين لا ترتفع الرواتب استجابة لذلك النقص. فالمدرسون يتمتعون ببعض القوة التي يستمدونها من ندرتهم، ولكن في تلك الحالة تتمتع الحكومة بقوة أكبر.

ولقد تمكن أصحاب المهن الأخرى كالأطباء وخبراء التأمين والمحاسبين والمحامين من المحافظة على أجورهم العالية، بطرق أخرى غير النقابات العمالية حيث صنعوا «أحزمة خضراء» افتراضية ليصبح من الصعب على المنافسين المحتملين الدخول إلى السوق ومزاولة المهنة. وتتضمن هذه الأحزمة الخضراء الافتراضية فترات تأهيل طويلة للغاية وضرورة موافقة الهيئات المهنية على قبول أعداد محددة من المتقدمين كل عام. فالعديد من المنظمات التي نتوقع منها حمايتنا من أصحاب المهن «غير المؤهلين» هي في الواقع تسعى للحفاظ على الرواتب العالية التي يحصل عليها «المؤهلون» الذين يزاولون المهنة بالفعل. وبالفعل كثير منا لا يمانع أن يحصل على استشارة قانونية من المحامين ذوي الخبرة حتى وإن كانوا يفتقرون إلى المؤهلات الرسمية، بل إننا نحصل أحيانًا على الاستشارة الطبية من طلبة كلية الطب، أو الأطباء الأجانب أو المعالجين بالطب البديل. ولذلك يبذل أرباب المهن القانونية والطبية أقصى ما في وسعهم للتحكم في عدد من يزاولون تلك المهن من المؤهلين تمامًا، وحظر أي بدائل منخفضة التكلفة بأمر القانون. فمثلا إن لم يكن بإمكانك تحمل دفع إيجار الأرض الخصبة، سيحرمك القانون من استئجار الأرض البور أو الأرض العشبية. لا عجب إذن في وصف جورج برنارد شو George Bernard Shaw للمهن بأنها «كلها مؤامرات ضد عامة الناس».

والآن ننتقل إلى شيء مثير للجدل

دائمًا ما كانت الهجرة قضية مثيرة للعاطفة في أمريكا، ومع أن الأمن القومي أصبح مدعاة للقلق مؤخرًا، فما زال الجدل مستمرًا في التمحور حول نفس السؤال القديم: هل يسرق المهاجرون وظائفنا؟ ربما يكون أحدهم قد سرق وظيفتك، أما وظيفتي فلم يسرقها أحد.

يرحب بالهجرة كل من العمال المتعلمين ذوي الوظائف التي تتطلب المهارة والتدريب، ورجال الأعمال ممن في حاجة إلى العمالة الرخيصة وذلك كجزء من عملية إثرائية تضيف إلى الحياة الاقتصادية والثقافية لكل دولة. في حين يرفض غير المتعلمين جيداً أي هجرة جديدة لمهاجرين يعملون في أعمال لا تحتاج إلى مهارات خاصة، متذرعين بالقول «إنهم يسرقون وظائفنا». ربما يتصف هذا القول بكثير من المبالغة ولكنه يبدو منطقيًا من وجهة نظر أصحاب المصالح.

وباعتباري أحد العاملين في أعمال تحتاج إلى المهارة فإنني أستاء من معارضة قدوم المهاجرين، بل أرغب في رؤية المزيد منهم. ولكن لو كنت من الجانب الآخر، هل كان هذا سيصبح رأيي أيضًا؟ إن احتاجت الدولة إلى عمالة تنجز الأعمال النافعة في وظائف تتطلب أو لا تتطلب المهارة، فمن مصلحتي المباشرة أن أرى هجرة مزيد من العمالة غير الماهرة إلى دولتي، الأمر الذي يضر بطريقة مباشرة أيضًا بالعمالة غير الماهرة الموجودة بالفعل.

تخيل أنني أنا وغيري من المواطنين الحاصلين على تعليم عالٍ كمُلاك للأراضي، ولكن استبدل بكلمة «الأرض الخصبة» كلمة «الشهادة الجامعية». فمهاراتي ومؤهلاتي تعد موردًا شأنها شأن الأرض الخصبة. ولكن هل مهاراتي مورد نادر؟ افرض أنني أعمل ضمن الفريق الإداري لمتاجر وول مارت، فعندما تمتزج مهاراتي (دعنا لا نحدد بالضبط المهارات التي يفترض أن أتمتع بها) بالعمل الجاد للبائعين المساعدين بالمتجر ومنظمي البضاعة على الأرفف نكون قد أصبحنا فريقًا منتجًا. أما مَن منا يحصل على العوائد، فهذا أمر يعتمد على مَن تتمتع مهاراته بالندرة. فإن نقصت بالدولة العمالة غير الماهرة ممن يعملون في تنظيم البضاعة على الأرفف؛ يجب عندئذ أن ترتفع أجورهم حتى تجتذب مزيدًا من الناس للعمل في هذه الوظيفة. أما إذا نقص عدد المديرين المهرة وامتلأت الدولة بمنظمي البضاعة على الأرفف غير المهرة، فسأحصل على أجر مُرضٍ بسبب قيمة ندرتي مثلما يحصل مالك الأرض على إيجار مُرضٍ بسبب ندرة الأرض التي يملكها بمجرد أن يظهر العدد الكافي من المزارعين.

يعزو البعض سبب معارضة الطبقة العاملة لهجرة الأجانب إلى العنصرية. وهناك نظرية بديلة أكثر إقناعًا تقول بأن



هامش الربح الجيد
لا يرجع إلى جودة البن
أو طاقم العمل

كل إنسان يتصرف وفقًا لمصلحته الشخصية. فظهور العمال الجدد يصب فى مصلحة من يملكون الموارد التى ستصبح نادرة نسبيًا سواء أكانت تلك الموارد أراضى خصبة أم شهادات جامعية، ولكن من المفهوم أن ظهورهم أمر يمقته نظراؤهم العاملون بالفعل. وفى حقيقة الأمر فإن المهاجرين القدامى هم أكثر من يتأذون من الهجرة الجديدة ويجدون أجورهم قد انخفضت انخفاضًا هائلا.

وتدعم الحقائق تطبيق نظرية ريكاردو على الهجرة. فالمهاجرون العاملون فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون من أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف، وكذلك المهاجرون العاملون فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة يقللون أجور العاملين من أبناء البلد فى مثل هذه الوظائف. وقد ظلت أجور الممرضات فى الخدمات الصحية الوطنية NHS بالمملكة المتحدة منخفضة بسبب تدفق ثلاثين ألف ممرضة أجنبية؛ فاحتمال حمل شهادة جامعية يزيد عند المهاجرين عن مواطنى المملكة المتحدة بنسبة ٥٠٪. وعلى العكس، ففى الولايات المتحدة التى تستوعب نسبة من المهاجرين العاملين فى وظائف تحتاج إلى مهارات خاصة؛ أعلى بكثير من مثيلتها فى المملكة المتحدة؛ نجد أن أجور العمالة فى وظائف لا تحتاج إلى مهارات خاصة هى التى ظلت منخفضة، إذ لم يتحسن دخل العاملين بتلك الوظائف منذ ثلاثين عامًا.

ما الذى يجدر بعلماء الاقتصاد فعله؟

لقد كنا نفكر تمامًا مثل علماء الاقتصاد طوال هذا الفصل. ولكن ماذا يعنى هذا؟ لقد استخدمنا أحد النماذج الاقتصادية الرئيسية لتعميق فهمنا لعدد من المواقف المختلفة. انتقل الفصل من التحليل الذى يبدو عليه بعض الموضوعية فيما يخص مَن يجنون المال من تجارة الكابوتشينو؛ إلى مسألة سياسية خطيرة عن تنظيم القيود والهجرة.

قد يزعم بعض علماء الاقتصاد أنه لا يوجد اختلاف بين تحليلهم الاقتصادى لإيجار المقاهى وبين تحليلهم الاقتصادى للهجرة. وهذا حقيقى، فعلم الاقتصاد يشبه الهندسة إلى حد بعيد، أى أنه يخبرك بكيفية عمل الأشياء، وما قد يحدث لو غيرت هذه الأشياء. وبإمكان رجل الاقتصاد أن يشرح لك كيف يساعد السماح لعدد كبير من المهاجرين من العمالة الماهرة فى تضييق الهوة بين أجور العمالة المدربة وغير المدربة، فى حين أن هجرة العمالة غير المدربة تفعل عكس ذلك. أما ما تفعله المجتمعات وولاة أمورها بتلك المعلومات فهذه قضية أخرى.

ومع ذلك فإن حقيقة أن علم الاقتصاد فى حد ذاته أداة للتحليل الموضوعى لا تعنى أن علماء الاقتصاد يتناولون القضايا من وجهة نظر موضوعية دائمًا. فهم يدرسون السلطة والفقر والنمو والتنمية. ومن الصعب السيطرة على النماذج الاقتصادية التى تكمن وراء هذه الأمور دون التأثر بالعالم الحقيقى الذى يحويها.

لهذا تجد علماء الاقتصاد غالبًا ما يتنحون عن دورهم كمهندسين للسياسة الاقتصادية ليصبحوا أصحاب قضايا. فمثلا كان ديفيد ريكاردو من أوائل المؤيدين للتجارة الحرة. كما شجعه رفيقه جيمس ميل James Mill على ترشيح نفسه فى البرلمان حتى إنه صار عضوًا عام ١٨١٩ عندما أيد إلغاء التعريفات الجمركية الباهظة فى بريطانيا على الحبوب المستوردة من الخارج والتى كانت تعرف بقوانين الحبوب Corn Laws، التى حجمت بشدة من استيراد الحبوب. وأوضحت نظريات ريكاردو أن قوانين الحبوب كانت تحشو جيوب ملاك الأراضى الزراعية بالنقود على حساب باقى المواطنين. لم يرض ريكاردو بمجرد ملاحظة تأثيرات قوانين الحبوب بل إنه رغب فى إلغائها.

واليوم يصل علماء الاقتصاد إلى نتائج مشابهة عن قوانين الحماية، التى تحمى - كما سنرى فى الفصل التاسع - الجماعات الضاغطة التى تتمتع ببعض الميزات على حساب باقى الناس، فى العالم المتقدم والنامى على حد سواء. فقد ينتفع مليارات البشر من السياسات الاقتصادية الجيدة فى حين يموت الملايين من السياسات السيئة. فى بعض الأحيان يكون منطق علم الاقتصاد مقنعًا للغاية بحيث يكون من المستحيل على علماء الاقتصاد عدم اتخاذ موقف. ■

كتاب الزاوية

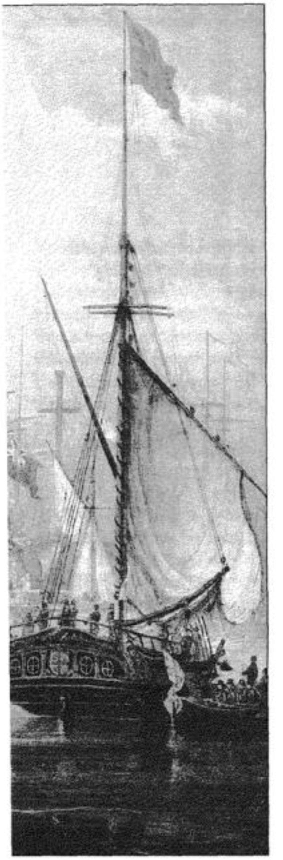


شعراء الصوفية «المجهولون»

عند ذكر الشعر الصوفى، لا يتبادر إلى الأذهان إلا ابنُ الفارض.. وأحيانًا، الحلاَّج وابن عربى! وذلك يعكس جهلنا بعديد من شعراء الصوفية الذين لا تقل مكانتهم عن هؤلاء المشهورين. ولذا، جاءت فكرة هذا الكتاب «شعراء الصوفية المجهولون» (دار الشروق ٢٠٠٨) للباحث المدقق يوسف زيدان، وذلك كمحاولة للتعريف بأولئك المجهولين من شعراء الصوفية.

ولما سبق، فهذا الكتاب لن يتناول شعراء الصوفية الذين نالت أشعارهم شهرةً، وطُبعت دواوينهم. محقَّقةً أو غير محقَّقة. وهؤلاء هم: الحلاَّج، الشِّبْلى، الجيلانى، ابن الفارض، ابن عربى، التلمسانى، النابلسى.. فقد رأيت أن دواوينهم المنشورة، تكفى لمعرفتهم وتؤكد شهرة أشعارهم.





أحمد بهاء شعبان

عندما تبنى الشركات إمبراطوريات

كيف هيمن الغرب على العالم؟

■■ تُعلمنا مقولة فرانسيس بيكون: «المعرفة قوة»، القيمة الحقيقية لمثل هذا الكتاب المهم، الذى يضع بين أيدينا قدراً وافراً من المعلومات، المدعمة بالخلفيات التاريخية والأسانيد الفكرية، والمستندات والوثائق، التى عرضها «نك روبينز»، ومكنته من أن ينهض، عن جدارة، بمهمة مركبة: تفكيك وتحليل وشرح، دور ومسار واحدة من أبرز الظواهر الاقتصادية فى تاريخ العالم.

شركة عملاقة، بحجم دولة كبيرة، زحفت بمخالبها وأنيابها حتى أخضعت عملاقى قارة آسيا، وتحكمت فى شعوبها: أعملت فيها أسوأ أشكال النهب الاستعمارى، والعنف العنصرى الهمجى المنهج، بهدف استنزاف خيراتها، واسترقاق شعوبها، وتدمير مقوماتها الإنسانية!

واسم «شركة الهند الشرقية البريطانية»، الذى يحكى هذا الكتاب وقائع صعودها الأسطورى، إلى عنان السماء، ثم انحدارها حتى نهايتها المحتومة، يُلخص قصة الاستعمار الغربى كله، الذى بَسط هيمنته على العالم، فى القرون الماضية، مستنداً إلى تفوق عسكرى، ونزعة لا نهائية لاستباحة الآخر، واتباع لسياسة فرق تسد، وما إلى ذلك من أساليب المكر والخداع، مما أدى إلى تنمية مالية واقتصادية، ومن ثم ثورة صناعية وما نجم عنها من مصادر للقوة، ونهم شديد للمواد الأولية، ثم حاجة مماثلة للأسواق الضرورية لتصدير فائض الإنتاج، وهو ما ترتب عليه اجتياح مسلح متصاعد ومتفاقم لقارات العالم.

ولم يقف فى وجه هذا الاجتياح عائق من منطق أو أخلاق أو حق، بل استباح الغرب، كما تعرض صفحات الكتاب، تدمير المقومات البشرية للشعوب بلا رحمة، ودفعها إلى أتون الموت والمجاعات والأوبئة والرزايا، مع تغييبها عن الواقع وبذر الخلافات والشقاقات فيها، واستنفاد طاقاتها فيما يضر ولا ينفع، حتى تظل مستكينة لـ «قدرها» المحتوم، المزعوم، راضية بمصيرها البائس، عاجزة عن التمرد على واقعها المتردى، أو الثورة على غاصبيها!

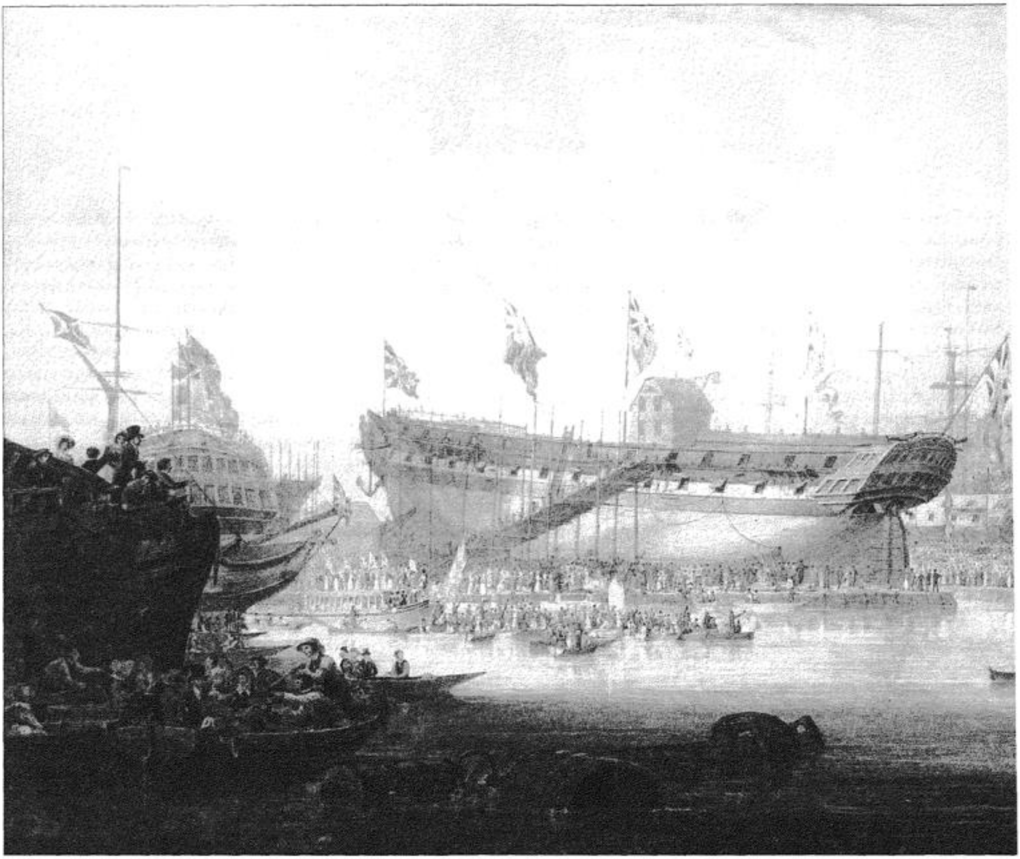
لم تقتصر القصص المريرة التى تفيض بها صفحات الكتاب، على دول آسيا وحسب، بل إنها - بحذافيرها - تكررت فى قارات عديدة أخرى، على رأسها أفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل والقارة الأمريكية ذاتها، التى شهدت إبادة منظمة بالغة الوحشية لعشرات الملايين من سكانها الأصليين، (الذين سماهم الإنجليز الهنود الحمر)، حتى يستقر قرار المستعمرين البيض، ويطيب لهم المقام فى هذه القارة البكر الغنية، كما أن بلادنا العربية، ومصر فى مقدمتها، كانت مسرحاً لحملات مشابهة، وما قصة «شركة قناة السويس» ودورها، الاقتصادى والسياسى، وقصة حفر القناة ذاتها، بما استُنزف فيها من أموال وعرق ودماء مئات الآلاف من المصريين، إلا تكرار مشابه لما حدث فى بقية العالم.

فالاستعمار، كان ولازال، ظاهرة «كوكبية»، منذ موجات «العولمة» الأخيرة، التى نحيا تأثيراتها، ويلفحنا لهيبها، وتدفع شعوبنا أثماناً باهظة، وقرباناً على مذابحها!

متى وكيف هيمن الغرب على العالم
الشركة التى غيرت العالم
نك روبينز
ترجمة كمال المصرى
مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٩

■ ■ ■

The Corporation That Changed the World
How the East India Company Shaped the Modern Multinational
Nick Robins
Pluto Press, 2006



ويُقدّم هذا الكتاب ملامح الكتابة الغربية الحديثة، التى تفيض بالمعلومات والأرقام والإحصاءات والوقائع، بحيث يُبعد القارئ عن الملل، ويمسك بتلابيبه حتى الصفحة الأخيرة، لكنه أيضًا يحتاج مشاركة نقدية واعية من القارئ، وإعمالاً للعقل، ووعيًا عميقًا بخلفيات القضية المطروحة، ودلالاتها الراهنة، حتى يمكنه استخلاص النتائج الحقيقية، وهو، كما يذكر المؤلف، اتخذ «شكلاً روائيًا»، «يتحرك بين الماضى والحاضر»، اى أنه ليس كتابًا فى التاريخ وحسب، وإنما هو درس «معاصر» أيضًا، يلقى بظلاله على المستقبل وتوجهاته، ومن هنا فهو يحاول استجلاء غوامض تاريخ الاستعمار الغربى للعالم الشرقى، الذى يتعرض لعمليات طمس متعمدة، حتى يغيب عن الأنظار بشروره وكوارثه، وحتى تُستبعد من ذاكرة الشعوب دروسه وخبراته، وهو ما يجعلنا ندرك مغزى تساؤلات الكاتب المندهشة حول «فقدان الذاكرة» المقصود، «الذى يُخيِّم على الدور الذى لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية فى خلق العالم الحديث»... «ولماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام، هكذا، من فوق وجه لندن؟!»... ولماذا يتم تدمير تراث هذه الشركة، فى بلاد حريصة على تراثها، مُعتزة بماضيها، وهو أمر مريب بلا ريب، «يثير الشكوك - كما يرى المؤلف - إلى أقصى حد»!

يهتم هذا الكتاب بالتاريخ الدامى لشركة الهند الشرقية البريطانية، باعتبارها النموذج، «The Model»، الأول، أو ما يُطلق عليه المهندسون والفنيون الـ «Blue Print»، أو الطبعة الأولى، للشركات العملاقة العابرة للقارات، التى تلقى بشباكها على الاقتصاد العالمى الراهن، وتملك قدرات هائلة تنتشر على مستوى العالم أجمع، وحجم أعمال بعضها يفوق ميزانيات عشرات من الدول التى يحيا بين ظهرانيها مئات الملايين من البشر!

وهى من جانب آخر تُعتبر «الجد» الحقيقى لهذه الشركات الحديثة، بما قدمته من آليات للعمل، وما استحدثته من نظم للحركة، وأهمها فصل الملكية عن الإدارة، وتداول أسهم الشركة فى البورصة، وإدارة الأعمال على الصعيد العالمى، واستخدام وسائل التنظيم والإدارة والاتصال الجديدة... إلخ.

هذه الشركة كانت الأنموذج
للدور المستقبلى الذى لعبه الرأسمال والتجارة التى
يحلو للغرب أن يسميها الحرة

والأهم من ذلك، أن هذه الشركة كانت الأنموذج للدور المستقبلى الذى لعبه الرأسمال والتجارة التى يحلو للغرب أن يسميها الحرة، وهى فى الواقع تجارة بالإجبار، أو من جانب واحد، فى غزو واستعمار العالم، الشر الذى لازال ممتدًا - حتى الآن - وإن كان بصور أخرى، فهى - كما يذكر المؤلف - مثلت، فى أواخر عهدها، دور «حاملة راية حكم المال، Moneyocracy»، بل والمدهش أيضًا أنها جسدت المساوئ القاتلة، حتى للنظام الرأسمالى نفسه، فالفساد الذى كان مصاحبًا لكل خطواتها، منذ الميلاد وحتى الوفاة،



والمضاربة، والخداع، والتحايل وغيرها من الممارسات، فضلاً عن نزوعها البنيوى للاحتكار والعدوانية، فى مواجهة الخصوم والمجتمعات التى أتت منها، وتلك التى نشطت فيها، أمر نشهد مثيلاً له كل يوم فى بلدان عديدة!

بل إن الهند ذاتها، التى كانت مسرحاً لنشاط هذه الشركة، كانت أيضاً مسرحاً لنشاط «حفيدة» من حفيدات هذه الشركة، فى ثمانينيات القرن المنصرم، وهى شركة «يونيون كاربيد»، التى تسببت فى مقتل ٢٢ ألف مواطن هندى، وهربت بجريمتها البشعة دون عقاب أو تعويض!، وأيضاً فيمكننا - فى عالمنا العربى - أن نشهد البصمات الإجرامية لشركات على هذه الشاكلة، ودور شركة «إنرون»، على سبيل المثال (وبعض مسئوليها كانوا من مخططى عملية تدمير العراق واحتلالها، مثل «ديك تشينى»، نائب الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن)، غير خاف أو مجهول!

ولدت «شركة الهند الشرقية البريطانية» عام ١٦٠٠، واستمرت فى النمو والتوسع والسيطرة حتى عام ١٨٧٤، حينما انتهت من الوجود، أى لما يقرب من قرنين وثلاثة أرباع القرن، بصورة مستمرة بغير انقطاع، وهو امتداد زمنى ضخم مكّنها من امتلاك نفوذ اقتصادى هائل، وتأثير سياسى خطير، حتى إن «ناثانيال سميث»، رئيس الشركة، امتلك القوة لكى يطالب البرلمان البريطانى، عام ١٧٨٤، بتقديم مساعدة مؤقتة، وفورية، للشركة، محذراً من أن التأخر فى إنجاز هذا الأمر، سيتسبب «فى حدوث انهيار مالى آخر فى جميع أوروبا...»!، وهو أمر يذكرنا بما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية، أواخر العام الماضى، ولازالت توابعه تترى أمام ناظرينا الآن، مسببةً أخطر انهيار اقتصادى على المستوى العالمى، فى إشارة عميقة إلى «دورية» الأزمة الرأسمالية، ومخاطر ترك «آليات السوق» وحدها تستأثر باقتصاديات الدول والعالم!.. وما أشبه الليلة بالبارحة، ففقاعة «شركة البحر الجنوبى»، عام ١٧١٣ هى بروفة «الفقاعة العقارية» التى هزت الولايات المتحدة والغرب بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون!

وفى خلال هذا العمر الطويل انبنى «مجد» هذه الشركة النافذة، التى وصفها «جورج كورنوال لويس»، عضو البرلمان البريطانى، باعتبار أنه «لم يوجد، على وجه الأرض، نظام حكم متحضر أكثر فساداً، وأكثر خيانة، وأكثر جشعاً! منها».

فقد لعبت هذه الشركة أدواراً رئيسة فى احتلال الهند، وتدمير الصين، وتخريب ونهب البصرة، وبندر عباس، وأخضعت لهيمنتها مدناً وأصقاعاً عديدة فى اليابان وسنغافورة، وغيرهما من البلدان، «فى عصر كانت الأقاليم تباع فيه وتشترى.. شأنها شأن السلع»!

وقد بدأ نمو الشركة بتواتر سريع، بعد فترة وجيزة من إنشائها، إذ إنه بحلول عام ١٦٢٠ كانت الشركة تدير أسطولاً يحمل عشرة آلاف من الأطنان، يقوم على تشغيله أكثر من ألفين وخمسمائة من البحارة، ويعمل على صيانته خمسمائة من نجارى السفن، قبل أن تعمد الشركة إلى استئجار سفن الشركات المتخصصة الأخرى، وهو ما يدل على الحجم الهائل لأعمالها الذى شهد تقدماً غير مسبوق، وانتشاراً غير ملحوق، حتى من كبريات الشركات المنافسة، وفى مقدمتها الشركات البرتغالية، ثم «شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة»، والشركات الفرنسية الأخرى، والتى أُجبرت على الانسحاب من أمام «المخلوق الأكثر رُعباً من أىّ من الوحوش المفترسة، التى تفزعنا فى معبد «ساليت» بالقرب من مومباى»!، وخلال هذا المسار الممتد، توسعت أعمال الشركة وامتد تأثيرها حتى أصبحت، كما يقول المؤلف «تتفوق، إذا ما قارنّاها بـ«الوحوش المالية» الكبرى، فى عصرنا هذا، تفوق شركة «وول مارت» فى قوتها السوقية، وشركة «إنرون» فى فسادها، وتفوق شركة «يونيون كاربيد» فى تدميرها للبشر»!

وعلى عكس الاستراتيجية التى اتبعها رواد التجارة الآسيوية الأوروبيون الأخرون، مثل البرتغاليين، الذين استخدموا استراتيجية الاعتماد على الدولة بشكل مطلق، والهولنديين الذين بنوا شراكة وثيقة بين القطاع الخاص والدولة، نهضت الاستراتيجية البريطانية على إطلاق يد القطاع الخاص فى الانتفاع بثروات الشرق، والوقوف بقوة خلف هذه الشركات، ومنحها امتيازات «شبه سيادية»، من بينها: حق سكّ العملة الخاصة بها فى فروعها الخارجية، والاضطلاع بالسلطة القضائية فى المستعمرات، وحق تكوين الجيوش المسلّحة، والأهم: حقّها فى شن الحرب(!)، فمنذ البداية، كما يقول الكتاب: «كانت القوات المسلحة عاملاً أساسياً لتمكين الشركة من كسب الأسواق الآسيوية والعمل فيها»!.. فالشركة كانت تؤمن بضرورة أن «تمارس التجارة وسيفك فى يدك»!

ولم تتأخر «شركة الهند الشرقية البريطانية»، أبداً، فى استخدام هذا الحق لاحتلال ما أصبح يُعرف بـ «دُرّة التاج البريطانى»، ومفخرة «الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس»: الهند: التى كانت بمثابة «مصنع العالم»: «فكانت تنتج حوالى ربع الإنتاج الصناعى فى العالم عام ١٧٥٠، فى حين كانت بريطانيا تنتج ١,٩٪ فقط». وإقليم «البنغال» التى ولجت عبره الشركة إلى شبه القارة الهندية، كان «أغنى مقاطعات الإمبراطورية المغولية، حيث وصفها الإمبراطور المغولى «أورانجزب» بأنها «جنة الشعوب»!.. فماذا صارت عليه أحوال هذه «الجنة» بعد أن وقعت فريسة بين أنياب «الشركة»؟!

«ببساطة»، كما يقول المؤلف: كانت الشركة تنظر إلى الهند، وفى القلب منها «البنغال»، على أنها «عزبة ضخمة أو مزرعة كبيرة يجب الخروج بأرباحها (منها)، وإيداعها فى خزائن أوروبا»، وانجلترا فى المقام الأول.. واحتاج تحقيق هذه الغاية تحويل «ثلة التجّار»، الذين يقتصر دورهم، المعتاد، على عمليات التبادل التجارى التقليدية المعروفة، إلى «حكومة عسكرية مخيفة فى الهند»، كما طالب «سير جوزيا تشايلر»، أحد أهم المديرين التنفيذيين للشركة، عام ١٦٨٦، وهو ما دفع «ويليام ميرديث»، السياسى البريطانى البارز فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، للإقرار بأنه: «لم يوجد أبداً مثل هذا النظام الذى يؤمن بمبدأ واحد هو الجشع التجارى، ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة!».

ومن الطبيعى، والحال على هذه الشاكلة، أن يزداد عدد أفراد «جيش الشركة» إلى عشرة أضعاف حجمه تقريباً، فى المدة الواقعة بين عامى ١٧٦٣ و١٨٠٥: (من ١٨ ألف جندى إلى ١٥٤,٥٠٠ جندى)!، وبحيث أصبحت «المغامرة العسكرية هى السبيل الوحيد المفتوح أمام الطموحين لتحقيق الثروة فى الهند»، كما يذكر الكتاب، وبواسطة العمل العسكرى، أسقطت إمارات ونهبت كنوز وسُلبت غنائم لا حد لها ولا عد.. وتحت سنابكها اعتصرت الضرائب من الوطنيين البؤساء واحتُكر إنتاج وتوزيع الأقمشة والملح والتبغ والأخشاب والتوابل والقهوة، واغتُصبت الأراضى، وقامت الشركة، «فعلياً»، بخطف العمال الزراعيين، وحولتهم إلى ما يشبه العبيد. وكان جنود الشركة يخطفون الأطفال من عائلاتهم فى منتصف الليل، ويحشون أفواههم بالقماش لمنعهم من الصراخ، ويزيلون العلامات التى تميز طبقتهم الاجتماعية من على أجسادهم»!.. ودفع هذا الوضع العديد من «الشخصيات المرموقة»، إلى «إنهاء حياتهم طواعية»، حتى لا يعيشوا ويروا عجزهم عن تخفيف الام أطفالهم الذين يموتون»، كما ذكر سكّان «كادا تاناد»، فى مظلمتهم إلى الشركة: فـ«لم يحدث أن عانينا نحن ولا أجدادنا، من تلك المظالم، أو صرنا فى مثل تلك الحالة القاسية من العوز الشديد. ونحن لا نستطيع التحمل أكثر من ذلك»!

لقد ضربت الفاقة والأوبئة والمجاعات الهند، بأكملها، بفعل هذا الاستغلال غير الأدمى للبشر والثروة، وهو أمر لم يستطع الحاكم العام البريطانى، «وليم بينتيك»، أن يتجاهله: «لا يوجد فى تاريخ التجارة بؤس مثل هذا البؤس: إن سهول الهند يغطيها اللون الأبيض لعظام نساجى القطن»!.

«لم يوجد أبداً مثل هذا النظام الذى يؤمن بمبدأ واحد هو الجشع التجارى، ويستخدم وسيلة واحدة للحكم هى القوة!»

برغم بشاعة صور الاستعمار والاستغلال، فإن شعوب آسيا التى كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى، استقلت وتقدمت

بل إنه، وحتى بعد مرور ما يزيد على القرن وثلاثة أرباع القرن على احتلال البنغال، وقهر أهلها واستنزاف مقدراتها، لاحظ الزعيم الهندى «جواهر لال نهرو»، فى كتابه «لمحات من تاريخ العالم»، أن المناطق الهندية التى كانت أكثر خضوعًا للاستنزاف البريطانى، لازالت هى المناطق الأكثر تخلفًا وفقرًا، فى الهند التى كانت تجاهد لنيل الاستقلال، والتى كانت تعيش «تحت سيطرة آلة ضخمة، جشعة، تعصر وتسحق الملايين من الهنود. هذه الآلة هى «الاستعمار الجديد»، الذى ولده رأس المال الصناعى».

ومن هنا، فليس مستغربًا، والحال هكذا، أن يفاخر «روبرت كلايف»، مؤسس جيش الشركة العسكرى، بامتلاكها «أكبر ثروة فى العالم»، التى تقدر بحوالى ٣٨ مليونًا وأربعمائة ألف جنيه استرلينى، ما بين عامى ١٧٥٧ و١٧٨٠، جلها تم جمعه بالقهر من اعتصار الهند والصين وغيرها، وهو الأمر الذى أصبحت معه الشركة مصدرًا لتحقيق «عائدات إضافية لإنجلترا المنخفضة الدخل قبل عصر الثورة الصناعية»، فقد مثلت الشركة «مؤسسة لا يمكن الاستغناء عنها، بسبب القروض التى كانت تمنحها للتاج البريطانى»، وحينما خرجت بريطانيا، وهى على وشك الإفلاس، من حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣)، اعتبر رئيس الوزراء «ويليام بيت الكبير» ضرائب «الديوانى» (المجلوبة بفعل القهر من ولايات الهند إلى إنجلترا)، بمثابة: «هدية إلهية لملء الفجوة المتسعة فى الخزانة العامة»!، بينما اعتبر البعض الآخر أن الذى منح بريطانيا ملك إقليم البنغال، هو «الرب الذى يصرف الأمور»!

وبفعل هذا الاستغلال المكثف انقلبت الأوضاع، فى الهند ومقاطعاتها، رأسًا على عقب: فبعد أن كان الميزان التجارى، مع كل الدول، لصالح البنغال، قبل معركة بلاسى (عام ١٧٥٧)، التى تمكنت فيها قوات الشركة، بقيادة «كلايف»، من هزيمة نواب (حاكم) البنغال، بواسطة القوة والغدر والخيانة، تم نهب خزائن المقاطعة، التى ملأت حمولة أكثر من مائة مركب من الذهب والفضة!!، وهو ما عنى، أن «كلايف» حقق للشركة «بضربة واحدة ربحًا صافيًا يقدر بـ ٢,٥ مليون جنيه، وحقق لنفسه ربحًا يقدر بـ ٢٣٤.٠٠٠ جنيه، وهذا المكسب يساوى اليوم ما قيمته ٢٣٢ مليون جنيه استرلينى من المكسب الذى لا عناء فيه، و٢٢ مليون جنيه أتعابا لكلايف، جاءت بلا كد»!

وراحت الشركة تتحرك فى سعار لاحتلاب الهند بلا هوادة، فضغطت على «الشاه علم»، إمبراطور المغول المفلس، لكى يمنحها حق الديوانى (حق جمع جميع الضرائب من السكان المحليين) فى البنغال، وهو ما عنى حق «السيطرة على جمع الضرائب من أكثر من ١٠ ملايين نسمة»، واتسعت أعمالها القائمة على النهب المنظم والسلب المكثف، وتحالفت مع تقلبات الطبيعة، من الجفاف إلى



الأمطار الغزيرة، فالفيضانات، مخلفة وراءها واقعًا شديد البؤس، وبحيث أصبحت فيه «المجاعة جزءًا أساسيًا للواقع الاجتماعى للهند..» ورغم تكرار وقوع الجماعات على امتداد التاريخ الهندى، إلا أنه، كما يذكر الكتاب، فإن: «معدلات حدوث المجاعات ازداد بشكل كبير تحت حكم الشركة فى البداية، ثم تحت حكم التاج البريطانى، وراح نحو عشرة ملايين نسمة ضحايا لمجاعة عام ١٨٧٧ وحدها(!)، وأحصت الجهات المسئولة «وقوع ٣٤ مجاعة فى الهند، خلال الحكم البريطانى الذى دام لمدة ١٢٠ عامًا، مقارنة بسبع عشرة مجاعة فقط على امتداد الألفيتين اللتين سبقتا الحكم البريطانى»!

وفى إحدى هذه المجاعات أكل الأحياء جثث الموتى(!)، وملأت الجثث المنتفخة نهر «هوجلى».. ولم يشفع هذا الوضع الشنيع للباقين من الأحياء البائسين فى إعفائهم من إرهاب الشركة وجيشها لدفع الضرائب المستحقة قهرًا(!)، واستغلت الشركة ورجالها المحنة فراحوا يتاجرون فى الحبوب التى احتكروها ويرفعون أسعارها، وحينما عرض البعض هذه الاتهامات على مجلس الشركة.. «كان رد الفعل هو.. القهقهات العالية»!

لقد وقعت عائلات بأكملها فريسة، كما يقول «كريم على»، مؤلف كتاب «مظفر نامة»، تحت «براثن من لا يرحمون»!

وكان من الطبيعى والوضع هكذا، ألا تبقى هذه الفترة من حياة الهند، «مجرد تاريخ قديم»، كما يذكر «جواهر لال نهرو»، فى المرجع المشار إليه، بل على العكس، فلقد ظلت «الأساس الذى بنيت عليه الهند الحديثة التى نعرفها اليوم. فإذا أردنا معرفة الهند اليوم، فعلينا أن نعرف العوامل التى صنعت الهند، فى إعمارها أو دمارها.. وهذه هى الطريقة السليمة التى تمكننا من خدمة الهند ومعرفة السبيل الذى نسير عليه لخدمتها».

ولم يقف الدمار الذى أشاعته «شركة الهند الشرقية البريطانية» فى محيط سيطرتها الحيوى، مقصورا على الهند وحدها، بل امتد أثره إلى العملاق الأسيوى الثانى، الصين!

فضلاً عن تجارة الشاى الذى احتكرت الشركة تصديره من البنغال إلى «كانتون» بالصين، والذى كان يبلغ ملايين الأرطال سنويًا، صدرت الشركة إلى الصين الفضة، قبل أن تنهار كافة السدود أمام زحف «طوفان» أفيون «باتنا - Patan»، والذى كان يتم تهريبه فى صناديق تحمل «بفخر»! العلامة المميزة للشركة، كما يقول مؤلف الكتاب!:

واستخدمت الشركة، فى سبيل إنتاج الكميات الهائلة المطلوبة من الأفيون: كما يذكر «تشاندرا براكاش سينها»: «كل أنواع الإكراه والقهر لإجبار الفلاحين على زراعة الأفيون رغم أنفهم»!.. وقطعت مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة بالذرة، بالقوة، لكى يتم زراعتها بالأفيون المطلوب تهريبه إلى الصين!، رغم عدم قانونية تهريب الأفيون إلى الصين، لم يجد أحد كبار موظفى الشركة غضاضة فى أن يعلن: «نحن لا نتردد فى الإعلان صراحة أن تجارتنا تعتمد، فى المقام الأول على الأفيون»، الأمر الذى أدى إلى تمريغ الصين فى «الوحل الأجنبى»، والذى زاد زيادة مستمرة خلال عشرينيات القرن التاسع عشر.. ومثل الدخل العائد لهذه التجارة المميتة، بالنسبة للحكومة البريطانية، «الوسيلة الوحيدة لتوفير الأموال اللازمة لواردات الشاى، الذى كانت البلاد تحبه حبًا شديدًا(!)، والتى كانت بدورها تمثل شريحة كبيرة من القاعدة الضريبية لخزينة الدولة عن طريق الرسوم الجمركية على الواردات»!

ولم يتحرج دعاة «التنوير» و«الديمقراطية» المزعومون، وعلى رأسهم «بنيامين دزرائيلى»، (١٨٠٤ - ١٨٨١)، رئيس الوزراء البريطانى، من حث الحكومة البريطانية على استخدام القوة لإجبار الصين - كما يذكر المؤلف - على قبول هذا «المنطق المستنير» الخاص بالتجارة الحرة فى جميع البضائع، وحتى فى الأفيون(!).. واقتضى الأمر إشعال حربين، حتى يتسنى فتح موانئ الصين بالقوة، واستيلاء بريطانيا على «هونج كونج»، و«تشريع» تجارة الأفيون(!).

أما فى الصين: فقد صار وباء إدمان الأفيون يتفاقم، ولقى الملايين من الصينيين حتفهم فى القرن التاسع عشر نتيجة للأفيون..» وهى جريمة «لا يعترف أحد - حتى يومنا هذا - بأنها كانت من صنع البشر»!!.. واحتاج الأمر اتخاذ إجراءات عديدة حازمة، بعد انتصار الثورة الوطنية التى قادها الزعيم الصينى ماوتسى تونج، عام ١٩٤٩، حتى يمكن السيطرة على هذا الوباء، ووضع علاج صارم لمواجهته.

ما هى المحصلة العامة، إذن، المترتبة على رحلة «شركة الهند الشرقية البريطانية»، أو «مغامرتها» الأسيوية، التى استمرت ما بين عامى ١٦٠٠، (عام تأسيسها)، وعام ١٨٧٤، (عام تصفيتها)؟!

المحصلة المؤكدة، على المستوى الاقتصادى: «غيرت



مجرى التاريخ الاقتصادى، وعكست اتجاه تدفق الثروات من الغرب إلى الشرق، الذى استمر لقرون»، «بعد أن كانت أوربا تقوم بشحن الذهب والفضة إلى آسيا، مقابل التوابل والمنسوجات وغيرها من السلع الكمالية.

لقد انجذب التجار الأوروبيون، كما يشرح الكتاب، إلى الشرق «بسبب ثرائه وتقدمه، فى وقت كان فيه حجم الاقتصاد الغربى صغيراً جداً مقارنة بالاقتصاد الأسيوى».

وعندما زالت الشركة، كان الاقتصاد الأوروبى قد زاد حجمه ليصبح ضعف اقتصاد الصين والهند(!).. وهو عكس الوضع الذى كان سائداً فى عام ١٦٠٠!!

ومن المؤكد، يقول المؤلف: إن «شركة الهند الشرقية البريطانية»، هى أحد العوامل الرئيسية التى تسببت فى ذلك التحول الكبير فى التطور العالمى الذى كان يمثل بداية مولد العصر الحديث».

كانت القوة الغاشمة هى وسيلة «الشركة» لاغتصاب كلٍ من الهند والصين، مع تدمير صحة الشعب الصينى بالأفيون، وفرض أولياتها ـ بالقهر ـ على المجتمعين الشرقيين، اللذين كانا من الممكن أن يكتشفا طريقهما الخاص للتقدم، وهو ما حدث فيما بعده. فلو بقيت بريطانيا والغرب بعيداً عن الهند، كما عبر الزعيم «جواهر لال نهرو»، لكان من الممكن أن تقوم فيها صناعة آلية بفضل التطور الطبيعى. ولازالت القوة الغاشمة، كذلك، هى وسيلة «الشركات» الاحتكارية المعاصرة، لاغتصاب ثروات العالم، وتدمير صحة مواطنيه، ويكفى ـ فى هذا السياق ـ أن نقرأ، بعد نحو أربعة قرون من الوقائع الدامية، التى شرحها بالتفصيل هذا الكتاب، مقولة الصحفى والكاتب الأمريكى، «توماس فريدمان»، نصير «العولمة» المتحمس: «إن اليد الخفية للسوق لن تعمل أبداً بدون قبضة خفية!.. ولا يمكن أن يتحقق الازدهار لـ «ماكدونالدز» دون وجود «ماكدونال دوجلاس»، التى قامت بتصميم طائرات «إف ـ ١٥» العسكرية!

مرة أخرى: «التجارة باستخدام القوة الباطشة»!، هى القانون الناظم لحركة رأس المال الجشع، المتلمظ، فى عصر «العولمة» و«النيو ليبرالية»، لمزيد من الدم والأرباح والهيمنة والقهر!

وما لم تتحرر البشرية من هذا النظام الاجتماعى ـ السياسى ـ الاقتصادى ـ الثقافى الظالم، ستظل «عولمة» الرئيس الأمريكى، القاطن فى البيت الأبيض، التى يقايض فيها على مستقبل البشر بسندويتشات «الماكدونالدز»، هى الوجه «الحداثى» لعولمة القرون المنصرمة، «عولمة شركة الهند الشرقية البريطانية»، على طراز الملك «جورج»، التى كان فيها، «كجزء من تجارة العبيد الأفريقية، سريعة النمو، تتم مقايضة الأقطان الهندية، كبضاعة حيوية، بالحمولات البشرية من أولئك العبيد»!

بقى أن نشير إلى مجموعة من الملاحظات الأخيرة.

الأولى: أنه برغم بشاعة صور الاستعمار والاستغلال، التى أشرنا إلى جوانب منها، والكتاب عامر بتفاصيل ضافية عنها، فإن شعوب آسيا التى كانت واقعة تحت نير الاحتلال البريطانى، وغيرها من أنواع الاحتلالات، استقلت وتقدمت، وأصبحت عنواناً على الرقى الاقتصادى والنهضة العلمية، والفيصل فى تحقيق هذه الغاية هو توفر الإرادة الوطنية، ووحدة العمل الوطنى والإصرار على انتزاع الحقوق، وطرد المحتل، وبناء الأوطان، وإيجاد موقع قدم وسط صراعات الكون الدامية، التى لا تعترف إلاّ بالأكفاء الأقوياء.

والثانية: آثرت هذه أن تركز قراءتها لمتن الكتاب على ما يفيد شعوبنا وأوطاننا، وهى تجابه العدوان تلو العدوان، وآخرها العدو الصهيونى الإجرامى على شعبنا فى فلسطين وأشقائنا فى غزة، محاولة استخلاص الدروس واستخراج الخبرات، أملاً فى أن نستفيد بها فى مواجهة ظروف شبيهة، مرت بها شعوب أخرى، عانت ما نعانيه من ويلات، لكنها انتصرت انتصارات باهرة، بينما تتعثر خطواتنا المرة تلو الأخرى!

غير أن الكتاب ـ إضافة لما تقدم، يتضمن شرحاً عميقاً للتاريخ التفصيلى للشركة، ولآليات تطورها الداخلى، ولعناصر ومراحل نموها، ولطبيعة الصراعات التى اعتملت داخلها، وكذلك لنظم عملها وإدارتها، وهو شرح غنى بمادة قيمة يمكن للمتخصصين، أو المهتمين، بهذا الفرع من المعرفة، أن يفيدوا أيما إفادة من مطالعتها، وتتبع تفاصيلها ودقائقها. ■

السماسرة..

كان عام ٢٠٠٠ هو العيد الأربعمائة لتأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وكان هو أيضًا العام الذى جئت فيه للعمل فى مدينة لندن، حيث ظل المقر الرئيسى قائمًا لمدة ٢٧٥ عامًا هى عمر الشركة. ومن حين لآخر تشكل مدينة لندن أحد المحاور الرئيسية للأعمال المالية والدولية، ومع دخول الألفية الجديدة، كان نشاط السوق مازال باديًا، على الرغم من بلوغ فقاعة «الدوت. كوم» ذروتها فى آخر يوم من عام ١٩٩٩. لقد كنت داخلاً، آنذاك، إلى عالم الاستثمار الاجتماعى عندما بدأت هذه الموجة من المضاربات فى التفجر كاشفةً عن سوء تصرف على نطاق لم يُرَ مثله منذ عام ١٩٢٩ (وهو العام الذى شهد بداية الكساد الكبير فى القرن الماضى ـ «المترجم»). وبمجرد أن بدأ تدهور قيم الأسهم، استمر فى ذلك الاتجاه حتى هبطت أسعار الأسهم إلى نصف قيمتها فى ثلاث سنوات. وفى كل لحظة كانت علامات تدهور على المستويات التجارية. وعبر العالم كله، تم إجراء الأبحاث لاكتشاف ما إذا كان هذا الانهيار مجرد قلة من «التفاحات المعطبة» فى شركات إنرون، وورلدكوم، وتايكو هى التى يمكن إلقاء اللائمة عليها، أم أن صندوق رأسمالية المؤسسات ذاته هو المعيب؟!

ورغبة فى الارتياح من شاشات حاسبات التجارة ذات الألوان الحمراء التى كانت تعبر عن الانهيار المستمر للسوق، فقد قمت باستطلاع الشوارع التاريخية فى ميدان مايل، عبر البورصة المالية وبنك إنجلترا، وجنوبًا فى حارة المبادلات، حيث كان سماسرة الأوراق المالية يتجمعون أول الأمر فى المقاهى ليتبادلوا الشائعات ويتاجروا فى الأسهم. وفى أحد الأيام، مشيت نحو الشرق أبعد من كل مرة قاصداً شارع ليدنهول بهدف زيارة المقر الرئيس لشركة الهند الشرقية، قبل أن أرجع للعمل بعد ذلك. وعندما وصلت إلى الركن الواقع بين شارعى ليدنهول ولايم ستريت، حيث بقى مقر الهند الشرقية لأكثر من مائتى عام، لم يكن هناك أى شىء ـ لا علامة ولا شارة ولا أى شىء ـ يخبرنا بحقيقة أن هذا المكان كان الموضع الذى كانت تقبع فيه أقوى الشركات المساهمة الكبرى فى العالم فى يوم من الأيام. ولقد حيرنى هذا الغياب، خاصة فى بلد تشربت ثقافة التراث: لماذا تم محو تلك الشركة التاريخية على نحو تام هكذا من فوق وجه لندن؟

هذا الكتاب هو محاولة للإجابة على هذا السؤال، والأهم أنه محاولة لإعادة فحص معنى الإرث الذى تركته الشركة للاقتصاد العالمى فى القرن الحادى والعشرين. وبالتنقيب عن أصول هذه الشركة منذ عصر التنوير، أصبح من الواضح أنها لم تكن مجرد شىء من الماضى، بل مؤسسة ذات ممارسة مألوفة على نحو مدهش، فلقد كانت الشركة رائدة نموذج حاملى الأسهم فى الشركات المساهمة، وهى التى بنت أسس إدارة الأعمال الحديثة. وفى مسعى أنانى للكسب الشخصى والجمعى، حققت الشركة ومديروها التنفيذيون فى النهاية السيطرة على السوق فى آسيا، وحكمت عصابات كبرى فى الهند بحثًا عن الربح. ولكن الشركة صدمت عصرها أيضًا بمدى الفساد الذى بلغه مديروها التنفيذيون، والإفراط فى سوق الأوراق المالية، وقمع البشر. وحسبما أرى، فإن الشركة تتفوق إذا ما قارناها بالوحوش المالية الكبرى فى عصرنا هذا، حيث تفوق شركة وولمارت فى قوتها فى السوق، وتفوق شركة إنرون فى الفساد، وتفوق شركة يونيون كاربيد فى تدمير البشر.

ثمة كتب لا حصر لها تسرد تاريخ شركة الهند الشرقية، إلا أن أيًا منها لا يبحث فى سجلها الاجتماعى كشركة مساهمة كبرى. وهذه فجوة ينشد كتابنا هذا سدها، مستعيداً فى سياق ذلك فحوى الصراعات الشرسة حول المسئولية المشتركة التى أثارتها الشركة فى القرن الثامن عشر. الأهم من هذا هو أن الكتاب ليس ممارسة لتطبيق قيم القرن الحادى والعشرين على عصر سابق عليه، فلقد بحثت العقليات المستنيرة البارزة فى عصرها ممارسات تلك الشركة ووجدتها غير لائقة. إذ تجد أن آدم سميث، وإدموند بيرك، وكارل ماركس قد اتحدوا جميعًا فى نقدهم ـ لأسباب مختلفة ـ لهذه الشركة المسيطرة القاهرة. ومن يمين الطيف السياسى إلى يساره، نجد أن أولئك الذين عاشوا فى عصر الشركة كانوا ينظرون إليها على أنها مؤسسة مُشكلة فى جوهرها: فبالنسبة لسميث كانت الشركة واحدة من أكبر أعداء السوق (الاقتصاد) الحر، فى حين كان بيرك يرى أنها تمثل تهديدًا ثوريًا للنظام القائم الثابت فى بريطانيا والهند. ولقد أظهرت الشركة أيضًا سقطات أخلاقية ذات

«لا يوجد فى تاريخ التجارة بؤس مثل هذا البؤس؛ إن سهول الهند يغطيها اللون الأبيض لعظام نسّاجى القطن»!

والســـــــاســـــــة

طبيعة جذرية، إذ قال بيرك للبرلمان: إن «كل روبية من الربح صنعها رجل إنجليزى قد ضاعت للأبد فى الهند». وبالنسبة لماركس، الذى كان يكتب بعد ٧٠ عامًا من خطاب بيرك أمام البرلمان، فقد كانت الشركة فى أواخر عهدها، حاملة راية «حكم المال ـ Moneyocracy» فى بريطانيا، وكانت مخلوقًا أكثر رعبًا من أى من الوحوش المقدسة التى تفزعنا فى معبد سالسيت بالقرب من بومباى. إلا أن ما يجعل قصة الشركة ملهمة على هذا النحو هى الطريقة التى كان يقابل بها شخصيات مثل هؤلاء طلبها المتكرر للحصول على سلطة اقتصادية غير محدودة وكفاحهم لجعلها خاضعة للمحاسبة. ونتيجة لذلك فإن الشركة توفر دروسًا خالدة فى كيفية مواجهة (وعدم مواجهة) إفراط المؤسسات الكبرى من خلال الإصلاح، والاحتجاج، ورفع الدعاوى القضائية، وإصدار القوانين المنظمة، وفى النهاية من خلال إعادة تصميم المؤسسة.

ولكى أستعيد فحوى الوجود المادى للشركة، قررت أن أجرى البحث خارج الدوائر العلمية والثقافية، ورؤية مناطق الشركة الأساسية فى بريطانيا والهند. وكنت آمل بزيارة مقرها الرئيسى ومخازنها ومنازلها وأرصفتها أن أصل إلى فهم أكثر اكتمالاً لشخصية الشركة. يتخذ الكتاب شكلاً روائيًا ولكن يتحرك بين الماضى والحاضر. ولكى أساعد القارئ، قدمت فى أول الكتاب تسلسلاً زمنيًا لأهم الأحداث فى تاريخ الشركة. وبعد ذلك يتعمق الفصل الأول فى إرثها المطعون فيه، ويستكشف الطرق المختلفة التى يتذكر الناس بها الشركة فى أوروبا وآسيا. ويتبع ذلك تحليل فى الفصل الثانى لكيفية عمل الشركة وإدارتها، بالإضافة إلى الصراعات المتأصلة بداخلها والتى أدت فى النهاية إلى انهيارها.

ويعالج الفصل الثالث عملها باعتبارها «تاجر توابل» من القرن السابع عشر، إلى جانب مناقشة العواقب الكارثية لطلبها الأول للحصول على السيادة على السوق فى تسعينيات القرن السابع عشر. ونجاحها فى النهاية فى هندسة الاستيلاء على البنغال فى منتصف القرن الثامن عشر. ويناقش الفصل الرابع أسباب ونتائج هذا الحدث الجلل.

ولكن مثل الكثير جدًا من الشركات العظمى فى تسعينيات القرن العشرين تخطت الشركة إمكانياتها، ويوضح الفصل الخامس كيف اتحد الإهمال مع عدم الكفاءة لإحداث انهيار فى سوق المال، ولإحداث واحدة من أسوأ المجاعات التى ضربت الهند. ولقد خشى الكثيرون فى بريطانيا أن تستخدم الشركة ثروتها حديثة العهد فى إنهاء الحريات التى نالتها إنجلترا بشق الأنفس. يعرض الفصل السادس نقد آدم سميث اللاذع للشركة العظمى، ويضعه فى سياق حركة أوسع من الاحتجاج الشعبى، والنشاط البرلمانى ضدها، وثورة آنية صريحة كان هدفها هو إنهاء انتهاكات الشركة فى سبعينيات القرن الثامن عشر. ولكن العدالة لم تكن قد أخذت مجراها بعد، لذا يبحث الفصل السابع كيف حاول إدموند بيرك أن يضع المسئولية فى قلب مرسوم تأسيس الشركة. إلا أن أوامر الإمبراطورية وليست أوامر الأخلاق هى التى كسبت تلك الجولة. يستكشف الفصل الثامن كيف نجحت الدولة البريطانية فى تحويل الشركة لتتخلى ـ على نحو متزايد ـ عن وظائفها التجارية، وتصبح وكيل مصالح التاج البريطانى فى الهند. وقد مثلت الثورة فى الهند عام ١٨٥٧ نهاية وضع الشركة المفارق تاريخيًا، ووضعتها فى منطقة حمرة الغروب قبل أن تغرب تمامًا فى يونية من عام ١٨٧٤ . وأخيراً ينظر الفصل الثامن فى كيفية تحقيق مواجهة أكثر أمانة لتراث الشركة، وما هى الدروس التى يمكن استخلاصها من المواجهة مع المؤسسات الكبرى فى العالم المعاصر.

هناك فقدان ذاكرة جزئى غريب يخيم على الدور الذى لعبته شركات كبرى مثل شركة الهند الشرقية فى خلق العالم الحديث. وأملى أن ينجح هذا الكتاب بطريقة ما فى كشف كيف أثرت شركة واحدة فقط فى تشكيل الماضى العالمى، وكيف يمكننا أن نستخدم هذه المعرفة فى جعل قطاع المؤسسات المساهمة الكبرى فى عصرنا خاضعا للمساءلة فى الحاضر.

ولكى أعطى شئون الشركة أهمية أكبر، قمت بتحويل بعض من الإحصاءات المالية الأساسية إلى القيم الحالية. ولهذا الغرض استخدمت الخدمة الفورية على الإنترنت والتى توفرها جمعية «موارد التاريخ الاقتصادى» على شبكة الإنترنت فى موقعها (www.eh.net)

نـك روبينــز

كتـــاب الـزاويــة

شعراء الصوفية المجهولون (١)

سمنون المحب

(المتوفى ٢٩٧ هجرية)

أفـديـكَ بـل قَـلَّ أن يـفـديـكَ ذو دنـف
هـل فـى المذلَّـة لـلـمشْتـاقِ مـن عـارِ
بِى منـك شـوقٌ لو أنَّ الصخـرَ يحـملُـهُ
تفطَّـر الـصخـرُ عـن مُـسْتَوْقَـدِ النـارِ
قـد دبَّ حبُّك فـى الأعضاءِ من جسدى
دبيـبَ لـفـظـى مـن رُوحـى وإضْـمـارى
ولا تـنـفَّـسـتُ إلا كـنـتَ مـع نـفـسـى
وكـل جـارحـةٍ مـن خـاطـرى جـارى

(البسيط)

وكـان قـلـبـى خـالـيًـا قـبـل حُـبِّـكُـمُ
وكـان بـذكـرِ الخـلـقِ يـلـهـو ويـمـزَحُ
فـلـمـا دعـا قـلـبـى هـواك أجـابَـه
فـلـسـتُ أراه عـن فـنـائِـك يـبـرحُ
رُمـيـتُ بـبـيـنٍ مـنـك إن كـنـتُ كـاذبًـا
إذا كـنـتُ فـى الـدنـيـا بـغـيـرِك أفـرحُ
وإن كـان شـىءٌ فـى الـبـلاد بـأسـرِهـا
إذا غـبـتَ عـن عينى بـعـيـنـى يـلـمـحُ
فإن شئتَ واصلْنى وإن شئتَ لا تصلْ
فـلـسـتُ أرى قـلـبـى لـغـيـرِك يـصـلـح

(الطويل)

حلمى التونى.. مع
"نفرتارى وأخواتها"

■■ فى حياتى ورحلتى الفنية، مع فن اللوحة، محطات أساسية، أو وقفات تليها مراحل. أهمها وأولها، مرحلة استلهام الفن الشعبى المصرى والعربى.. من رسوم الحوائط فى المناسبات السعيدة، والرسم تحت الزجاج فى اللوحات الصغيرة التى كانت تزين بيوت المصريين البسطاء (ولعلها كانت أول تعامل للمصريين مع اللوحة المعلقة على الجدران).. وأيضا وبشكل أساسى، استلهام نقوش و«رموز الوشم الشعبية».

تلى تلك المرحلة محطة معرض «وجوه جميلة من زمن جميل».. وكان المعرض رسالة فنية، أو خطابا يحاول الدفاع عن ماض جميل، تعرض للسب والقذف والإدانة، بل وتم تحميله مسئولية كل السلبيات التى نعانى منها..!

بعد ذلك توقفت عند محطة أخرى ظهرت فى معرض «تحية إلى الفن القبطى»، وجاءت بعد أن لاحظت وتنبهت، إلى غياب المكون الفنى القبطى، الذى كان ثمرة فترة من تاريخ مصر امتدت إلى أكثر من سبعمائة عام، ولا نكاد نلحظ لها أى نصيب فى التكوين الفنى الوجدانى الثقافى المصرى العام وإبداعاته فى مختلف الفنون.

واليوم نقف معا أمام مرحلة جديدة، فكما غاب «المكون القبطى» الفنى المصرى عن سبيكة الإبداع المعاصر، فقد اختفى المكون والعنصر «المصرى القديم» الذى يسميه البعض، خطأ، «العنصر الفرعونى».

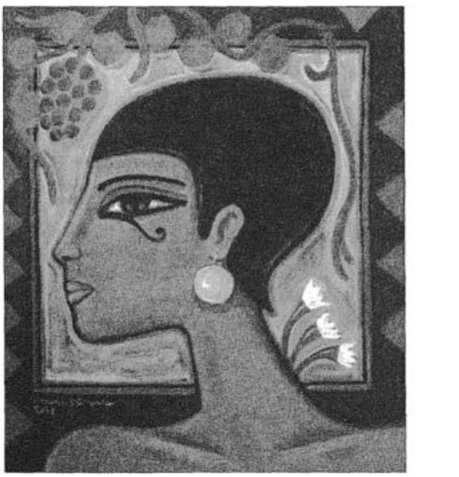
كيف غاب واختفى هذا «الأثر»، فى حين تستطيع العين المدربة فنيا أن تلحظ وتستشعر المكون القديم (الأصلى) فى الأعمال الفنية «الحديثة» لمختلف الشعوب.. فنحن نشعر بروح ونسيم الفن الإغريقى والرومانى فى الإبداعات الفنية للغرب، سواء كانت هذه الإبداعات عمارة، أو لوحة، وكذلك الحال فى إبداعات دول أمريكا اللاتينية (ما قبل كولمبوس).

سنلاحظ فى كل هذه المحطات قصدا واهتماما وانشغالا واحدا.. وهو الانشغال والاهتمام بمحاولة اكتشاف «النفس الحضارية»، إذا جاز التعبير، والتى هى صفة وحق أصيل لكل الشعوب والأمم.. ونحن من بينها.. ولكن لا بد هنا من تحذير واجب... فكل هذا لا يعنى الانكفاء على النفس أو إلى الوراء بالمعنى السلفى الذى يسعى إليه البعض.. لكنه يعنى، ببساطة، محاولة لاستكشاف المستقبل، المستقبل الثابت القوى، الواقف على قاعدة من حضارة و«روح» وإنجاز أجيال وأزمنة تمتد إلى آلاف السنين، حيث إن انكار تلك الروح الخاصة، وفى بعض الأحيان وعند بعض الناس، «ازدراءها»، هو جريمة فى حق النفس والأوطان... بل فى حق الإنسانية جمعاء.

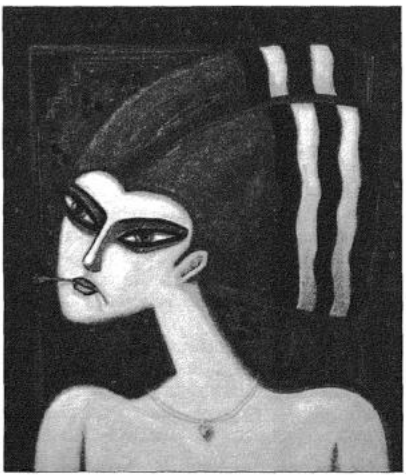
حلمى التونى

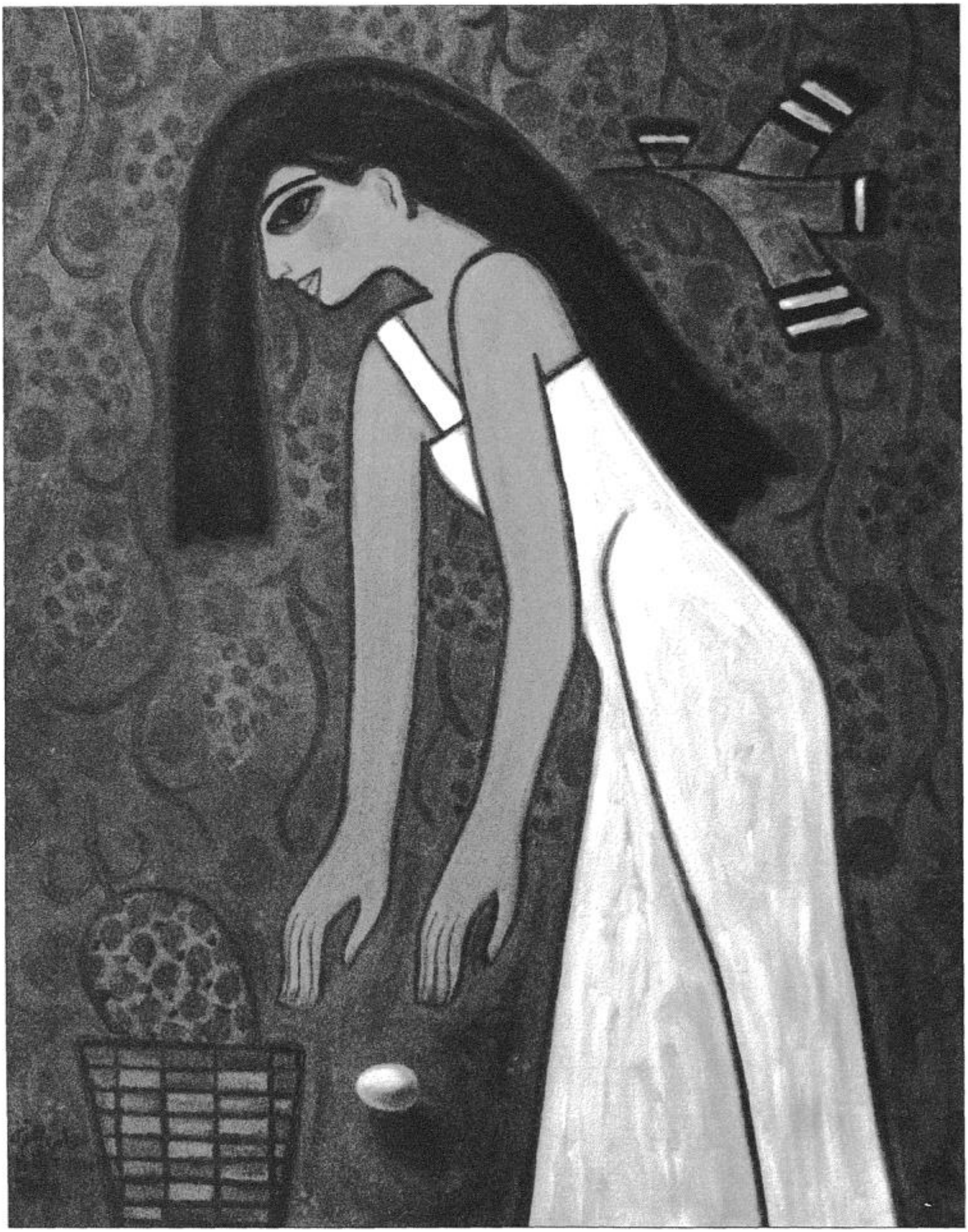
«نفرتارى وأخواتها» ٢٠٠٩
لوحات زيتية
قاعدة إكسترا - الزمالك
من ٣١ مارس إلى ١٨ أبريل ٢٠٠٩

ذات الحلق الذهبى



آكلة الأزهار

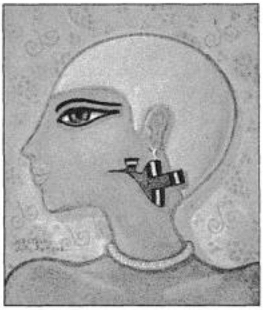




«اللقيـــة»
زيت على قماش 2008 مقاس 100 X 80 سم



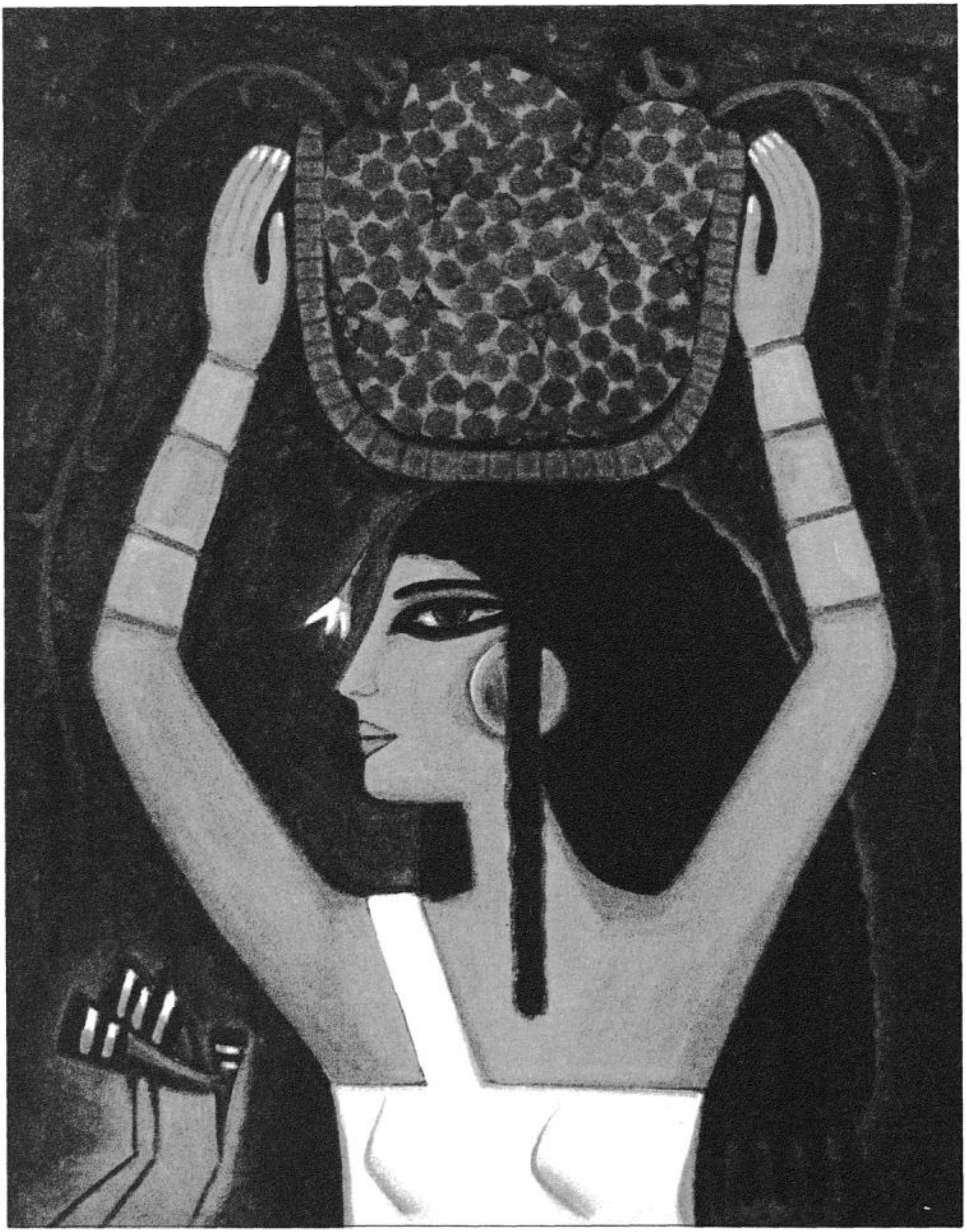
«ذات الضفائر»
زيت على قماش مقاس 70 60X سم



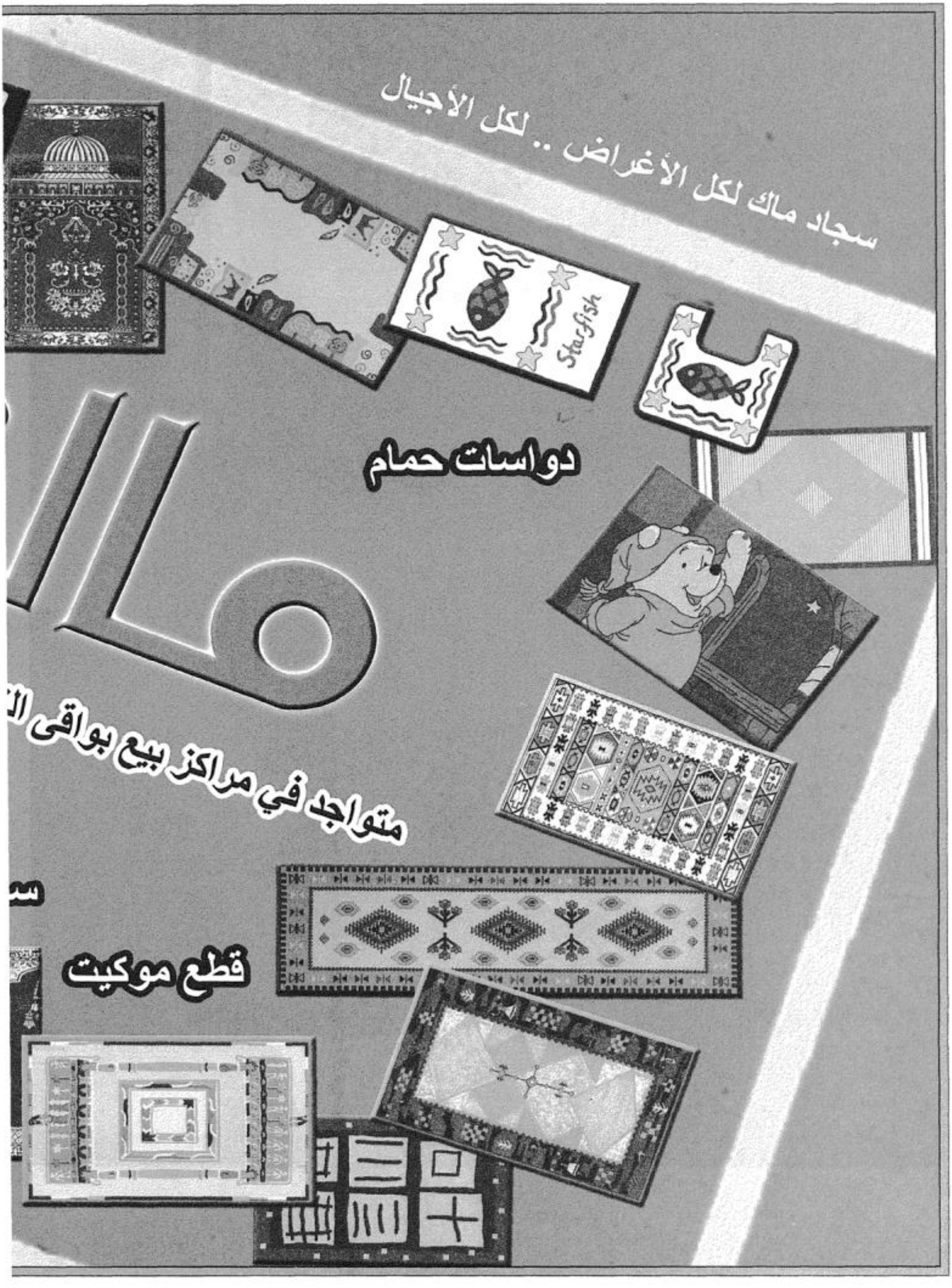
«حلق الهدهد»
زيت على قماش مقاس 70 60X سم



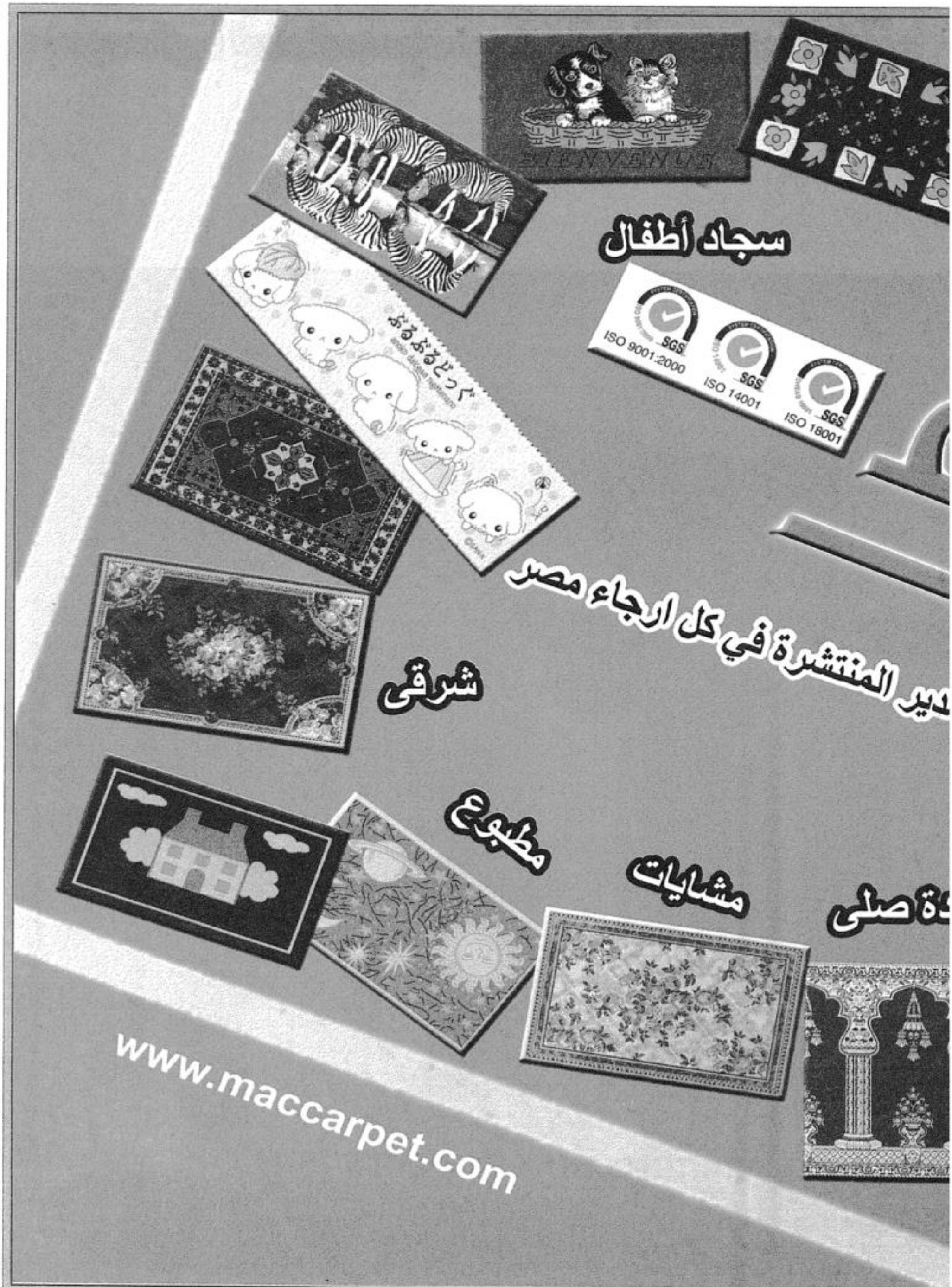
«الشـــقيقتان»
زيت على قماش 2009 مقاس 70 X 85 سم



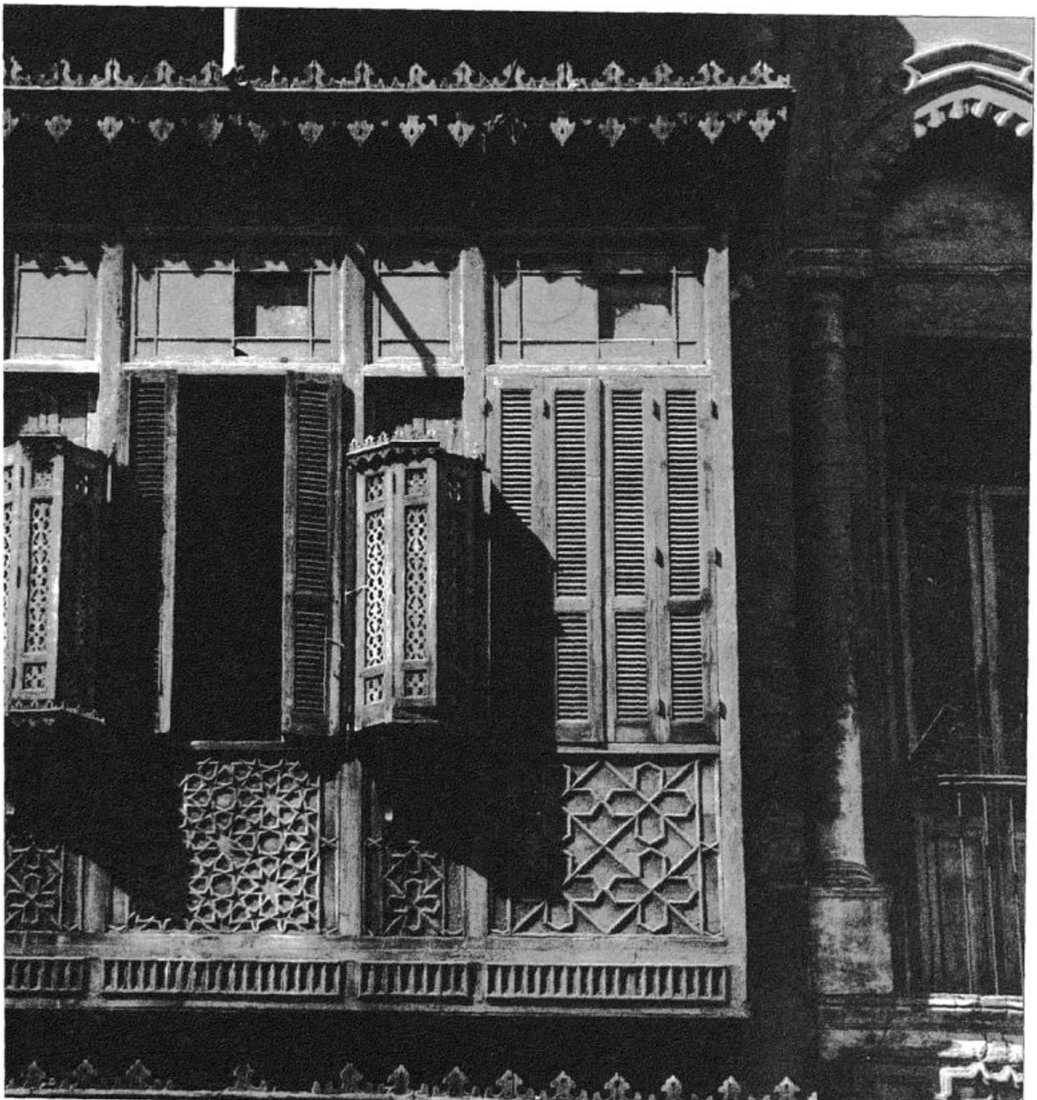
«حاملة العنب»
زيت على قماش 2009 مقاس 100 X 80 سم



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت

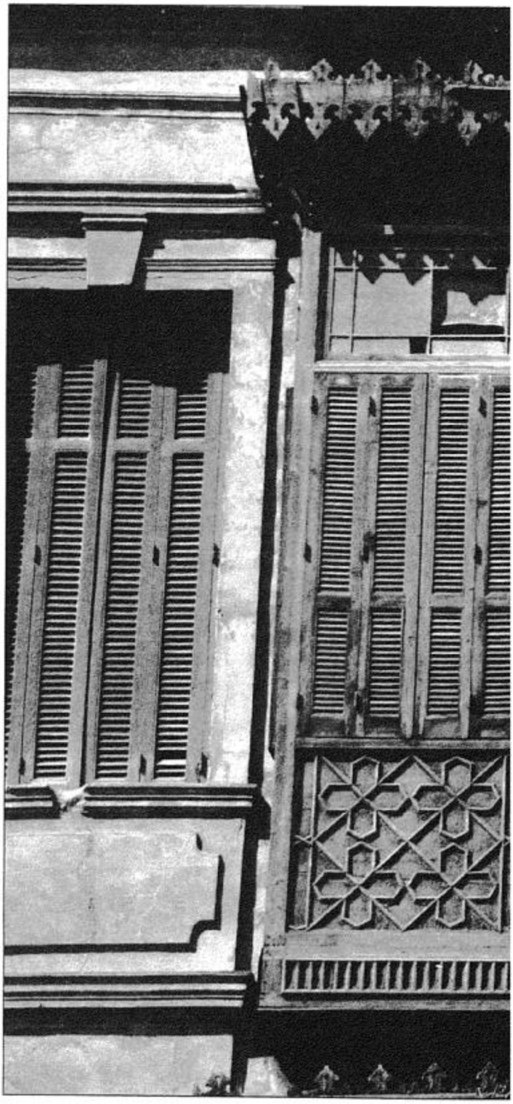

BIENVENUS
سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com

"بيتى قلعتى" .. هؤلاء



المدافعون عن منازلهم

ناصر الرباط



كل دارس للعمارة لابد أن يذهل من ثراء القاهرة بالنماذج المعمارية الفذة التى تعود إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، عصر الحداثة والتغريب والانفتاح على الأسواق العالمية والتجارب الاجتماعية والاقتصادية المختلفة التى بدأ المنظرون الطوباويون التقليديون فى الأونة الأخيرة بالنظر إليها أنها غريبة وغربية ومغربة، وبالتالى لاعلاقة لها بتاريخ البلاد الوطنى أو تراثها الإسلامى من وجهة نظرهم. وكل زائر للقاهرة لابد أن يصدم مما آلت إليه معظم هذه المبانى السامقة والبديعة معمارياً فى بداية القرن الواحد والعشرين ، عصر ما بعد الحداثة، عصر رأس المال الدولى والاستثمارات متعددة المصدر ومتعددة المنفذ، والمواصلات الآنية والالكترونية صوتاً وصورة وفعلاً من جهة، وعصر الضياع الفكرى والثقافى والتكدس السكانى الهائل ونمو الحركات الانعزالية المتشددة وضعف البنى التحتية وانخفاض مستويات المعيشة والخدمات انخفاضاً حاداً من جهة أخرى . فهذه النماذج المعمارية التى تنتمى بغالبيتها لطرز «الفن الجديد» والطراز الإسلامى الجديد والأرت ديكو وبعض الباروك والكلاسيكى، تعانى أكثر من غيرها من المبانى التاريخية فى القاهرة التى دخلت رسمياً ضمن «التراث» أى تلك التى مضى على إنشائها أكثر من قرن ـ ذلك الرقم الاعتباطى الذى لايعنى شيئاً بالنسبة لأهمية العمارة ـ والتى أصبح لها بالتالى بعض أمل من عناية وترميم واستثمار. فعمارات القرنين التاسع عشر والعشرين بحكم عمرها وموقعها وطرزها ووظائفها وأهواء أصحابها وملاكها وقيمتها العقارية والاقتصادية مازالت ضمن سوق العقارات تخضع لمتطلباته ومضارباته وتدفع ثمناً لذلك من شكلها أو وظيفتها أو أحياناً وجودها كله. ومع أن هذه الإشكالية ظهرت إلى السطح مع تغير التركيب المجتمعى والهيكل الاقتصادى والتوجه السياسى للبلاد إثر ثورة يوليو ، فهى مازالت موضوعاً ساخناً وورشة مفتوحة وميداناً للجدال والصراع والتنافس من دون أى باقة من الحلول الواضحة والمؤثرة التى تحفظ لهذه المبانى وقارها الشكلى وشخصيتها المعمارية وللمدينة تكاملها العمرانى وتركيبها الاقتصادى والاجتماعى.

فالمدينة ككل ـ بما فيها مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سيتى والمنيرة والزمالك التى نشأت وتطورت فى فترات متقاربة وفق مخططات مثالية أو نفعية مختلفة ـ مازالت من دون أى مخطط عام أو حتى تصور مبدئى ينظم عمليات الترميم وإعادة التأهيل أو الإسكان والإشغال والإزالة العديدة التى تجرى فيها . والمبانى القديمة نسبياً فيها (أى مبانى القرنين التاسع عشر وبداية العصرين والتى لم تبن أصلاً استجابة للذوق السائد حالياً ولا لمعطيات سوق الاستهلاك السريع) مازالت تعانى من تضارب القيم الاجتماعية والثقافية التى تحكم استخدامها والضغوط العقارية والمالية والقانونية التى تتجاذبها والانفجار السكانى الحاد الذى يخنقها وازدياد حدة المشاكل الاقتصادية التى تهدد كل البنى المعمارية والتحتية، والتى تطال المجتمع والأفراد وتدفعهم إلى مزيد من الاستغلال العشوائى للمدينة ولمبانيها. ليس هذا الخوف مبالغا فيه، فالكثير الكثير من هذه المبانى المهمة تاريخياً ومعمارياً إما مهجور أو مساء استعماله إلى درجة تشويهه إما عمداً أو مع النوايا الحسنة التى تروم انقاذه أو استغلاله أو تحويله بما يتلاءم ومتطلبات الحاضر. هذا هو التحدى الكبير الذى يواجه مخططى مستقبل القاهرة الحديثة ومبانيها المهمة اليوم والذى لابد من مجابهته بشتى الوسائل الممكنة والحلول المتاحة لئلا نجد أنفسنا وقد أنقذنا بعض المبانى بضمها لقائمة الآثار أو بتحويلها لمتاحف ومراكز ثقافية تخدم نخبا صغيرة ولكن الغالبية العظمى من المبانى والمدينة نفسها بقضها وقضيضها قد ضاعت علينا .

هذا لايعنى بالطبع ترك الأمور على عواهنها الآن من دون أى تدخل رسمى أو حكومى بانتظار حل شامل مانع أو بأمل عودة الوعى أو نموه فى صفوف سكان المدينة التاريخية لكى يتكفلوا هم أنفسهم بعملية إحيائها والمحافظة عليها. ومع

إدراكنا بأن سكان المدينة التاريخية هم الدعامة الأساسية لبقائها والحفاظ عليها فنحن لا يمكننا ترك هذه المدينة من دون ضوابط قانونية واضحة ومباشرة تؤطر العيش فيها بما يتلاءم وحالة المبانى الهشة فيها والرغبة العامة بالحفاظ على تلك المبانى. فهناك مثلاً حالة المرور المزرية فى غالبية الأحياء التاريخية التى فقد الكثير منها رصفه القديم وحلت محله طبقة سميكة من الأوساخ والقاذورات دكتها العربات وأقدام المشاة دكاً بحيث أصبحت هى أرضية الشارع. وهناك الوظائف المضرة بالبنى العمرانية والمعمارية كالمعامل والورش الصغيرة التى تفح الملوثات حولها والتى تخلق ضغطاً للتضحية ببعض المبانى التاريخية حولها لكى تبتلعها مخازن ومستودعات وورش جديدة. وهناك حالات لا نهائية من البناء العشوائى وإضافة دور جديدة فوق عمارات قديمة ربما لايمكن لدعاماتها وأساساتها من تحمل الوزن الإضافى. وهناك تكدس سكانى ربما كان سببه الأول غياب الضوابط المعيشية والقانونية فى هذه الأحياء . كل هذه المشاكل وغيرها تتطلب تدخلاً مباشراً وجريئاً وبناء فى آن واحد: تدخل يغرم ويعاقب ويوقف عمليات ضارة، ولكنه أيضاً يقترح بدائل معيشية ملائمة لكل حالة ضارة مما لا يتسبب بالتضحية بالناس أو بموارد رزقهم فى سبيل الحفاظ على العمارة أو العكس. ولنا هنا فى مدن الأندلس المعاصرة المثال الملائم حيث إن العديد منها، كقرطبة وغرناطة. قد حافظت على السكان فى أحيائها القديمة بل إنها ربطتهم اقتصادياً ومعيشياً بهذه الأحياء وجعلتهم الأكثر حرصاً على المحافظة عليها لارتباط مستوى معيشتهم ارتباطاً مباشراً ووثيقاً بها . ولو أن القاهرة أكبر وأعقد من أى من هذه المدن واقتراح حلول مناسبة لمشاكلها الأثارية والسكانية يتطلب دراسات عمرانية واقتصادية وسوسيولوجية متكاملة تتجاوز الحلول المجتزأة وتنظر للفراغ العمرانى ككل بحيث أنها تدعم وتستفيد من البنى الاقتصادية التعاضدية والتكافلية الموجودة على الأرض فى غالب أحياء القاهرة القديمة ، كما أكدت دراسات العديد من الأنثربولوجيين المصريين والأجانب ، وتستخدمها فى شحذ الشعور بالانتماء وتجذيره من خلال خلق



مقومات هذا الانتماء الاقتصادية والمعيشية والصحية والترفيهية وما إليها . ولعل فى تجربة مؤسسة الأغا خان فى ترميم وإحياء الأحياء ضمن سور القاهرة فى منطقة الدرب الأحمر المحاذية لبارك الأزهر الذى أقامته المؤسسة على كامل مساحة الكيمان الممتدة على طول السور الشرقى للقاهرة الفاطمية، مجالاً لدرس ميدانى مهم حيث إن البارك نفسه خارج النسيج العمرانى التاريخى ولكنه مواز له ومؤثر فيه ومتلقٍ منه، وبالتالى فهو امتداد عمرانى وسكانى له وإن خلا من الأبنية التاريخية ، على حين يغص الدرب الأحمر وتفرعاته بأبنية تاريخية تمتد من بداية الفترة المملوكية وحتى بداية القرن العشرين انغمس مرممو الأغا خان فى المحافظة عليها وإحيائها وابتدأوا أيضاً بإشراك سكان المنطقة نفسها فى برنامج الترميم العمرانى الكبير من خلال السعى للحصول على مساهمتهم الفعلية والمادية فى ترميم وإحياء منازلهم وسط هذا المحيط التاريخى وإعادة تأهيله للرقى بحياتهم أنفسهم فيه. ومع أن التجربة مازالت محدودة المدى والنتائج، فهى قطعاً واعدة إذا ما استمرت مؤسسة الأغا خان أو خليفتها فى المنطقة بضخ السيولة المادية اللازمة لضمان استمرار المشروع.

هناك أيضاً ضرورة مهمة أخرى قلما التُفت إليها: تثقيف المواطن العادى المقيم فى القاهرة التاريخية ثقافة تاريخية ومدنية لجعله يشعر أن انتماءه لمدينته مصدر فخر له ومنبع رضا وإحساس بالمسئولية . ولن يمكننا الوصول إلى هذه النتيجة بفرض القوانين الصارمة والغرامات الباهظة فقط كما يقترح البعض ، وإن كان بعضها ضرورياً ككابح وكحل أخير . يجب الشروع ببرنامج تثقيفى شامل يطال كل السكان ويتغلغل فى حياتهم عبر القنوات الموجودة والمعتادة : المدرسة، الجامع، البيت طبعاً، وحتى القهوة، ذلك الملتقى الشعبى المفضل . وليس الأمر بحاجة لمجهود كبير أو لموازنات ضخمة وإنما يكفى البدء بتدريب بعض الأفراد المهتمين والملتزمين، كخريجى المعاهد والجامعات الذين لايجدون عملاً فى المؤسسات الحكومية المكتظة، لأن يكونوا قدوة ومثلاً ومدرسين فى الأحياء الشعبية لينفحوا فى المواطن والمواطنة حب مدينتهم الفعلى، ذلك الشعور العارم الذى يغمر قلب كل قاهــرى وقاهرية، والذى لن يكتمل حقاً إلا باهتمامه بها وحفاظه على معالمها وطرقاتها ونظافتها وما إلى ذلك.

والمواطن العادى حساس ومستجيب إذا وجد أن المدرس أو المثل مخلص وصادق. وهناك اليوم العديد من المؤسسات الأهلية والجمعيات غير الحكومية المصرية والأجنبية، كمؤسسة الأغا خان فى مصر وجمعيات مثل الجمعية المصرية لعمارة الأرض، التى بدأت بجهد فردى أعطى ثماراً واعدة على الرغم من صغر المشاريع وتفرقها وانعدام الغطاء القانونى اللازم لتأطيرها أو الرؤية الشاملة لتعميم تجربتها .

ولكنى هنا لن أتوسع فى تحليل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الشاملة التى تهدد العمارة القاهرية الحديثة أو فى نقد الحلول المطروحة اليوم، بل سأركز على مبدأ واحد صغير من مبادئ العمارة الحية، مبدأ تجاوزه الكثيرون فى سعيهم لحلول كبيرة وفاعلة ودائمة: هذا المبدأ هو أن «العمارة بسكانها». أى أن أى محاولة للحفاظ على العمارة يجب أن تنبع من سكانها، مستعمليها، ملاكها، الناس الذين يعيشون فيها ويتعيشون منها ويرتبطون بها كمسكن، أو مكان عمل، أو موئل ذكريات والذين يرون فيها الإطار الفراغى الذى يستجيب لمتطلباتهم ورؤاهم وقيمهم. أما الحلول التى يقدمها من لا صلة لهم بهذه العمارة إلا باعتبارها ميدان بحثهم لا ملعب حياتهم فهى ستكون حتماً ناقصة أو مجتزأة أو طوباوية وغير قابلة للتنفيذ. من هذا المنطلق يمكننا أن نلاحظ أن جزءاً كبيراً من مشكلة عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة اليوم نابع من فقدان هذه المبانى لسكانها بالمعنى الشامل الذى اقصده. فهى قد صممت وبنيت فى الأساس لناس من زمن ماض، ذوى توجهات معينة، وأساليب حياة محددة، ورؤية أخلاقية واجتماعية خاصة. ثم جارت عليها عوادى الزمن لتستبدل بسكانها الأصليين أناسا جددا ذوى تطلعات مغايرة وأساليب عيش مختلفة وضرورات ملحة متعارضة تمام التعارض مع ما بنيت هذه العمارة لأجله أو ماتمثله أصلاً. وأنا طبعاً لا أريد أن أجزم أن للعمارة حيزا اجتماعيا واحدا لايتغير بتغير الظروف، ولا أن العمارة غير قادرة على التأقلم مع تغير فى الوظيفة والمعنى والمستخدم. على العكس من ذلك، فالعمارة واحدة من المعطيات الثقافية الأكثر تأقلماً مع التغيير فى حياتنا الانسانية. ولكن لكل تأقلم حدودا، ولكل عمارة طاقة على الاستيعاب تظهر عليها بعده مظاهر الجهد والإرهاق، وبعد ذلك يحل العجز عن استيفاء وخدمة المعطيات الجديدة وتفقد العمارة وظيفتها الاجتماعية. وبعض هذا حصل لعمارة القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة مع التغير الحاد فى ظروفها وشروطها ومحيطها العمرانى والاجتماعى-

إن أى محـــاولـــة
للحفـــاظ على العمـــارة يجـــب أن تنبـــع
مـــن ســـكانهـــا

لعل واحدة من أنجع الطرق هو أن نحاول التوفيق بين العمارة وبين مستخدميها

الاقتصادى فى نصف القرن الماضى.

وعليه فنحن بحاجة لإعادة النظر مع تعاملنا مع فكرة المحافظة على هذه العمارة (أو ترميمها أو إعادة استخدامها أو تحويلها لاستخدامات أخرى) بطريقة تأخذ بعين الاعتبار العتبة الإجهادية التى لاتستطيع العمارة اجتيازها فى محاولتها التكيف مع الشروط الجديدة من دون أن تفقد صفتها كعمارة وكمحيط حياة انسانية. وبالعكس من ذلك، علينا أن نفتش عن أنجع الوسائل التى تسمح لنا بالمحافظة على هذه العمارة بتوظيفها بطريقة قريبة أو مسايرة أو موافقة لما صممت عليه فى الأساس.

ولعل واحدة من أنجع الطرق هو أن نحاول التوفيق بين العمارة وبين مستخدميها بحيث يقارب هذا التوفيق ماكان عليه القصد عندما بنيت هذه العمارة واستعملت فى الأساس. بمعنى آخر: إذا كانت العمارة سكنية أساساً فأفضل طريقة للحفاظ عليها هو فى استخدامها لأغراض سكنية أو شبه-سكنية (فندق مثلاً)، وإذا كانت العمارة فاخرة فأفضل وسيلة للحفاظ عليها هو فى استعمالها لاستعمالات متميزة من قبل مستخدمين قادرين على القيام بنفقات هذا التميز. هذه كلها طبعاً بديهيات. ولكن هذه المقاربة ستوصلنا لاستنتاج جد منطقى وجد بسيط وإن كان نادراً مايدخل ضمن نقاش المخططين والمرممين. أفضل طريقة للحفاظ على العمارة هو أن يكون مستخدموها الأقرب طبقة وذوقاً واستخداماً لمن صممت لأجلهم أساساً، وربما أفضل مقاربة هى أن يسكن فى عمائر القرنين التاسع عشر والعشرين فى القاهرة أناس ينتمون لنفس طبقة مستخدميها الأول، أو بهم أنفسهم أو بأبنائهم وبأحفادهم، أو بمن يرغبون بالتشبه بأساليب حياتهم من مواطنى اليوم وهم قادرون عليها. هذا الأمر تبين لى واضحاً فى مثال رائع من أمثلة المحافظة على العمارة قابلناه خلال جولاتنا (فريق صغير من المهتمين بعمارة الحداثة فى القاهرة) كل يوم جمعة مع أحمد البندارى: سيد سبعينى متواضع يقيم وحده متفرداً فى عمارة من ثلاثة أدوار هجرها كل سكانها وبقى هو وحده يجاهد بشتى الطرق المتاحة له فى سبيل بقاء عمارته التى عاش فيها حيزاً كبيراً من عمره والتى أصبحت الآن معرضة لخطر الإزالة.

هذا النموذج الفذ من العمارة الحية، بل والمكافحة فى سبيل البقاء، مبنى سكنى يحمل الرقم (..) فى منطقة الدرب الأحمر فى حارة القربية المتفرعة عن شارع تحت السور. وهو عمارة قل مثيلها تذكرنا بالابداع المعمارى الذى وصلته قاهرة نهاية القرن التاسع عشر عندما تمكن المصممون استيعاب جماليات العمارة المملوكية والعثمانية وتطويعها لمبادئ الفن الجديد التشكيلية والفراغية. المبنى مكون من ثلاث طبقات للسكن ويقع على ناصية خلف ربع رضوان المرمم أخيراً (ترميماً سطحياً للأسف) تتيح له واجهتين على الشارع تتقاطعان فى زاوية منفرجة مما يضفى على المبنى انطباعاً بالانفلاش والسعة مع أنه فى الحقيقة صغير المساحة لايحوى سوى شقة واحدة فى كل طابق. هذا المبنى تحفة من تحف التصميم المعمارى القاهرى الهجين السائد فى مبانى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بطرزه المختلطة من الإسلامى الجديد Neo-Islamic بمشربياته وزجاجه المعشق وأقواسه الدائرية ذات النسب المتطاولة المتقاطع مع تأثيرات كلاسيكية محدثة وبعض الفن الجديد فى زخارفه وكسوة فتحاته.

هذا المبنى الذى لم أستطع معرفة بانيه وصاحبه وتاريخ بنائه على وجه الدقة ينسب لعائلة المناديلى التى لم تكن غالباً مالكته الأصلية. وهو يعود على الأغلب إلى أول القرن العشرين (ربما) عندما تحولت المنطقة من منطقة فيلات تحيط بقصر العباسية وغيره من قصور أسرة محمد على تحت القلعة إلى منطقة سكنية لتجار وكبار موظفين ابتدأوا بالقبول بالإقامة فى شقق بدلاً من منازل منفصلة. وهو اليوم مهجور



وفارغ من السكان فيما عدا ساكن واحد مشاكس ومقاوم بكل ما للكلمة من معنى، «حسن» صلاح الدين على إبراهيم، يقيم وحيداً منذ أكثر من سنتين فى الطابق الثالث فى شقة اسبرطية فى حين تقيم أسرته فى مكان آخر خوفاً من سقوط المبنى، الذى انهار جزء من سقف طابقه الأول بتدبير عامد، وبعيداً عن مشاكله حيث إن مالك المبنى يحاول بشتى الوسائل الحصول على قرار بالهدم. صلاح الدين، خريج كلية الآداب وعمل فى هيئة الكهرباء إلى أن تقاعد. وهو مولود فى هذا المنزل الذى فيه أيضاً ولدت والدته وتزوج فيه جده حسن عبد الكريم التركى الأصل وجدته، اللذان مازالت صورة زفافهما المهيبة فى بداية القرن العشرين مؤطرة فى غرفة جلوس حفيدهما.

أحمد البندارى بقى هو وحده يجاهد بشتى الطرق المتاحة له فى سبيل بقاء عمارته

استقبلنا السيد صلاح الدين الرجل الجميل والبالغ من العمر سبعين سنة هاشاً وباشاً ونزل كل الطبقات الثلاث ليفتح لنا القفل الذى يحبسه فى المبنى ويحبس المبنى عن كل من تسول له نفسه التسلل إليه (ولو أن هذا القفل لم يمنع سارقاً فى ظلام الليل من فك وسرقة لوح خشبى محفور بالأرابيسك فى أسفل باب الدخول ومحاولة سرقة كمرة خشبية فى أعلاه ثبتها صلاح الدين بمسامير غلاظ).

تتميز واجهتا الطابق الأرضى من المبنى بصرامة كلاسيكية وحجر نجيت ونوافذ مؤطرة بخطوط كلاسيكية تشبه إلى حد بعيد القصور المدنية الإيطالية من عصور النهضة والباروك. ولكن الصرامة الكلاسيكية تختفى فى الطابقين الثانى والثالث لتحل محلها خفة دم إسلامية محدثة: مشربيات ذات حنيات وأعمدة دقيقة مزدوجة وأفاريز خشبية مزخرفة ودرفات نوافذ مستطيلة من الزجاج الملون متناغمة فى تشكيل جميل فوق درفات خشبية مزوقة بالرسومات الهندسية المحفورة. أما الداخل فهو لايقل حسن ذوق معمارى عن الخارج، خاصة فى ابتكار رائع فى الحمام الذى يعلوه سقف مكون من قبة مسطحة فيها كؤوس الزجاج الملون التى عرفناها فى الحمامات الإسلامية القروسطية تضفى على المكان طابعاً خاصاً. ولكننا هنا فى عمارة سكنية من ثلاثة طوابق فكيف يدخل النور إلى هذه القباب؟ يدخل عبر الفراغ الذى أمنه المعمار بين سقف الطابق الأدنى وأرضية الطابق الأعلى مما يسمح بمرور الضوء لكى يتسرب إلى الداخل بعد ذلك عبر الكؤوس الملونة. مخطط الشقق عثمانى متأخر تقليدى من طراز «الصوفا» أو الردهة التى تستعمل كموزع على باقى الغرف، مع بعض من تحويرات نابعة على الأغلب من شكل الأرض المستطيل التى أقيم عليها المبنى ومن المسافة المعتبرة المطلة على الشارع فى واجهتيه.

ولكن أهم مافى المبنى رقم (..) فى حارة القربية هو ساكنه الوحيد صلاح الدين على إبراهيم. فهو والعمارة التى يسكنها صنوان. وهو يشعر مع العمارة التى يقيم بها وحيداً لالسبب إلا للمحافظة عليها من اعتداء الطامعين الذين يريدون إما إزالتها أو على أقل تقدير الاستفادة من العناصر التزيينية فيها التى يمكن أن تباع بثمن باهظ فى سوق الأنتيكات. هذا الرجل يشعر أن لديه رسالة خاصة وهى الحفاظ على هذه العمارة وهو فخور بها، حريص عليها، متوجس من مستقبلها، ويفتش عمن يساعده فى تأمين بقائها وإعادة رونقها. وهو، على مايبدو لى، لايروم من وراء ذلك القيام بصفقة مالية كبيرة، فهو لم يتوقف عن ترداد رغبته بأن

يساهم فى ترميم مبناه والوقوف على العاملين على هذا الترميم لكى يتأكد بنفسه من أنه لايشذ عن الأصل. وكان يضيف كل مرة بأنه لايمانع من أن يغادر المبنى، مع تعويض معادل لما يأخذه غيره، لأجل ترميمه على أن يعود إليه زائراً بعد ترميمه ليشاهده فى جلوته المعمارية. وهو يقول أيضاً أن فاروق حسنى سيكون فخوراً يوماً ما بأن يدعو زواره لتفقد هذا النموذج الرائع من عمارة القاهرة الحديثة. وهنا ملاحظة هامة وهى أن صلاح الدين ينظر إلى مبناه نظرة تتجاوز كونه بيته ومأواه، نظرة تعى أهمية المبنى الجمالية والمعمارية مما يجعله يقبل طواعية بمغادرة المبنى إذا كان ذلك سيؤدى إلى ترميمه وإحيائه. وإن لم يتمكن هو نفسه من العودة إلى شقته وحياته فيه. هذه النظرة الغيرية ولكن الواعية معمارياً نادرة الوجود، ولاأظن أن الكثير من سكان المبانى التاريخية فى العالم كله يتمتعون بهذه الدرجة من الحس الجمالى والمعمارى التى تمكنهم من رؤية المنفعة العامة من ترميم المبنى التى غالباً ماستؤدى إلى إجلائهم منه واستعدادهم للقبول بذلك طواعية بغض النظر عن المنفعة المادية المتأتية من ذلك.

لاأعرف ما إذا كان هذا النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائيا أم أن مثله كثر، ولو أنى أستبعد ذلك إذا مانظرنا إلى مآل العديد من المبانى المهمة من القرنين التاسع عشر والعشرين التى لم تجد من يهتم بها أو يدافع عنها فانزوت فى غياهب النسيان أو وقعت تحت ضربات معاول الهدم. صلاح الدين على إبراهيم نموذج يجسد فى إرادته وفى قراره البقاء فى منزل نشأته عقلية متميزة تنظر إلى العمارة من منطلق غير مادى، منطلق هو فى الآن نفسه جمالى وذاكراتى وحتى رومانتيكى إلى حد ما. لأن مسكنه من المبانى التى يجب أن يحافظ عليها بمعمارها المعبر وتاريخها العابق. وهذا هو بالضبط ماتحتاج إليه القاهرة التاريخية: أن يكون للمبانى أهل يقيمون بها ويرعونها ويحافظون عليها ويمنحونها من حيواتهم معنى ومبررا للبقاء، وخاصة تلك التى تقع روائعها المعمارية على تخوم التاريخ فى بلد يمتد تاريخه إلى آلاف السنين ويطفح بالأوابد المهمة مما يجعل من مهمة الحفاظ على هذا التراث واجباً وطنياً يجب أن تهتم



به قطاعات كبيرة من الناس الواعين لتاريخهم ولروعة تراثهم المعمارى لا أن يكتفى الواحد منا بالقول أن المؤسسة الحكومية الفلانية أو الإدارة العلانية مقصرة فى واجبها أو أن سكان الحى الفلانى مطحونون ومسحوقون يركضون وراء الرغيف مما لايدع لهم وقتاً أو فكراً للاهتمام بالمحيط العمرانى التاريخى الذى يعيشون فى جنباته، أو أن المتعهدين الجشعين أو ملاك الأراضى الشرهين لايدعون فرصة للكسب إلا واتبعوها وإن أدى ذلك إلى تدمير مبنى أو إخلاء منطقة تاريخية. فكل هذه الشكاوى صحيحة وحادثة، وكلها بحاجة لحلول اقتصادية وتثقيفية وقانونية قد لايكون إنجازها ممكناً فى الوقت الحالى ومن المؤكد أن نتائجها لن تكون بادية للعيان، إن حصلت، إلا بعد زمن طويل قد لا تتمكن المبانى التاريخية المهمة من الصمود خلاله فتتهاوى تحت ثقل الزمن والإهمال والمحسوبيات والصراع على الأرض السكنية فى مدينة حصلت مؤخراً (فى نهاية) على تميز عالمى مشبوه الا وهو كونها المدينة الأكثر كثافة سكانية والأكثر تلوثاً فى العالم.

هذه المعطيات الانسانية والاجتماعية والمدينية والذاكراتية تمثل الإطار غير المادى المهم واللازم لأى مشروع ترميم وإعادة إحياء عمرانى ناجح وطويل الأجل . فمهما كانت العناية التقنية والمعمارية دقيقة بترميم الأبنية نفسها أو بالحفاظ عليها (وهى ليست كذلك اليوم فى غالب الأحوال) ، فهى ستكون ذات أثر ضئيل إذا كانت النظرة إلى الأبنية محصورة بمداها المعمارى الشكلى والاستثمارى من دون التطرق إلى معناها فى محيطها العمرانى والاجتماعى ووظيفتها المعنوية كموئل للذاكرة بكافة تدرجاتها من الخاص إلى العام، ومن الحميمى إلى الاجتماعى، ومن الفردى أو العائلى إلى المدينى فالوطنى أو القومى ثم الانسانى العام والمشترك.

فالعمارة الحقيقية بالنسبة للفرد وللمجتمع ككل تحتوى، فى المقام الأول، على آفاق للمعنى تسمح لكل فرد يتعامل معها بأن ينسج علاقته الخاصة الدافئة بها وأن يخلق صلته الحميمة بها من خلال تركيب ذكرياته من دون أن تفقد أيا من رمزيتها المعنوية والعقائدية الجمعية. فربما أمكننا أن نتعلم من الأشخاص المتميزين مثل صلاح الدين على إبراهيم لتفعيل تحميل مسئولية المدينة لسكانها ومساعدتهم تثقيفياً ومادياً ومعنوياً على المحافظة عليها والاهتمام بها، ولتغيير اللوائح الجامدة التى لاتأخذ بعين الاعتبار الصورة الكلية والوظيفة الفعلية للمبانى. فالعمارة قد وجدت لكى تُستخدم ولكى تؤوى أناساً لهم آمالهم ومطامحهم وهواجسهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة التى سرعان ماتتخذ لنفسها مأوى وتعبيراً فى العمارة التى يسكنونها أو يعملون بها بما أنها فى المحصلة الأخيرة غلاف الحياة

لاأعرف ما إذا كان هذا النموذج الفذ من سكان القاهرة التاريخية استثنائيا أم أن مثله كثر

الإنسانية الخاصة والاجتماعية العابقة بالمعنى والذكرى.

ولكنى لن أبقى فى تحليلى وفى اقتراحاتى مقتصراً على المستوى التحليلى أو على الملاحظة المعجبة، على أهميتهما فى الإشارة إلى ماهو إيجابى وفى التشجيع على استخلاص بعض الحلول الممكنة للحفاظ على عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين أو على بعضها على أقل تقدير ومحاولة النهوض بالمستوى العمرانى لمحيطها فى مناطق وسط البلد وعابدين وجاردن سيتى والمنيرة والزمالك من دون تدخلات بتارة ومفاجئة إن على الصعيد الانشائى أو الاجتماعى. ما سأشير إليه فى ختام حديثى هنا هو التنبيه إلى حقيقة كلنا ندركها عن القيمة الرأسمالية للعمارة فى وسط البلد وغيرها من الأحياء الحديثة والصراع مابين مردودها المالى كعمارة قائمة وكأرض بناء فضاء يمكن أن تستخدم بطريقة أكثر اقتصادية ويمكنها أن تدر عوائد أكبر على مستثمريها. ولن أتهرب من هذه الحقيقة التى تشكل الخطر الأول والأهم بالنسبة للعمارة التى أدعو هنا للحفاظ عليها. بل إنى سأستخدمها للتأكيد على إمكانية التعامل مع هذه العمارة الرائعة تعاملاً يظهر الترابط التحليلى والمادى بين القيمتين الفنية والثقافية (بالمعنى العريض لمفهوم الثقافة) لهذه العمارة - وكل عمارة بحقيقة الأمر - من جهة وقيمتها المادية من جهة أخرى التى لاتخضع فقط لقيم السوق، ببعديه المالى والاجتماعى وأرضيته الاستهلاكية، وتذبذبها كما يدعيه اقتصاديو الخصخصة، بل تخضع أيضاً لعلاقات إنسانية واجتماعية ومعنوية مهمة أيضاً. وربما تجرأت على التأكيد بأن القيمة الفعلية لأى عمارة بنهاية الأمر هى محصلة عدة عوامل منها المادية والاستهلاكية ومنها الثقافية والتاريخية والجمالية، وأن العلاقة بين هذين المجالين هى علاقة معقدة وربما جدلية، أى أن محصلة القيمة المعمارية مختلفة عن القيمة الفنية والقيمة المادية معاً ولكنها نتاج علاقتهما وتفاعلهما مع بعضهما البعض . وهذا برأيى هو المدخل النظرى الأمثل لتقديم المحافظة على القاهرة التاريخية، تلك الرائعة المعمارية التى نحب، كمشروع رابح اقتصادياً واجتماعياً ومعمارياً وإنسانياً. ■

"إزيدورا" سلماوى



يوسف الشارونى

يستخدم سلماوى أكثر من شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية

■■ تتكون المجموعة القصصية «إزيدورا والأتوبيس» لمحمد سلماوى من ست عشرة قصة قصيرة، وكما جاء فى تقديم الناشر أنها مختارات من مجموعاته القصصية الست السابقة بالإضافة إلى بعض القصص الجديدة التى لم تُنشر من قبل، وناشرها الدار المصرية اللبنانية.

ولمحمد سلماوى تاريخ إبداعى مع ثلاثة أنواع أدبية: القصة القصيرة، والرواية والمسرحية. لهذا كنت أود أن يُختتم الكتاب بتعريف موجز للكاتب وقائمة إبداعاته، وهو تقليد أود أن تلتزم به دور النشر لفائدته المزدوجة على كلٍ من الكاتب وقرائه.

ملاحظة أخرى كنت أود أن يثبت أ. محمد سلماوى تاريخ كتابة أو نشر كل قصة حتى نتابع من خلال هذه التواريخ تطوره الإبداعى فى القصة القصيرة لأن إغفال هذه التواريخ يدفعنا إلى البحث عن ملامح عامة لقصص المجموعة، وهو ما يتعذر الوصول إليه إذا كانت المنتخبات من ست مجموعات سابقة أبدعها كاتبها فى مراحل متطورة لكتابته القصة القصيرة.

على أية حال واضح أن القصة القصيرة عند محمد سلماوى ما تزال عموما فى شكلها، لكنه يستخدم أكثر من شكل من أشكال الكلاسيكية القصصية، فيلجأ تارة إلى الحقبة الفرعونية فى قصته الأولى إزيدورا وحابى مما يذكّرنا بروايات نجيب محفوظ الأولى الفرعونية، وهى تعالج القضية الشهيرة قضية الفصل بين حبيبين لعل أشهرها مسرحية روميو وجولييت لشكسبير التى انتهت بمصرع الحبيبين انتحارا. وفى قصتنا نستمع إلى أكثر من صوت، صوت الراوية أولا يقدم لنا ما كتبه الحاكم الرومانى على مصر ووالد الشابة إزيدورا على عمودين يحتضنان باب الغرفة المدفونة فيها مومياؤها. بعدها ننتقل فانتازيًا إلى طيف إزيدورا تقص حكايتها مع حبيبها الضابط المصرى حابى (وهو اسم فرعونى أيضا من أسماء النيل) من حرس القائد الرومانى حين جمع بينهما رئيس الحرس- متجاهلا النتيجة المرجحة لتصرفه- وذلك بأن أمر حابى باصطحاب إزيدورا ابنة السابعة عشرة فى زورق بالنيل حتى قبيل الغروب (أى أنه هيأ لهما هذا الجو الرومانسى الذى كانت نتيجته محتومة) وبعد ذلك لا يتقبل والدها النتائج التى دبر لها بنفسه مقدماتها بل يعاقبهما بالفصل بينهما، ونستمع إلى صوتى حابى وإزيدورا بالتبادل، وترق شكوى حابى مما نزل به حتى تتنامى إلى لغة الشعر حين نقرأ له: ماذا ألمّ بك يا إزيدورا؟ كتبت اسمك على أجنحة الحمام عله يصل فى طيرانه إليك، كتبت اسمك على رمال الصحراء، وعلى حوائط معبد الكرنك بحروف سرية.. (ص١٧) وتنتهى القصة كما تنتهى قصة أى عاشقين تفصل بينهما سلطة تفرض رؤيتها ولا تقيم للعواطف وزنا. وبدلا من أن تكون إزيدورا بين ذراعى حبيبها حابى فإنها تقفز بين ذراعى النهر «حابى»، «فأحاطتنى موجاته على الفور وانزلقت بى إلى باطن النهر» (ص١٩). وتُختتم القصة بهذيان حابى «يقولون إننى جُننت.. لست مجنونا، هى معى وستظل دائما معى» (ص١٩)

ومن الحقبة الفرعونية نقفز إلى إنسان معاصر مأزوم مطعون فى ذمته المالية لينتهى أيضا غرقا لكن فى حمام السباحة بالقصر الكبير، نفس ما أنهت به نفسها إزيدورا منذ آلاف السنين تجمع بينهما بشرية واحدة ومبدع واحد وإن تباعدت بينهما الأسباب والسنوات. لكن الصحف واصلت اهتمامها بقضيته بعد هذا التطور المفاجئ الذى ما كانت تحلم به فبدأت فى الأسبوع الأول تتحدث عن وفاته وهل كانت انتحارا، وفى الأسبوع التالى كانت هناك تساؤلات عن ظروف وفاته، وفى الأسبوع الثالث تناولت حجم ثروته، وتُختتم القصة بهذه الجملة التى تربط بدايتها بنهايتها «ولأن الرجال المهمين تبقى سيرتهم بعد رحيلهم، فقد كانت هناك دائما بقية فى الأسبوع المقبل» (ص٣٠) من المؤكد أن إزيدورا وحابى لو كانا يعيشان فى القرن الحادى والعشرين لكانت لقصتهما بقية فى الصحافة كما كانت لأحد مليونيرات القرن العشرين أوالحادى والعشرين.

وهكذا فإن تجاور القصتين فى المجموعة - سواء قصد محمد سلماوى أو لم يقصد- يسّر لنا أن نكتشف أن نهايتى بطلة القصة الفرعونية وبطل القصة المعاصرة واحدة وهو الانتحار، لكن لأسباب مختلفة تماما، كما أن ما بعد النهايتين مختلف اختلاف زمنين بينهما ألفا سنة.

أما قصة كونشرتو الناى إحدى قصص ثلاث فى المجموعة أبطالها من غير الإنسان، فهذه القصة قصة حياة عود من أعواد الغاب وطموحاته لم تتحقق بل أصبح ينتظر مصيره «حين يترك مكانه فى ذلك المنزل الأنيق بالقاهرة لن يكون للعودة إلى موطنه السابق على ضفة النيل، بل ليُلقى به فى القمامة» (ص٤٠)، ويتساءل القارئ لماذا فضّل له مبدعه هذا المصير المأساوى من بين أكثر من مصير محتمل، بل بعد أن لوح لنا بمصائر أفضل لأعواد غاب مماثلة حين بدأ يشعر بالحنين لصوت الناى الحزين الذى كان يأتيه من القوارب المارة فى النيل بينما يشكل نقيق الضفادع الخلفية الإيقاعية لذلك اللحن العذب الأصيل (ص٤٠) مصير ليس أفضل من انتحار بطلىْ القصتين السابقتين وإن كان بيد غيره لا بيده.

قصة أخرى بطلتها شجرة جميز عتيقة، ومصيرها ليس أفضل من مصير زميلها فى عالم النبات عود الغاب السابق، ويبدو أن هذه المأساوية، إن صح التعبير، هى الدافع الإبداعى عند محمد سلماوى، فقد

«إزيدورا والأتوبيس»
محمد سلماوى
الدار المصرية اللبنانية
القاهرة ٢٠٠٨

هناك ثلاثية أخرى مختلفة فى مجموعتنا القصصية هى ما أُطلق عليها ثلاثية الصراع العربى الإسرائيلى

كان مصيرها بعد حياتها الحافلة انهيارها على أثر صدمة أسفل جذعها من سيارة يقودها شاب مخمور فوجئ بسيارة نقل قادمة تجاهه فاندفع إلى الجانب الآخر حيث شجرة الجميز فصرخت من الألم صرخة سمعتها بقية أشجار الضاحية (ص٨٣) فى هذه المرة لم تصرخ فلم يكن بها صوت (٨٣). ومبدع القصة لا يحرص على أنسنة شجرة الجميز فقط بل على أنسنة الطبيعة كلها. فالأرض تعيد للشجرة المنهارة الحديث الذى كانت تحبه لكنها لم تكن تجيب، بينما ربتت أشعة الشمس الدافئة على أغصان الشجرة علها تنطق لكنها ظلت بلا صوت ولا حركة (ص٨٣) لهذا انتحبت الأرض، واحتجبت الشمس وراء سحابة سوداء لتدارى دموعها، بينما أسقطت حدائق الحى زهورها حزنا على شجرة الجميز. وتُختم القصة ونحن نستمع لأحد سكان الضاحية يقول وهو ينزل من البيت ويهم بركوب سيارته: لماذا لا يقتلعون تلك الأشجار القديمة التى لا فائدة منها. وهكذا تُصدر الحداثة حكم الإعدام على الأصالة وهو ما سيتكرر فى أكثر من قصة تالية، صحيح أن بطلة القصة شجرة وليست إنساناً، لكن مبدعنا أنسنها.

أما القصة الثالثة «رحيل جواد أشهب»، فإن بطلها كما هو واضح من عنوانها من عالم الحيوان وليس من عالم النبات كالقصتين السابقتين، وقد امتدت الأنسنة هنا إلى عالم الجماد المحيط بجوادنا الأشهب «فيه بياض حالم كالسحاب، وتزين جبهته غرة بيضاء كأنها التاج الملكى، بينما الجياد التى من حوله والحاقدة عليه كانت بيضاء كالحة أو سوداء داكنة. هنا نشعر نحن القراء أننا لسنا أمام أنسنة الحيوان بقدر ما نحن أمام حيونة الإنسان، وكأننا نقرأ قصة من قصص «كليلة ودمنة» لابن المقفع، فهى تعكس عن طريق هذا الحصان الأشهب ما يلاقيه الإنسان المتفوق من حقد قاتل من المحرومين مما يتميز به، فلا عجب أن حدث «فى ليل بهيم بينما كان الجواد الأشهب نائما، تسلل إليه بعض الجياد السوداء (لاحظ المغزى المتعارف عليه لهذا اللون مع الاعتذار لإخواننا الأفارقة) فلم يتبينها أحد فى جنح الليل، ثم غرس أحدهم (لاحظ ضمير العاقل البشرى) خنجره المسموم فى كبده وفروا جميعا هاربين.

لكن مبدعنا محمد سلماوى يأبى أن يكون هذا هو مصير الجواد- يقصد الإنسان- المتميز فما يلبث أن يُخرج من الأكل أُكلا ومن الجافى حلاوة مستخدما ما يتيحه له الإبداع الأدبى من حرية الانتقال من الواقعية إلى الفانتازية، فما نلبث أن نقرأ أنه مع فجرِ اليوم التالى كان قد ظهر على جانبى الجواد جناحان كبيران بدأ يتحركان فى بطء إلى أعلى وأسفل حتى ارتفعا بجسده الهزيل عن الأرض شيئا فشيئا وما هى إلا لحظات حتى كان هناك فوق قمم المآذن وفوق ظهر القباب، وفى الصباح شاهده الناس بين السحب فى السماء يصهل وقد أخذ يمطر المآذن والقباب بالورد والزهور والرياحين من كل نوع ولون (ص١٠٦) معلناً عن تميزه حتى فى استشهاده.

ويتساءل القارئ هل تختلف كثيرا نهاية «رحيل جواد أشهب» عن قصصنا السابقة: الأميرة الفرعونية إزيدورا، ومليونير القرن العشرين أو الواحد والعشرين المصرى، وعود الغاب، وشجرة الجميز، تعددت المسالك وتوحدت النهايات.

هناك ثلاثية أخرى مختلفة فى مجموعتنا القصصية هى ما أُطلق عليها ثلاثية الصراع العربى الإسرائيلى وهى بعناوين أبطالها الثلاثة امرأة ورجلان مستمدة من تاريخ هذا الصراع (وفاء إدريس، والطفل محمد الدرة، وجهاد المسحراتى) ولكن قلم محمد سلماوى نقلها من التاريخ إلى الفن، مما وقع إلى ما يُحتمل أن يقع.

وإذا كان مصرع كلٍ من وفاء إدريس ثمرة لعملية فدائية قامت بها، وجهاد المسحراتى لمخالفته لقوانين منع التجول التى أعلنها العدو. فإن مصرع الطفل محمد الدرة غير المشارك فى المعارك التى فوجئ بها فى طريق عودته مع والده بعد أن فشلا فى شراء سيارة سوبارو حمراء تحقيقا لحلم الطفل بها فى ذلك اليوم، أقول إن مصرعه كان يرمز لآلاف الأطفال الفلسطينيين الأبرياء الذين راحوا ضحية ذلك الاستيطان العدوانى المتواصل منذ آلاف السنين، منذ اعترفت به توراتهم، على نحو ما نقرأ فى سفر يشوع على سبيل المثال عندما استولى جيشه على مدينة أريحا «وقتلوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (يشوع، أصحاح ٦، عدد ٢١) بينما نجت راحاب الزانية (هكذا لقبها فى التوراة) التى خانت قومها وآوت جواسيس إسرائيل قبيل المعركة التى أبادت شعبها. وهكذا تنتهى قصة محمد سلماوى المأساوية التى يحتشد فيها الواقع والرمز بتساؤل الوالد واحتجاجه: ما ذنب ولدى؟ كل ما كان يريده هو سيارة حمراء. كان يمكن أن يكون حيا الآن..لو كان عندهم رحمة. قليل من الرحمة (ص٢٠٣).

وقد استطاع محمد سلماوى فى القصتين الأخريين المعنونتين باسم بطليهما «وفاء إدريس» و«جهاد المسحراتى»، أن ينقلنا من التاريخ إلى الفن حين افتتح كلا منهما بنهايتها: استشهاد وفاء إدريس أثناء قيامها بعمليتها الاستشهادية، واغتيال رصاصات الاحتلال الإسرائيلى لجهاد مسحراتى مدينة نابلس. ثم مضى يقص - بعين الفنان- ما خلف هاتين النهايتين، أو هاتين الحلقتين لما سبقهما وما يليهما. بدأ بالخبر المنقول من وسائل الإعلام ليجعله مجرد باب يدلف منه إلى ما وراءه حيث يزدهر دور الفنان، فقد قام بعملية قص - بالمعنيين لها فى لغتنا العربية: قص الأثر بمعنى تتبعه وقص بمعنى حكى. فروى لنا عن المقدمات التى تَخفى على متلقى النهايتين. وإذا كان الطفل محمد الدرة ضحية واضحة للعدوان الصهيونى حيث أنه فى عمر لا يسمح له بأى نشاط إيجابى، فإن جهاد المسحراتى كان ضحية لتصرف أكثر إيجابية، حيث أنه تحدى تعليمات الاحتلال الإسرائيلى فى مخيم «عسكر الجديد» للاجئين بضواحى نابلس بالامتناع عن إنشاد الأدعية والتراتيل لإيقاظ سكان المخيم لتناول سحورهم الرمضانى، ومما دعا جنود الاحتلال إلى إعلان حظر التجوال فى نابلس وضواحيها. غير أن إصرار جهاد المسحراتى على مواصلة مهمته كان خرقا لحظر التجوال أدى إلى إطلاق النار عليه فسقط على الفور غارقا فى بركة من الدماء، حتى سيارة الإسعاف منعوها من دخول المخيم بدعوى أن حظر التجول يجب أن يُحترم (ص٢١١). (ولا يُحترم إنقاذ إنسان) تنتهى القصة بعلوٍ لفظى وأسلوبى على المأساة حين تقرأ هذه الجملة التى تُختتم بالكلمتين أو اللفظين اللذين يجمع بينهما معنى متشابك «وحين جاء عيد الفطر بعد انتهاء شهر رمضان المبارك فإن مخيم عسكر الجديد بنابلس كان قد خيم عليه حزن مقيم، لكن سكانه كانوا قد صحوا جميعا وأخذوا يستعدون للفلاح - للكفاح». إن هاتين الكلمتين الختاميتين قد أملتها ما أُطلق عليه النشوة الإبداعية التى تعلن أنه إذا كانت القصة قد انتهت فإن الحكى لا يزال متواصلا تعبر عنه هذه الجملة الختامية.

أما مصرع وفاء إدريس فكان ذروة القصص الثلاث، لأنها لم تنتظر ليفاجئها العدوان كما حدث فى مصرع الطفل محمد الدرة الضحية المسالمة السلبية أو المسحراتى جهاد الضحية المسالمة الإيجابية الذى تحدى تعليمات المحتل، بل تجاوزتهما بحركة أكثر إيجابية فى أقصى الطرف، وذلك فى عملية كانت تدرك أن فيها نهايتها لكنها تقتص مسبقا من قاتلى شعبها دون أن تمنحهم سعادة الانتقام لأن جسدها تناثر أشلاء.

ثلاثية ثالثة يجمع بينها ضمير المتكلم هى «برج السرطان» و«آلو»، وهى منولوج متصل و«العرض الأخير». أما «برج السرطان»، فتحكى قصة طبيب له

استطاع محمد سلماوى فى القصتين الأخريين المعنونتين باسم بطليهما «وفاء إدريس» و«جهاد المسحراتى»، أن ينقلنا من التاريخ إلى الفن



زوجة وأبناء إلا أنه يقع فى غرام محاسن إحدى بنات الليل التى رغم محاولته إنقاذها مما هى فيه -أو هذا على الأقل ما كان يبرر به أمام نفسه استمرار علاقته بها- إلا أن نوباتها كانت دائما مؤقتة. ورغم أنه طبيب جراح ناجح إلا أنه لم ينجح هنا فى إجراء العملية التى يجريها فى بعض حالات السرطان..أى الاستئصال فهو «سرطان من نوع جديد يستحوذ على الإنسان ويتغذى عليه جسديا ونفسيا فى الوقت نفسه» (ص٩٤). وبطل القصة هو نفس الشخصية المثقفة لأبطال قصص أخرى فى المجموعة حيث يساورنا الارتياب أن مبدعهم محمد سلماوى يطل علينا من خلالهم. فنحن نقرأ قول الطبيب عن قصته مع محاسن «إنها ليست قصة تاييس (لأناتول فرانس) التى ظن الراهب أنه يستطيع هدايتها إلى الطريق القويم فغوته هى إلى الرذيلة، ولا قصة بيجماليون (فى الأسطورة اليونانية) الذى صنع بيديه تمثالا جميلا ثم طلب من الرب أن تدب فيه الحياة فأجابه الرب إلى طلبه لكنه برغم حبه العظيم لحبيبته ورغم أنه صانعها لم يستطع أن يستحوذ عليها. ولا هى عقدة لوليتا التى يقع بعض الرجال فريسة لها حين يتقدم بهم السن» (ص٩٤). وقد هربت منه محاسن إلى ملهى من الدرجة الثالثة أملا فى ألا يعرف مكانها فلا يلاحقها، لكنه يكتشف الملهى الجديد وأنها تقابل فيه جميع معارفها القدامى ، وبالرغم من ذلك فقد سيطرت محاسن على حياته بحيث يعترف أنه يخجل من سرد تفاصيل يومه بقراءة حظها بالصحف تحت برج السرطان (لاحظ استخدام لفظ السرطان بمعان ثلاثة: فبطل القصة طبيب المرض جسديا وعلاقته بالغانية سرطان عاطفى، والتطلع إلى برج السرطان لقراءة حظها) وهذا الثلاثى أحد مكونات الوحدة - مضمونا وشكلا- للقصة. لهذا يعترف بهزيمته فى ختام القصة، وبمحنته مستخدما مصطلحات تخصصه ومزاوجا بين مهنته ومحنته «لم يُجد العلاج..لم يجد الاستئصال، لم تُجد النقاهة، لقد فشلت العملية الأولى فى حياتى. نسبة حقيقية طبية مهمة أنه فى بعض حالات السرطان المتقدمة، فإن الجراحة لا تقضى على المرض. وإنما على العكس تنشطه، وفى مثل هذه الحالات فإن دور الطبيب ينتهى ويصبح الخلاص الوحيد للمريض من آلامه هو حين يقضى الله أمرا كان مفعولا» (ص٩٩). فهو لا هى أغوته ولا هو نجح فى هدايتها، وهو موقف مختلف عن معظم العلاقات المماثلة فى أعمال أدبية سابقة إما نجح الرجل فيها فى هداية المرأة وإما أن المرأة نجحت فيها فى إغوائها للرجل الذى حاول هدايتها كما فى رواية أناتول فرانس، أو القس مع العمياء جروترد لأندريه جيد فى روايته «السيمفونية الريفية» عندما استعادت بصرها بفضل مجهوداته ووجد القس نفسه مغرما بها، وقصة «شادى طومسون» مع رجل الدين فى رواية «المطر» لسومرست موم الذى يحاول إنقاذ الغانية وفى اللحظة التى يكاد يتحقق فيها هدفه يكتشف أن محاولته لم تكن لإنقاذ روح الغانية بقدر ما كانت وسيلة لمقاومة رغباته الدفينة التى ما تلبث أن تنتصر عليه. أو ربما مواقف أخرى عكسية أقل نجح فيها الرجل فى هداية المرأة على نحو ما نقرأ فى رواية «جسر الشيطان» لعبد الحميد جودة السحار، بينما فى رواية «الرباط المقدس» لتوفيق الحكيم انتهت العلاقة بين راهب الفكر والسيدة التى زارته فى بيته دون أن تغويه ولا أن يهديها. (انظر دراسة فى رواية جسر الشيطان فى كتاب يوسف الشارونى، رحلتى مع الرواية، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، رقم٧ ١٩٨٦).

القصة الثانية مما أطلق عليه ثلاثية ضمير المتكلم والأدق هنا المتكلمة هى قصة «ألو» لأنه مجرد حديث تليفونى من إنسانة مجهولة الاسم (وإغفال اسم بطل القصة أو بطلتها سمة فى كثير من قصص المجموعة) ردا على مكالمة من حبيبها السابق عادل (ذِكر اسم البطل الثانوى سمة أخرى) الذى انقطعت صلته بها «منذ سنة وسبعة وعشرين يوما بالضبط» (ص١٣١)، لكنها من جانبها لم تقطع صلتها العاطفية به. لهذا حين بدأ رده بتوجيه دعوة لها، لم تمهله ليكمل ما بدأ، بل اندفعت تسبق بقية مكالمته، وطبقا لحماسها فى رأب علاقتها المهزومة المأزومة كان أساس كلماتها (عالم خارجى)، وهواجسها (عالمها الداخلى) التى وضعها محمد سلماوى بين قوسين أن اتصاله مغزاه عودته إليها برغم أنها فى بداية حديثها معه، تقول له: لقد تصورت طوال الوقت أنك سافرت..لم أتخيل أبدا أنك فى نفس البلد أو حتى نفس الدنيا (أى أنك غادرت الحياة)، لكنها تستدرك قائلة: لا لا أقصد. أنت تعرف معزتك عندى (ص١٣٢)، ولأن معظم أبطال قصتنا مثقفون فإننا نستمع إلى بطلتنا وهى تعلن لحبيبها السابق ولقراء قصتها على السواء أنها تفضل تلبية دعوته على العشاء عن الغداء لأن العشاء لا يكون إلا فى الليل، والليل يسدل ستارا على كل متاعب الحياة ولا يعود الإنسان يرى إلا متعة الذى يجلس أمامه على مائدة العشاء، تماما كما فى المسرح الأسود، الذى يختفى من فوقه جميع الممثلين ولا يرى الجمهور إلا ما يحملون من أدوات بيضاء (ص١٣٢) (عاشقة يشكرها كاتب هذه السطور لأنها تقدم له معلومة عن المسرح الأسود كان يجهلها) وكانت قد أعلنت أثناء حديثها أو ثرثرتها التليفونية أنها سعيدة فى حياتها الجديدة التى التقت فيها بشخص آخر «وجدت أنه يحبنى حبا كبيرا وأنا سعيدة معه الآن» (ص١٣٣) لكنها سرعان ما تراجعت معلنة «يجب أن أعترف لك بشىء هذا الشخص الذى حدثتك عنه الآن لا وجود له.. لقد اختلقت هذه القصة لأحفظ كرامتى أمامك» (ص١٣٣) «إننى لم أر أحدا منذ تركتنى..لم يدخل أحد حياتى.. كنت أعرف أنك ستعود» (ص١٣٤).

وتُختتم القصة بهذه المفاجأة حين يعلن لها أنه يدعوها لعرسه، فيعود إليها الصداع الذى أعلنت فى بداية ثرثرتها أنها كانت مصابة به فى البداية «صداع مزمن لكنى تغلبت عليه بعد ذلك وعدت إلى الحياة مرة أخرى» (١٣١).

فالمفاجأة فى نهاية القصة وربط نهايتها ببدايتها من الأساليب الشكلية المتداولة فى الإبداع القصصى، والتى أجاد محمد سلماوى استخدامها فى هذه القصة. أما القصة الثالثة التى استخدم فيها محمد سلماوى ضمير المتكلم فى هذه المجموعة فهى عنوانها «العرض الأخير» وهى مضادة فى اتجاهها للقصة السابقة لأن ضمير المتكلم هنا هو ضمير المحب الذى يخاطب إحدى المعجبات بتاريخه المسرحى متسائلا هل ستكونين معى هنا فى هذه اللَيلة..فى العرض الأخير..أم أنك أنت أيضا لن تأتى كالباقين. فهى ليلة ليست كالليالى السابقة لأنها ختام لياليه المسرحية أى حفل وداع.

وتتضمن هذه القصة القصيرة نقدا من هذا الزميل الغارب من المشتغلين بالمسرح للمشتغلين به حاليا حين نسمع بطلنا يعلن أن شخصه المسكين لم يعد يقوى على تحمل عذاب المسرح أكثر من ذلك. «عذاب المسرح الذى لم يعد مسرحا، بل شىء آخر لا أعرفه» (ص١٦٨). لعلها شيخوخة فكر لم تستطع أن تلاحق تطورات الحداثة. ولعلها كلمات وداعية لبطل مسرحى لإحدى المعجبات بفنه وقع فى حبها لأنها -وكما يخاطبها- أنت فقط ظللت على عهدك. تحضرين كل عرض من عروضى، تقابلنى عيناك كل ليلة، مضيئتين كنجمة الشمال التى تؤكد للنواتى أنه على الطريق السليم.(ص١٦٨) برهان آخر يؤكد أن ثقافة محمد سلماوى تطل من خلال ما أبدعه من شخصيات.

بعد هذه الثلاثيات الثلاثة نقرأ قصتين مجزأتين إحداهما رسائل العودة، وهى خمس رسائل، والأخرى باب التوفيق أطول قصص المجموعة وتتكون -مثل بعض القطع الموسيقية الغربية- من ثلاثة أجزاء أو الأدق ثلاث حركات: بطئ حزين، ثم معتدل حالم، وأخيرا سريع متلاحق. نعود إلى رسائل العودة، وهى تتكون من خمس رسائل كلها تطالب بعودة علاقات مقطوعة. الأولى يطالب فيها الحبيب بعودة حبيبته التى - على حد قوله- أخذها منه السأم. ويربط عودتها بحوادث جسام «ستعود تشرق شمس الأندلس، ستعود الجولان. تتحرر فلسطين وتحطم القدس قبورها» وتنتهى القصة والقارئ فى شك هل موت حبيبته هو الذى فصله عنها لأنه يختم قصته بهذه الكلمات الغامضة: لقد اجتزت يا فتاتى شاطئ الحياة إلى البر الآخر.. عودى إلىّ وإلا فسأترك هذه الدنيا وآتى إليك حيث أنت.

والقصة الثانية رسالة من صديق إلى صديقه الذى أبعدته عنه غربة عقائدية «لا أريد أن أتخيل كيف تكون الآن. يقولون إنك أطلقت

قد تمزقت أوصال الوطن العربي وكاتبها يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعوني والعربي والحديث

لحيتك وأنك لا ترتدى إلا ذلك الجلباب القصير الذى لا يمت لملبسك بصلة، (ص٤٩) هل مرضت أو أصابك مكروه؟ وكانت ظنونى وأسفاه كلها فى محلها فقد وقع لك حادث ومرضت وأصابك مكروه.. إنه الحادث المباغت الذى لم يكن يتوقعه أحد وهو المرض الخبيث الذى لا يأتى إلا خلسة. وهو المكروه الأكبر الذى يستولى على كيان شاب فى مقتبل العمر كان دائما مقبلا على الحياة، (ص٥٠).

وإذا كان انفصام العلاقة الأولى على أساس عاطفى إن لم يكن قدريا فيما يبدو، والعلاقة الثانية على أساس فكرى، فإن انفصام العلاقة الثالثة بين أمومة وبنوة ووطن. فالابنان مصطفى وشريف أودعا أمهما الفلسطينية دارا للمسنين وانفصلا عنها. شريف طبيب لا يكاد يراه من يعيش معه فى بيت واحد، ومصطفى رحل، ترك البلد كلها وسافر، وهى تعانى فى بيت المسنين مع زميلاتها إحداهن تشكو هجرة أقربائها فلم يزرها أحد منذ ثلاث سنوات. والأخرى التى كانت ترقد فى السرير الملاصق لسريرها ماتت أول أمس (ص٥٢). والمزعج أن الممرضة أخبرتها أن أمامها ستة أشهر على الأكثر فأضفت بذلك إزعاجا على إنزعاجها. ونكتشف من مناجاتها لنفسها كم تحن لوطنها الذى أُرغمت على تركه «يأتى الأهل والأصدقاء لزيارتنا من القدس وحيفا ونابلس والخليل، وما تلبث أن نكتشف أبعاد الانفصال فى قصتنا حين تدعو السيدة العجوز التى على شفا الموت مطالبة: أعد إلىّ بيتى القديم- أعد إلىّ وطنى أعد إلىّ كل ما أخذته منى عنوة ودون وجه حق أعده ولو ساعة واحدة قبل أن تأتى لتأخذ حياتى(ص٥٣) واضح أن محمد سلماوى مهموم بقضية فلسطين نراها تتسلل فى أكثر من قصة قصيرة له، وفى روايته المتميزة «الخرز الملون» (ص١٩٩٩) حيث بطلتها الفلسطينية نسرين تهاجر وتموت فى مصر.

رسالة رابعة من حبيبة إلى حبيبها الذى هجرها بعد ثلاث سنوات أمضتها تنظر إلى عينيه «كلما التقينا» وبين أحضانه التى طالما اكتنفها دفئها على حد تعبيرها فى رسالتها. بل إنها تعزو إليه أنوثتها «لأنك أنت الذى صنعتها بيديك.. بشفتيك بذراعيك.. بأنفاسك.. بقبلاتك» (ص٥٤) وهى تعاتبه لأنه لم يقاوم عندما أصر والده أن يزوجه ابنة شريكه (ص٥٥) ثم ما تلبث أن تشف ثقافة المبدع من خلف بطلة قصته حين نسمعها تقول: هناك من المآسى ما لا يمكن تخطيه، كيف تتخطى البشرية خروج آدم من الجنة؟ كيف تتخطى خيانة صلب المسيح؟ كيف تتخطى عار مقتل الحسين؟ كيف تتخطى كارثة هيروشيما وناجازاكى وتكسير عظام أطفال الانتفاضة فى فلسطين؟ (ص٥٦) وذلك رغم ما تلا هذه الكلمات من تبرير يرد على لسان كاتبة الرسالة حين نقرأ أن ما فعله الطبيب النفسى الذى أخذتها أمها رغما عنها إليه «هو أنه جعلنى أتعايش مع المأساة فقط كما تعلّم الإنسان أن يتعايش مع كبريات مآسى التاريخ» (ص٥٨). ونواصل الاستماع إلى ثقافة مبدعها محمد سلماوى حين نقرأ أن علاقتها بحبيبها كانت فى الخفاء. «كحركات المقاومة الوطنية التى تتخفى تحت الأرض لفترة لكنها تعود لتنطلق بعد ذلك لتحرير الأوطان من الظلم والهوان. لهذا نحصر الحب فى قمقم مغلق كالجن الملعون. ومضت الأيام وحركة المقاومة ما زالت مخنوقة تحت الأرض والأوطان لم تتحرر، ظلت الأرض محتلة وظل المغتصب مغتصبا، وظل المقهور مقهورا. لم يأتِ المخلص، أما ذلك الذى عاد إلىّ فقد كان المسيح الدجال» (ص٥٧). وتنتهى الرسالة لا بمناشدته العودة التى لم يعد أمل فيها، بل بتقريعه: كيف تصورت أنك يمكن أن تعود إلىّ بهذا الشكل كالصورة المهزوزة التى ضاعت منها بؤرة التركيز بعد أن اهتزت الكاميرا فى يد المصور الرعديد الجبان وكان يجب أن تعود إلى نفسك قبل أن تعود إلىّ (ص٥٨).

أما آخر الرسائل فهى تكشف عما جاء مضمرا ومتناثرا فى الرسائل السابقة، وهى بعنوان «متى العودة يا وطن» فهى تلقى معنى سياسيا على الرسائل الأربع السابقة وتجعلها رموزا ممهدة لهذه الرسالة الخاتمة وليست مجرد تنويحات على رسائل يطالب كل صاحب من أصحابها عودة من يهمه الأمر. فقد تمزقت أوصال الوطن العربى وكاتبها يستغيث بشخصيات من التاريخ الفرعونى والعربى والحديث: مينا وأحمس وصلاح الدين وعبد الناصر: فمن يدّعون الإسلام صاروا يقتلون أشقاءهم فى الجنوب، ويا من حمّلتنا الوصية بأقباط مصر... ثم هذه الجملة الختامية فى إشارة إلى مطالبات العودة السابقة: آه يا وطنى متى تعود كما كنت، متى تعود حتى تعود الحبيبة، ويعود الأخ والصديق، ويعود الحبيب(ص٥٧) وأضيف ويعود الأبناء، فثمة علاقة عضوية بين غربة هؤلاء الأحباء وغربة ما يعانيه «الوطن العربى المترامى الأطراف» (ص٥٨) وهكذا أضفت هذه الرسالة الختامية المعنى والوحدة على الرسائل الأربع السابقة.

أما قصة باب التوفيق فبطلها محسن عبدالفتاح مدرس الحساب بإحدى المدارس الإعدادية بالقاهرة القديمة وفى حركتها الأولى نعلم أنه مغرم بزميلته عزة التى لا تبادله مشاعره وتنأى عنه. العم صابر بائع التحف الإسلامية يعرفه محسن ويعرف متجره منذ طفولته، وهو اليوم حزين لوفاة زوجته وسيكلفه دفنها وهو مفلس، فتأبى شهامة محسن إلا أن يقرضه سبعين جنيها من مرتبه الذى لا يتجاوز أربعة وسبعين، سدد بباقيها -وهو أربعة جنيهات- ما عليه من دين عند عليوة البقال الذى عاد بعدها يشترى منه شكك؛ ولم يستطع العم صابر أن يرد دينه لمحسن إلا بإعطائه إحدى تحفه الأثرية وهو باب التوفيق أحد الأبواب الأثرية للقاهرة والمكتَشف عام ١٩٥٧. وتنتهى الحركة الأولى بهذه الجملة «وبعد فشل المحاولات المستميتة التى بذلها محسن لإثناء عم صابر عن قراره انتقل الباب إلى منزل محسن عبدالفتاح فوق سطح العقار رقم ١٤ بحارة الدرب الأصفر بالجمالية» (ص١٤٧).

أما الحركة الثانية فعنوانها يدل على مضمونها، معتدل حالم، فى بداية هذه الحركة يقدم لنا محمد سلماوى مشهدا فانتازيا حين يستمع محسن إلى طرقٍ خفىٍّ متكرر يوقظه من نومه ثم يتضح أن مصدره الباب الأثرى الذى استضافه فى غرفته، لعله دلالة على مدى سيطرة هذا الباب على عقل محسن وانشغاله به. تقول القصة إن محسن عبد الفتاح عندما استيقظ فى الساعات الأولى الفاصلة بين الليل والنهار شعر أن حياته تبدأ من جديد. وقد أكد تفاؤله حين استقبله بواب المدرسة معلنا صرف منحة له بسبب إشرافه على نشاط الطلبة فى نهاية العام الماضى (ص١٥١) وبذلك حل مؤقتا مشكلة دين عم صابر المستحق لمحسن. كما تلقى دعوة لحضور حفل ميلاد طالبه توفيق (لاحظ اسم الطالب واسم الباب وهل سيلازم بطلنا التوفيق أم سيتخلى عنه) وهو الوحيد من الأساتذة الذين تمت دعوتهم كما كانت عزة الوحيدة من بين المدرسات مما أتاح لهما فرصة لقاء عاطفى تلته علاقة حميمة بينهما (أليس اسم الطالب توفيق؟) بذلك «تغيرت حياة محسن عبد الفتاح. أحس أنه يعيش حياة أخرى غير تلك التى كان يحياها» (ص١٥٦) وقد دفعته تلك العلاقة الحميمة إلى علاقة أخرى حميمة مع باب التوفيق فمضى ينظفه من أمام ومن خلف.

أما الحركة الثالثة، سريع متلاحق، فعلاقة محسن عبد الفتاح بزميلته عزة أصابتها ردّة، وكما أنه ليس لدينا المبررات لموقف الجفاء الذى كانت تقفه عزة منه، ولا لماذا تطورت علاقتها به إلى الأفضل، فإننا لا نعرف أيضا لماذا انتكست هذه العلاقة، فلا يقدم لنا الراوى أية مبررات. العلاقات تتوتر وتنفرج ثم تعود فتتوتر فى تآلف مع الجو، فمحسن يتساءل كما يتساءل قراء قصته، ماذا حدث وهل حل الشتاء فجأة. صحيح أننا فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لكن الجو لا ينقلب فجأة هكذا بين يوم وليلة، بذلك يسبق محمد سلماوى قراءه فى الاعتراف بأن هذا الانقلاب العاطفى حدث فجأة وبدون أن يكشف لنا عن أى مبرر أو تمهيد. وهكذا انقلبت علاقة عزة به- كالجو- بين يوم وليلة بحجة «الوضع الذى نحن فيه.. قل لى بربك ماذا ستفعل لتأمين مستقبلنا؟» (ص١٦٠) كأنما لم تتنبه إلى هذه الحجة إلا الآن، وكأنما معظم الأزواج لا يبدأون حياتهم إلا بعد أن يكونوا قد كوّنوا أنفسهم على حد التعبير الشعبى. وقبل أن نحتج فإن محمد سلماوى يسبقنا حين يضع على لسان بطلته ما يدور بعقل قارئه عندما يسأل محسن عزة: ماذا حدث؟ لقد تغيرتِ. فتجيبه: نعم تغيرت. وتكون الإجابة الاستنكارية الاستفهامية: هكذا بين يوم وليلة؟



وحتى لا تكون المصائب فرادى، فإن محمد سلماوى يقلب انفراجة الحركة الثانية والتى أعيد عنوانها، معتدل حالم، يعيدها إلى: انقلاب كابوسى، فليت الأمر اقتصر على علاقته العاطفية - بل المستقبلية- بزميلته عزة، بل حتى مع الذين يتعامل معهم وكانت علاقته بهم علاقة ود، فالبقال عليوة يهدده إن لم يدفع ما عليه. حتى باب التوفيق (لاحظ اسم الباب وما آل إليه حال محسن) جاء من يتهمه بإخفاء الآثار وجاء من يقول «إنه ليس ملكاً لك حتى تضعه عندك» (ص٢٦٢) وحتى لا يحالفه التوفيق فإن عبده صابر صاحب باب التوفيق توفاه فجأة مبدعه محمد سلماوى «عم عبده مات؟ كيف مات؟ متى.. لقد كان حيا يُرزق بالأمس فقط» (ص١٦٢).

وهكذا فقدنا كل مؤديات التوفيق فى حياة بطلنا: عزه، وصديقه تاجر الآثار الإسلامية عم عبده، حتى عليوة البقال هدده إن لم يدفع الحساب كله وإلا (ص١٦١) وهكذا بدأت القصة بموت زوجة عم عبده بائع الآثار الإسلامية وانتهت بموت البائع نفسه. وقد لاحظت أنه حين عادت عزة إلى محسن دون إبداء الأسباب لم أعترض وفرحت لعودتهما، لكن حين عادت القطيعة من جانبها استيقظت التساؤلات والاعتراضات الأدبية من جانبى لعدم وجود مبرر أو تمهيد لهذه القطيعة الثانية وأظنها الأخيرة.

أما قصة الأتوبيس- وقد أصبحت على شىء من الخبرة بقصص سلماوى بحيث أتساءل عند قراءة كل قصة هل مضمونها إشارة رمزية إلى جانب ما يفصح عنه ويصرح به- هل ركاب هذا الأتوبيس يمثلون المجتمع المصرى أو ربما الإنسانى، وأن الطريق هو النهج الذى يسلكونه والعقائد التى يتصرفون على أساسها، وعندما نسمع الضرير يتحدث إلى الركاب قائلا إن الطريق الذى يسلكه السائق ليس طريقنا، لقد انحرف السائق عن الطريق وأنتم لا تدرون، يتضخم الشك الذى يساورنا برمزية ما نقرأه وقد قذف الأتوبيس بالسائق عندما انحرف فوق حافة الجبل فتولى الكمسارى مسئولية الركاب وهو يوجههم معلنا لماذا تتصرفون وكأنكم تتفرجون. لن ينجو منا أحد مالم تتحد جهودنا فى الاتجاه الصحيح (ص٦٩).

بينما الرجل الضرير- الذى يرى ما لا يراه المبصرون- يعلن: لا تضيع وقتك يا بنى ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية- هل هى مجرد سيارة أم مرحلة من مراحل المجتمع- لهذا فقد غادره جميع ركابه وكان الكمسارى آخرهم ليحاولوا دفعه إلى الخلف لإخراجه من هذا المنحنى الخطر وإعادة عجلاته على الطريق- لاحظ إعادته للخلف- لكن العجوز الأعمى (فلتذكر العراف الأعمى تريزياس فى أسطورة أوديب الذى أعلن أن وباء المدينة بسبب زواج أوديب من أمه) قال على الفور ناصحا: لا تضيع وقتك يا بنى ولا تبدد طاقات الناس مع هذه السيارة البالية، فكان البديل الثانى هو التخلص من هذه العقبة وفتح الطريق أمام السيارات وإلا فستواجه المنطقة كلها أزمة ضارية عندما يطلع النهار (ص٧٢) وما هى إلا دقائق حتى كان الأتوبيس يتدحرج من فوق قمة الجبل ليلحق بسائقه. ونظر الركاب إلى الطريق فوجدوه سالكا تماما. دعوة رمزية إلى التخلص من حطام الماضى لفتح الطريق أمام مستقبل تخلص مما يشده إلى الخلف. أعتقد أن هذه القصة تستمد قيمتها من رمزيتها.

أما قصة الفواخير فهى أيضا قصة انتصار الجديد على القديم، لكنه الجديد النفعى على القديم الأثرى. فأقدم فواخير الفسطاط هى فاخورة عم صالح (ص١١١). أمضى سنوات حياته التى تجاوزت الثمانين يصنع الأوانى الفخارية ما بين قلل وأزيار وقدور، ويتدخل الراوى لإبلاغنا بمعلومات لا يعرفها عم صالح معترفا بذلك حين يبدأ ثلاث فقرات بجملة: لم يكن عم صالح يعلم، كتصوير صناعة الفخار على جدران مقبرة أحد أمراء سقارة، وأنها بقايا ازدهار لم يسبق له مثيل فى صناعة الفخار خلال العصر الإسلامى، وأنها أقدم الصناعات اتصالا بتاريخ الحضارة الإنسانية لذلك تعتبر المقياس الفنى الذى يتخذه المؤرخون لقياس مدى تقدم عمر أى من الحضارات الإنسانية القديمة (ص١١٢)، لذلك لم يستطع عم صالح تقبل فكرة هجرة الفسطاط والعيش بعيدا عن هذه الفواخير التى كانت كل فاخورة منها تملؤه شعورا بالفخر والفخار (ص١٣٥) (انظر العلاقة اللفظية بين صنعته- الفخار- وانعكاساتها على شخصيته- الفخر والفخار- وارتباطهما معا بحرف الخاء، وهى إحدى المميزات الأسلوبية عند محمد سلماوى فى أكثر من قصة)، وحين علم بنية المسئولين هدم الفواخير وتمليك أرضها لشركة أجنبية ستقيم عليها مشروعاتها حاول الدفاع عما يمثله عمله الذى يفوق عائده التراثى على أى مشروع حداثى. بدأ بخفير المنطقة متصاعدا إلى قسم الشرطة فالمحافظ الذى فشل فى لقائه. حتى عندما جاء الأجانب لتنفيذ مشروعهم ولم يكن عم صالح يعرف لغتهم، وفشل فى التفاهم مع المصرى الذى يرافقهم بل كان نصيبه التهديد واتهامه بالعمل ضد مصلحة البلاد. ويختتم محمد سلماوى قصته وأصابع بطلها عم صالح قد تشنجت وهى تقبض على التربة بحيث أن الموكب عندما عاد مرة أخرى إلى حيث وقفت السيارات «كان وميض عم صالح قد انطفأ فى التراب» دون أن يلحظ أحد ذلك (ص١٢٠). مصير مأساوى آخر كمصير معظم أبطال قصصنا السابقة.

وتذكرنا هذه القصة بأخرى للكاتب الفرنسى «ألفونس دوديه (١٨٤٠-١٨٩٧) «سر المعلم كورنى» فى مجموعته القصصية رسائل من طاحونتى، وتدور حول مأساة المعلم كورنى صاحب إحدى الطواحين الهوائية التى لم تستطع مقاومة مطحن بخارى أقيم حديثا لتعطل إنجاز طواحين الهواء المسكينة التى حاولت أن تواصل بعض الوقت لكن البخار كان الأقوى مما اضطرها أن توقف مهمتها واحدة بعد الأخرى رغم أن المعلم كورنى كان يحذر أهل قريته من اللجوء إلى المطحن البخارى لأن «البخار رجس من عمل الشيطان بينما أنا اشتغل بريح الشمال نسمة الله الكريم». لكن أحدا لم يستمع إليه. وتنتهى القصة بهذه الجملة «وذات صباح مات المعلم كورنى» (نفس نهاية العم صالح صاحب الفاخورة) فتوقفت عن الدوران آخر طاحونة لنا، وتوقفت هذه المرة إلى الأبد.. فإن لكل شىء فى هذه الدنيا نهاية» (ألفونس دوديه، قصص من الريف والمدينة، ترجمة د. أنور لوقا، هيئة القسم الفرنسى بكلية الآداب، القاهرة، ١٩٥٠).

وأضيف: لكن الاستمتاع بهذه المجموعة - كما أرجو- ليس له نهاية.

وختاما نستطيع أن نخلص من هذا العرض إلى السمات الآتية للمجموعة:

- أنها تتضمن ثلاث ثلاثيات إحداها تجمعها شخصيات غير إنسانية: عود من أعواد الغاب، شجرة جميز، جواد. والثانية يجمعها ضمير المتكلم: برج السرطان، ألو، العرض الأخير. والمجموعة الثالثة يتصاعد فيها الصراع العربى الإسرائيلى: الطفل محمد الدرة (لقى مصرعه مجانا)، وجهاد المسحراتى (لقى مصرعه لمقاومته السلمية) ثم وفاء إدريس (هاجمت قبل أن تُهاجَم) هذا فضلا عن قصتين إحداهما قصة «رسائل العودة»، وتتكون من خمس رسائل، والأخرى «باب التوفيق» أطول قصص المجموعة وتتكون من ثلاث حركات موسيقية «بطىء حزين» andante، ثم معتدل حالم، وأخيرا سريع متلاحق scherzo (فى حركة السيمفونية يكون مبهجا راقصا أما فى قصتنا فهو مزدحم بالفجائع).

- تنتهى معظم قصص المجموعة نهايات مأساوية.

- معظم القصص يمكن قراءتها كقصص واقعية وأخرى يشف الرمز من خلالها.

- تتميز بعض القصص باستخدام اللفظ الواحد بأكثر من معنى مما يهبها لونا من الوحدة الشكلية التى تتسرب بين سطورها مثل كلمة السرطان فى قصة «برج السرطان» وكلمة التوفيق فى قصة «باب التوفيق».

- أن ثقافة الكاتب تطل من خلال شخصياته فى أكثر من قصة تماما كما تطل ثقافة الناقد- بحكم العدوى- من خلال رؤيته.

وأخيرا يلاحظ أننى أفترض فى قارئى أحد اثنين: ألا يكون قد قرأ المجموعة فأقدم له خطوطا رئيسية يمكن معها متابعة ما يقرأ، أو يكون قد قرأها فأضيف إليه بعض ما أخصبت وجدانى قراءتى لقصص المجموعة.

إن المجموعة كانت من الثراء بحيث استدعت قراءات سابقة - أنا مدين لها ببعثها واستعادة تذوقها. ■



مـــــــازن الـنـجـــــار

الشرق العثمانى

"زمـــــن أوليـــــا چـــلـبى"

"١٦٤٩ - ١٦٨٣"

■ ■ أنجبت الحياة الثقافية العثمانية فى قرون ازدهارها عددا من أبرز المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين أثروا الحياة الثقافية العثمانية عموما - وأدبيات التاريخ والجغرافية خصوصا- إثراء متميزا. ويرى المستشرق برنارد لويس - مؤلف كتاب «ظهور تركيا الحديثة» - أن سجايا الأتراك تبدو بوضوح فى مؤلفاتهم من الكتب التاريخية. فقد كان المؤرخون العثمانيون الكلاسيكيون رجالا قديرين، وذوى معلومات متقدمة على عصرهم. إن مؤلفاتهم من أنجح المؤلفات الثقافية العثمانية فى فروعها. أما يلماز أوزتونا، المؤرخ التركى المعاصر، ومؤلف العمل التأريخى الكبير «تاريخ الدولة العثمانية»، فيلاحظ أن المؤلفين العثمانيين لم يتوصلوا فى التاريخ إلى مستوى العرب، لكن يمكن اعتبارهم فى الجغرافية على مستوى واحد مع العرب.

شهد القرن السابع عشر قفزة أخرى فى التأليف الجغرافى والتاريخى، تميز بظهور مؤلفات أكثر شمولاً، إذ جمعت الخرائط والأطالس العثمانية والأوروبية قدراً جيداً من المعارف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. كما امتزجت المعلومات الجغرافية بالمعرفة التاريخية وبمشاهدات الرحالة وملاحظاتهم القيمة، والتى تعكس التكوين الثقافى والتجربة الحضارية للمؤلفين، وما تستند إليه من رؤية كونية وتصور عن الذات والعالم.

برز من مؤلفى القرن السابع عشر شيخ أحمد دهده منجم باشى (١٦٣١-١٧٠٢) صاحب كتاب «جامع الدول» من ثلاثة أجزاء فى تاريخ العالم، وكتاب «صحائف الأخبار» فى تاريخ آل عثمان، وكلاهما باللغة العربية. كما اشتهر من المؤلفين مصطفى أفندى (١٦٠٩-١٦٥٧)، المعروف أيضاً باسم «حاجى خليفة»، وكاتب چلبى صاحب «جهان نامة» أى كتاب العالم، وهو كتاب فى الجغرافية العالمية، وقد استفاد كاتب چلبى من المصادر والأطالس الأوروبية، كما ترجم أطلس ماير من اللاتينية إلى اللغة التركية. وقد ترجم كتاب كاتب چلبى إلى اللغات الأوروبية لدى صدوره. كما ألف كاتب چلبى كتاب «فذلكة» من مجلدين فى التاريخ العثمانى، و«تحفة الكبار فى أسفار البحار» حول تاريخ البحرية العثمانية، وموسوعة فى السير باللغة العربية بعنوان «كشف الظنون»، وفى الفكر كتاب «ميزان الحق».

> قـد كـتـب مـؤلـفـه «سـيـاحـتـنـامـه» بـأسـلـوب سـهـل الـتـنـاول، ويـتـسـم بـالـطـابـع الـقـصـصـى المـشـوق الـذى يـضـم المـعـلـومـة إلـى جـانـب الحـكـايـة

ثقافة أوليا چلبى وعصره

وعلى العكس من أسلوب كاتب چلبى ذى الطابع الأكاديمى والالتزام الموضوعى، فإن أوليا چلبى (١٦١١-١٦٨٤) قد كتب مؤلفه «سياحتنامه» بأسلوب سهل التناول، ويتسم بالطابع القصصى المشوق الذى يضم المعلومة إلى جانب الحكاية والتجربة الشخصية المباشرة. أمضى أوليا چلبى حوالى أربعين سنة من حياته مرتحلاً فى البلاد العثمانية وغيرها من البلاد المجاورة. وقد قضى فى القاهرة عشر سنوات وزار الشام والسودان وبلاد الحبش، وزار الحجاز لأداء فريضة الحج. سجل أوليا چلبى رحلاته ومشاهداته فى كتابه الشهير «سياحتنامة» أى كتاب السياحة، وهو من عشرة مجلدات تحتوى على عشرة آلاف صفحة، فهو من أغزر المؤلفين العثمانيين إنتاجاً.

ضم المجلد التاسع رحلته إلى بلاد الشام والحجاز، بينما خصص المجلد العاشر لمشاهداته المفصلة ورحلاته إلى مصر وأفريقية. لقد اعتمدت العديد من دراسات التاريخ العثمانى على مشاهدات وتسجيلات أوليا چلبى الغنية بالتفاصيل والمعلومات، وترجمت أجزاء عديدة من كتابه إلى معظم لغات العالم. لقد سبقت مشاهداته التى سجلها عن رحلته إلى بلاد السودان والحبش وحتى منابع النيل وبحيرة فكتورية مشاهدات الرحالة الأوروبيين التى لم تبدأ إلا فى أواسط القرن التاسع عشر. ولقد استفاد المؤرخ التركى يلماز أوزتونا فى كتابه الموسوم: «تاريخ الدولة العثمانية» كثيراً من كتاب أوليا چلبى فى الجزء الخاص بالوصف الجغرافى للامبراطورية العثمانية، وساهمت الترجمة العربية لكتاب أوزتونا فى إتاحة هذه الفرصة لتعريف القارئ العربى بهذا المؤلف والرحالة العثمانى، وكتابه الذى هو سجل فريد لصفحات نادرة من التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للشرق العربى الإسلامى. وقد ترجم منذ عقود المجلد العاشر منه محمد على عونى، وحققه عبد الوهاب عزام وأحمد السعيد سليمان، وراجعه وقدم له أحمد فؤاد متولى، وقد أعادت دار الكتب والوثائق القومية ☜

سياحة نامة مصر
الرحالة التركى أوليا چلبى
ترجمة: محمد على عونى
تحقيق: د. عبد الوهاب عزام ود. أحمد السعيد سليمان
مراجعة وتقديم: أحمد فؤاد متولى
دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة
٢٠٠٣

تقدم مشاهدات وتسجيلات أولياء چلبى صورة للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشرق العربى

الشرق العثمانى

بالقاهرة نشره فى ٢٠٠٣، وجاءت فى ٦٦٠ صفحة.

وبانتظار أن يحظى المجلد التاسع وغيره من مجلدات الكتاب بجهود المترجمين المختصين لنقله كاملاً إلى لغة الضاد، تأمل هذه الصورة المختارة أن تقدم للقارئ العربى بعض اللمحات عن أحوال مصر والشرق العربى فى أوج الحقبة العثمانية.

تقدم مشاهدات وتسجيلات أولياء چلبى صوره للحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشرق العربى الإسلامى فى مرحلة الذروة من صعود الدولة العثمانية كدولة عالمية وازدهارها وقوتها وامتدادها الهائل وغير المسبوق فى تاريخ حضارات وإمبراطوريات الشرق. وقد لا تتفق هذه الصورة بشكل أو بآخر مع الطريقة التى قدمت بها التجربة العثمانية للأجيال العربية والتركية التى جاءت، بعد انهيار الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. كما قد لا تتفق مع الرواية الرسمية فى العالم العربى وتركية حول تاريخ علاقات العرب والترك، أو حول تقويم النتائج السياسية والحضارية للتجربة العثمانية ككل، وآثارها على العالم العربى. فكثير ما يتم تحميل التاريخ السياسى ما لا يحتمل، لكى يخدم مقاصد الساسة، وأغراض المرحلة الراهنة. بما تحفل من جماعات وأيدلوجيات وعصبيات غالباً ما تلجأ إلى ساحة التاريخ لكى تحسم الصراع فى ساحة عقل وضمير وذاكرة الأمة موضع الصراع، سعياً إلى امتلاك روح تلك الأمة وإلى الشرعية التاريخية التى تحاول تلك السياسات والعصبيات من خلالها أن تتموضع فى السياق التاريخى العام للأمة، وأن تؤسس شرعيتها الخاصة: شرعية الانقلاب أو شرعية الامتداد!

لذلك تصبح دراسة التاريخ الاجتماعى للأمة، وتناول موضوعاته المختلفة، ومن مصادره الأصلية، منهجية صائبة فى قدرتها على تجاوز الدخن والأدلجة التى شاعت فى أدبيات التاريخ السياسى، وصولاً إلى رسم صوره أكثر دقة وموضوعية لتجربة تاريخية معينة، ومحاولة لرؤيتها كما كانت فعلاً. ويكون ذلك عن طريق تتبع حياة مختلف القطاعات أو الشرائح الاجتماعية وهمومها وقضاياها وأفكارها السائدة ومكوناتها الثقافية والأخلاقية والوجدانية، وتكويناتها الإثنية، ومناشطها الاقتصادية والمهنية، وطرائق معيشتها وتقاليدها، وأنماط العمران والمعمار، وبيئات الاجتماع البشرى، وخطط المدن، وكافة مناحى الحراك الاجتماعى والإنسانى. وخير مصدر لمعارف هذه الموضوعات هى وثائق العصر ذاته من مشاهدات الرحالة، ومصنفات كتاب السِير والأخبار، وكتب الخطط، وأسفار أهل الحرف والصنائع (الأصناف)، وسجلات المحاكم الشرعية من عقود ووصايا إرث وطابو ومعاملات، وتواريخ الأعيان ومذكرات المعاصرين للمرحلة، وأرشيف الدول، ومراسلات القناصل وممثلى الشركات الأروبية، وما أنتجه أهل ذلك العصر من أدب ومأثورات محكية ومدونة.

لقد اتسعت كتابات ومرويات أوليا چلبى، فكانت وعاء لمعارف وأحوال عصره، وقد كان ذلك بسبب طريقة كتابته التى اتسمت بالسلاسة والاسترسال والسهولة مع قوة الملاحظة، مما أكسبها قدرة تسجيلية هائلة لا تتوفر لكثير من المصنفين ذوى النزعة التحليلية أو النقدية أو الانتقائية. كما أن شغف المؤلف بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة، وبالحكاية كأساس لهذا النمط من التأليف، ساعد على إغناء نصه، وجعله مصدراً أولياً هاماً للباحثين فى مختلف المجالات، من التاريخ الاجتماعى والاقتصادى إلى التوصيف الجغرافى والثقافة الشعبية والفولكلور وسوسيولوجية المعرفة والإدارة العامة والدراسات السكانية والأنثروبولوجية. وكثيراً ما تختلط مشاهدات المؤلف ومعايناته ومروياته بالمأثورات الشائعة فى ذلك العصر، وهى مؤشرات أو معبرات عن ثقافة الناس ووعيهم التاريخى والدينى وتصوراتهم عن العالم أكثر منها حقائق أو معارف تاريخية ثابتة. لكنها قد تفيد الباحث الذى يتابع فكرة أو ظاهرة أو مغالطة تاريخية معينة، ويريد أن يصل إلى منشأ تلك الفكرة أو الظاهرة، والظروف الاجتماعية والسياسة والثقافية التى نشأت فيها، وصولاً إلى الدوافع والعوامل الكامنة وراءها.

ويلفت الانتباه فى الانطباعات والمشاهدات والروايات التى سجلها أوليا چلبى خلفية المؤلف التى تعبر عن التكوين العام لطبقة المثقفين العثمانيين الأتراك آنذاك، وهو تكوين يعكس كذلك رؤيتهم الكونية للعالم وللذات، كما يدل على توليف ثقافى مركب من التسنن، والعقيدة الأشعرية الماتريدية، والفقه الحنفى، والتصوف المولوى، والتقاليد الإمبراطورية العثمانية، واللغة والتقاليد الاجتماعية التركية، واستانبول كمركز للعالم ونواة الإمبراطورية. ألقى هذا التوليف الفريد آثاره على وعى النخبة العثمانية بذاتها وبالآخر فى عهد قوه وازدهار الإمبراطورية وتفردها كدولة عالمية أولى. يضاف إلى خصائص ذلك العهد حقيقة أن الصعود الأوروبى لم يكن قد بدأ بعد بتحدياته وكوارثه اللاحقة، وأن مراكز ثقل الحضارات والقوى العالمية لا زالت فى قارة أسية عموماً، بل كان معظمها فى حوزة المسلمين خصوصاً، والترك بشكل أخص.

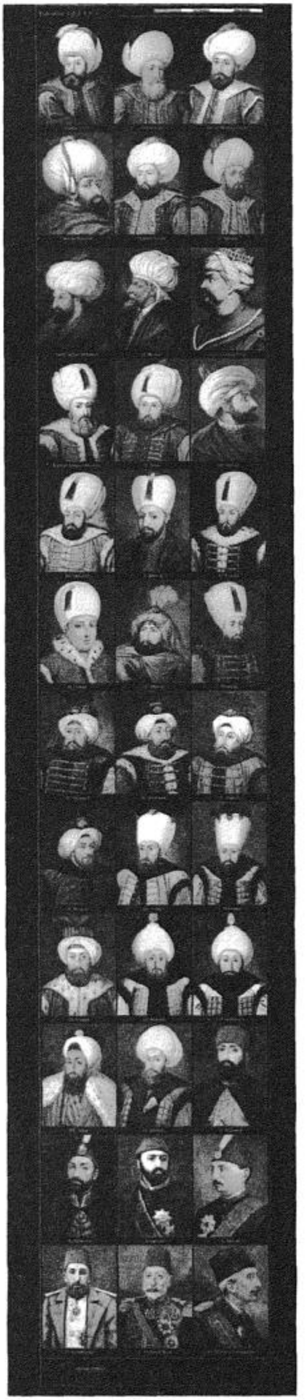
هذا التمثل لتلك الخلفيات والمعطيات جعل المؤلف مسكوناً بالرؤية الإسلامية للعالم كقاعدة وأساس للنظام العالمى، وبدور الترك فى حراسة الدين ونهضة الشرق، وبمركزية السلالة العثمانية أو دور البادشاه (السلطان) كخليفة للمسلمين وإمبراطور للشعوب العثمانية و خاقان للجنس التركى. يضاف إلى ذلك رؤية المؤلف للمذهب الحنفى كأرقى صور التشريع الإسلامى، وما نتج عن تمثله وتطبيقه القانونى فى المجتمع التركى من منظومة اجتماعية وإنسانية وأخلاقية مثلى؛ ولدور التصوف فى التعبير عن الجانب الوجدانى للإنسان والمجتمع؛ وللرقى المعمارى الذى كان مجالاً للإبداع الفنى والتشييد العمرانى المعبر عن الطبيعة الحضارية للتجربة. ويثير الاهتمام أكثر شمولية عناصر ذلك التوليف الثقافى وقدرته على بناء الإجماع اللازم فى عوالمه الثلاثة: الإسلامى والعثمانى والتركى.

لقد حقق ذلك التكوين أو التوليف الثقافى للنخبة (والعامة) التركية - والعثمانية عموماً- حالة التوازن أو التوحد الذاتى إزاء الآخر. سدّت تلك الحالة من التوازن منافذ الفراغ والاختلال، ووفرت الشرط الذاتى لانطلاقة الترك نحو قيادة العالم الإسلامى وبناء الدولة العالمية. وحتى فى فترات التدهور والانحطاط، عندما تراجعت الإمبراطورية إلى المرتبة العالمية الرابعة، شكل هذا التوليف الثقافى قاعدة للصمود ومحاولات الاستنهاض. فقد كان مثلاً رجل التنظيمات والإصلاح الكبير بيوك مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨)، والذى أصبح صدراً أعظم (رئيساً للوزراء) ست مرات، كان يرى أن أسس بقاء الإمبراطورية تنحصر فى أربعة عناصر: ١)الدين الإسلامى، ٢) خاقان من بنى عثمان، ٣) استانبول مدينة للعرش (عاصمة)؛ ٤) واللغة التركية كلغة رسمية. كما كان الأمر كذلك فى فكر السلطان عبد الحميد خان الثانى الذى عمل بدأب ومهارة عالية على توحيد العوالم الثلاثة الإسلامى والعثمانى والتركى حول السلطان والدولة، الأمر الذى ربما قد أدى إلى زيادة سخط القوى الطامعة فى تفتيت وتجزىء الإمبراطورية. ومنذ أن فقد هذا التوازن وحدث الاختلال فى تكوين النخب التركية والشرقية عموماً، دخل الترك ومعهم الشرق كله فى دوامة التجارب والحلقات المفرغة؛ وتعثرت النهضة.

لقد اتسعت
كتابات ومرويات
أوليا چلبى، فكانت وعاء
لمعارف وأحوال
عصره

ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية

قام أوليا چلبى برحلتين إلى بلاد الشام، أولاهما فى عام ١٦٤٩، وقد ضمّن تفاصيلها فى المجلد الثالث من كتابه. وكدأبه فى وصف سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فهو يصف كل ناحية ارتحل إليها من حيث جغرافيتها وموقعها وعدد نفوسها ودورها وقصورها ومدارسها وتكاياها وخاناتها (أسواقها)



ومساجدها وجوامعها وقبور الشخصيات التاريخية بها، وكل ما فيها من معالم تستوقف الرحالة. كما يذكر أحياناً نبذة عن تاريخ هذه المنطقة وقصة دخولها فى حكم العثمانية، ومن تولى إدارتها من الولاة وتاريخهم الشخصى وأدوارهم فى خدمة الدولة، وقضاة المنطقة ومرتبات الولاة و القضاة ومخصصاتهم الأخرى التى تعكس أهمية المنطقة، ووزنها لدى الحكومة العثمانية فى الآستانة، عاصمة الامبراطورية. وقد اهتم أوليا چلبى كذلك بتسجيل حركة الإعمار التى حدثت فى مختلف المناطق فى عهد دخولها تحت حكم آل عثمان، وما تم تشييده من وقفيات ضخمة وأعمال البر والرفاه الاجتماعى التى قام بها مختلف السلاطين والأمراء والأميرات ورجال الدولة الذين تنافسوا فى إنشاء هذه المشروعات الضخمة.

لقد قامت العديد من المؤسسات الاجتماعية بفضل الأوقاف. والوقف يقام أساساً قربى لله تعالى، وهو ليس مجرد بناء؛ فهو يؤمن كذلك الإيراد اللازم لإدامة هذا الوقف قروناً طويلة. كتب الداماد (صهر السلطان) لطفى باشا، الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانونى وزوج أخته، فى مذكراته المعروفة بعنوان «آصف نامة»، وهى من المصادر الكلاسيكية للأدبيات السياسية العثمانية، كتب يقول أن على رجل الدولة المثالى أن يقسم إيراداته إلى ثلاثة أقسام: قسم لنفقاته، وآخر لأعمال الخير، وثالث للادخار. وهكذا كان دأب رجال الدولة والنخبة العثمانية.

وعادة ما يوقف صاحب الوقف (الواقف) مصدراً أو أكثر من مصادر الإيراد لأجل تأمين وإدامة الوقف، من دراهم نقدية أو مزرعة أو خان تجارى أو حمام عمومى أو دار أو غير ذلك. فمثلاً كان فى القاهرة وحدها ٥٥ حماماً كبيراً من الأوقاف التى أوقفها أهل الخير. ويتضمن صك الوقف أو وثيقته الأساسية «وقف نامة» كل ما يتعلق بأغراض الوقف وكيفية تشغيله وإيرادات الوقف، ويسمى مدير الوقف «المتولى»، وكثيراً ما يكون المتولى من نسل الواقف أو من قرابته. وربما كانت تسمية المتولى هى منشأ هذا اللقب الذى تحمله عائلات كثيرة فى المشرق العربى، خصوصاً فى مصر. وتغطى الأوقاف مجالات وأغراض تفوق التصور: من تجهيز بنات الفقراء للزواج إلى رصف الأزقة، وتأمين حاجة إحدى القلاع من البارود، والعناية بطيور اللقالق المعوقة والمريضة، وإطعام الكلاب والقطط، وسداد ديون المسجونين بسبب عجزهم عن السداد، وتأمين حاجة شيخ الجامع الأزهر وزملائه العلماء من وسائل الانتقال، وغير ذلك مالا يمكن حصره من مجالات. وقد فقدت الكثير من موارد الأوقاف الضخمة بسبب خروج البلاد التى كانت بها من حوزة العثمانية وديار الإسلام. من ذلك الأوقاف الضخمة بالمجر والتى كانت مخصصة لجامع سليمانية ومؤسساته فى استانبول، والقرى السلوفاكية التى أوقف ريعها للإنفاق على الحرمين الشريفين، والعقارات اليونانية التى كانت وقفاً للجامع الأزهر. وكانت وزارة الأوقاف المصرية حتى السبعينيات تتلقى إخطارات من الحكومة اليونانية بوجود أوقاف للأزهر فى اليونان.

ومن المؤسسات الخيرية الشائعة فى الحياة العثمانية، والمملوكية من قبلها، المطابخ العامة (بالتركية: عمارت)، وهى تقدم الطعام مجاناً للمعوزين والمسافرين وعابرى السبيل. وقد أسست هذه المطابخ فى كل مكان. وكثيراً ما تكون على طريق القوافل، بل كان الفقراء والمسافرون يدعون ويطعمون. وحتى فى القرى النائية، فقد كان ذلك واجباً اجتماعياً يؤديه أشراف كل منطقة. ثم اتخذ الأمر شكله المؤسسى فى صورة المطابخ العامة التى كانت تقدم وجبتين يومياً لأكثر من ٣٠ ألف شخص فى مدينة استانبول وحدها. وقد كان ضرورياً ان تشتمل تلك الوجبات على لحم الضأن. بلغت ميزانية «عمارت مراد الثانى» السنوية فى مدينة مرادية أدرنة (بالروملى) سنة ١٤٣٦ ما يعادل الآن خمسة ملايين دولار، بينما بلغت ميزانية «عمارت سليمانية» السنوية فى استانبول ثلاثين مليون دولار.

كذلك، كان الكروانسراى -منزل القوافل والمسافرين- أشبه بخان كبير جداً، وكان بعضها كالقلاع المستحكمة. وقد شيدت على طرق التجارة الكبرى خارج المدن، وهى تطعم القادمين إليها وتوفر لهم المبيت أيضاً. ويسمى الكروانسراى الصغير خاناً. وبداخل حدود تركية الحالية، شيد السلاجقة ١١٢ كروانسراى، وشيد العثمانيون ٢٢١ كروانسراى ضخماً جداً، وكلها بنايات فخمة وتعتبر آيات فنية من الناحية المعمارية، و هذه الأرقام لا تشمل ما أنشئ من منشآت مماثلة فى أنحاء الإمبراطورية. كذلك يضم الكروانسراى اسطبلاً ضخماً يتسع لمئات أو آلاف الدواب المرتحلة مع القوافل، ويتكفل بأعلافها والعناية

بها . وللكرونسراى كذلك مسجده أو جامعه الملحق به. ومن وظائف الكرونسراى استضافة الجيوش العابرة وقت الحملات وتزويدها بالماء العذب والثلج الذى يصنع عادة فى الكرونسراى.

كانت أوقاف المياه مجالاً هاماً من مجالات عمل الخير. فقد كان جلب المياه من مواقعها إلى أماكن استهلاكها مشكلة حقيقية. لذلك كان حفر الآبار الارتوازية، وتشييد حنفياتها العامة (الچشمة) من أعمال الخير الكبرى، وكذلك حفر الترع وتمديد خطوط الماء من الينابيع والعيون إلى المدن، وبناء خزانات المياه لاستقبال هذه المياه وتجميع مياه الأمطار، كانت كلها من الاحتياجات الأساسية التى سعى المحسنون إلى تأمينها. أنفق السلطان سليمان القانونى مثلاً ما يعادل ١٤٠ مليون دولار لحل مشكلة ندرة مياه استانبول. وكذلك جلب القانونى ماء وفيراً إلى مكة المكرمة لحاجة أهلها وحجيجها، وسقّف الحرم الشريف بقباب عددها ٣٦٠ قبة. وقد امتد عمل الخير ليشمل تنظيف مجرى الأنهار، فقد أنفق والى بغداد العثمانى مصطفى باشا من ماله الخاص ما يعادل الآن تسعين مليون دولار لتنظيف مجرى نهر دجلة وصيانته للملاحة وغيرها من الأغراض النافعة.

وإذا كان أهل مصر والمشرق العربى لا يزالون يذكرون بالخير والعرفان ما قدمته بنت الخديو إسماعيل باشا الأميرة فاطمة إسماعيل (رحمها الله) من أفضال وهبات عظيمة لجامعة القاهرة قبيل إنشائها سنة ١٩٢٢، فإنها قد شملت بأفضالها كذلك جامعة استانبول التى وهبتها ثروتها البالغة مليونى ليرة ذهبية، وذلك قبيل وفاتها فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٠، عن عمر يناهز ٦٧ عاماً الأمر الذى يؤكد أن حب الخير وأعمال البر قد استمرت فى التجربة العثمانية حتى لحظاتها الأخيرة.

ومن المعالم التى اهتم الرحالة أوليا جلبى بتسجيلها فى كل رحلاته هى الجوامع والمساجد فى كل مدينة أو قصبة، وإحصائها، ووصف المشهور منها، وأنماطها المعمارية المتميزة، ومساحاتها، وشخصيات الذين بنوها أو عمروها لأول مرة، وأولئك الذين أصلحوها أو رمموها فيما بعد، وعدد خدمها وقناديلها وقبابها ونوافذها الداخلية والخارجية، وما أنفق عليها لكى تصل إلى الصورة التى كانت عليها. وبالطبع فإن المؤلف يفرق دائما بين المساجد الكبيرة التى تقام فيها الجمعة فهى «جوامع»، والمساجد التى لا تقام فيها الجمعة، ولا تقرأ فيها الخطبة، وليس لها منابر. ويطلق على الجوامع التى شيدها الخلفاء أو سلاطين المماليك أو العثمانيين أو أعضاء السلالة السلطانية اسم جامع سلطانى (بالتركية: سلاطين جامعى). وهذه الجوامع يكون لها عادة أكثر من مئذنة واحدة، فأغلبها له مئذنتان، والقليل منها له أربع مآذن. وهناك جامع السلطان أحمد الأول باستانبول، وهو الوحيد الذى له ست مآذن. وكان لهذه الجوامع السلطانية رتب فى تشريفات الدولة، وهذه الرتب تتلو بالطبع المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى. وبعد الجوامع السلطانية تأتى جوامع الوزراء وكبار رجال الدولة وأهل الخير الآخرين. وغالبا فإن وجود الجوامع والمساجد، ومستواها فى التشريفات وأعدادها، فى مدينة أو قصبة معينة يدل على الأهمية الإدارية والسياسية لتلك المنطقة، ووضعها كعاصمة أو مركز لواء أو قضاء أو ناحية، وكثافة العمران البشرى فى تلك المنطقة، وازدهارها الاقتصادى، وشخصيتها الاجتماعية والثقافية.

كانت استانبول، شأنها شأن القاهرة والشام وبغداد ومكة المكرمة، وغيرها من حواضر العالم الإسلامى الكبرى، مدينة للجوامع، فقد أحصى المؤرخ النمساوى هامر فى القرن الثامن عشر بها ٨٧٧ جامعا بأسمائها، ومنها ١٩ جامعا سلطانيا. ويدهش المرء لضخامة الموارد التى أوقفها مؤسسو هذه المساجد للإنفاق عليها وعلى المعوزين الذين تؤمن حاجاتهم من هذه الموارد. وقد شيدت آلاف الجوامع والمساجد فى تلك الحقب، بعضها تم بناؤه فى القرى المتواضعة. ورغم قيام الروس بتدمير جوامع كثيرة فى شبه جزيرة القرم فى الفترة ١٧٧١-١٨٠٥، فقد بقى فى نهاية تلك الفترة ١٥٥٨ جامعا ولها ٥١٣٩ إماما وخطيبا. أما فى ١٩١٤، فقد كان هناك ٩٤٢ إماما وخطيبا، وبزوال الاتحاد السوفياتى، لم يكن قد بقى جامع أو مسجد واحد. أما فى المجر، فقد بقى جامع واحد فقط، والأمر كذلك فى كثير من الأقطار العثمانية السابقة فى أوروبة.

وبناء على ترتيب الجوامع فى تشريفات الدولة أو الإيالة، فإن الجامع الأول فيها يسمى بالتركية «أولو جامع». وقد كان جامع أيا صوفيا هو الجامع الأول فى عاصمة الخلافة استانبول، وكذلك كان الأمر بالنسبة للجامع الأموى فى الشام، وجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، والجامع الأزهر بالقاهرة. وعند تعدد الجوامع فى المدينة أو القصبة الواحدة، يكون الجامع السلطانى من بينها هو الجامع الأول الذى يؤمه بالذات الوالى أو أمير اللواء أو الحاكم المحلى للمنطقة، ويحظى بدور خاص فى الاحتفالات والشعائر الكبرى، ويكون لخطيبه أو إمامه أسبقية بين أهل العلم.

يحرص المؤلف كذلك على التمييز بين «المكتب» و«المدرسة»، عندما يقدم تعداد كل منهما فى أى مدينة أو قصبة. فكان يطلق على المدرسة التى يتلقى فيها التلميذ تعليمه الأولى أو الابتدائى اسم «مكتب»، ويسمى مدرسها «خواجة» أو خوجا كما تلفظ بالتركية العثمانية. كان التعليم الابتدائى (تعليم المكاتب) واسع الانتشار فى القرن السادس عشر، لكنه تردى كثيرا فى القرون اللاحقة، ولم ينهض بعد ذلك إلا بعد بدء عصر التنظيمات فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ورغم صدور فرمانات (أوامر سلطانية) فى عهد السلطان سليمان القانونى والسلطان محمود الثانى تقضى بإلزامية التعليم فى المرحلة الابتدائية، فإن مبدأ التعليم الإلزامى لم يطبق فى أى وقت من الأوقات.

كان التعليم الابتدائى بسيطا فى ذلك الزمان، وهو عبارة عن مواد تعلم القراءة والكتابة وإتقان تلاوة القرآن وحفظ بعضه، والعمليات الحسابية الأساسية، والمعارف الإسلامية الضرورية، ثم أضيفت لاحقا مادتا التاريخ والجغرافية. أما فى بعض المدن الكبيرة التى بها مكاتب راقية، فتدرس بها الموسيقى والخط واللغة الفارسية، إضافة إلى اللغتين العربية أو التركية. كان التعليم فى المكتب مختلطا، أى تدرس فيه البنات مع الأولاد، وتبدأ دراستهم بين الرابعة والسادسة، وتستغرق الدراسة أربع سنوات أو أكثر بحسب سن الطفل عند البداية. كان الصبيان والبنات يجلسون فى نفس الفصل الدراسى ولكن على مقاعد منفصلة، وكلهم يغطون رؤوسهم، فالرأس الحاسرة آنذاك كانت علامة على قلة الاحترام وعدم إطاعة النظام.

كذلك كانت مكاتب تحفيظ القرآن (الكتاب) مجالا آخر للتعليم الابتدائى، وكانت كذلك واسعة الانتشار، كما كان فى التكايا مكاتب لتعليم فن الخط. كان عدد تلاميذ المكتب العادى أقل من مائة تلميذ، وبعضها يتراوح عددهم بها بين ٢٠-٣٠ تلميذا. والمكاتب الكبيرة فعلا كانت معدودة، ويسمى الواحد منها «طاش مكتب». بلغ عدد مدارس القاهرة وضواحيها أو مدنها المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر حوالى ٦١٧٦ مدرسة (مكتبا)، كما بلغ عددها فى مدينة استانبول (بدون ضواحيها) ١٩٩٣ مدرسة. كان معتادا أن يكون بين مدرسى مدارس القاهرة أو الشام أو حتى مكة المكرمة أتراك من الأناضول، وربما هذا ما يفسر منشأ لقب «خوجة»، الذى تحمله بعض العائلات فى تلك الديار إلى اليوم.

أما المدرسة فهى المؤسسة الثقافية التعليمية الرئيسية فى الفترة الكلاسيكية للدولة العثمانية. وهى المؤسسة التى تدرس باللغتين العربية والتركية، وتتكون من قسمين: متوسط وعال. كان إتمام الدراسة الابتدائية (بالمكاتب) أو ما يعادلها شرطا للالتحاق بالقسم المتوسط من المدرسة. كانت

يحرص المؤلف كذلك على التمييز بين «المكتب» و«المدرسة»، عندما يقدم تعداد كل منهما فى أى مدينة أو قصبة

بلــــــغ عــــــدد المــــــدارس المتوسطـــــة والعاليـــــة بمصـــــر حـــــوالى ٣٦٠٠ مدرســـــة

المدارس ذات المراحل العالية موجودة فى المدن الكبيرة كاستانبول والقاهرة وأدرنة وبغداد والشام وحلب وقونية ومكة المكرمة والمدينة المنورة، بينما كانت المدارس المتوسطة فى كل مدينة وقصبة. كانت شهادة استانبول العالية (وتسمى رؤوس استانبول) لها أعلى اعتبار لدى الدولة، خصوصا من مدرستى سليمانية وفاتح التى شكلت فيما بعد نواة جامعة استانبول. وربما بسبب ذلك فقد قل كثيرا شباب الأناضول الذين كانوا يقصدون مصر والشام والعراق وإيران وتركستان لغرض التحصيل العلمى والتخصص فى مدارسها العالية بعد القرن السادس عشر. كانت الدراسة فى المدرسة تنقسم إلى ١٢ درجة بعد الدراسة الابتدائية، والدرجات الأربع الأخيرة هى مرحلة الدراسة العالية، ويسمى مدرسو المرحلة العالية «كبار المدرسين»، ويطلق على طلبتها «طلبة علوم» أو «صوفتة»، ويلقون احتراما اجتماعيا خاصا. ويسمى طالب العلوم الذى يختاره المدرس مساعدا له «دانشمند»، وهذا بدوره إذا حصل على الشهادة العالية يصبح «معيدا» أى رئيسا للمساعدين، ثم يصبح «ملازما»، ثم يبدأ فى اجتياز درجات المدرسين. لا يمكن لمدرس أن يصبح قاضيا ما لم يحصل على درجة كبار المدرسين.

بلغ عدد المدارس المتوسطة والعالية بمصر فى القرن السادس عشر، أى أواخر عهد المماليك وأوائل عهد العثمانيين حوالى ٣٦٠٠ مدرسة، زال أكثرها فيما بعد. كذلك بلغ عدد مدارس استانبول بدون ضواحيها فى أواسط القرن السابع عشر حوالى ٦٣ مدرسة متوسطة، ومدرستان عاليتان طلابهما ٧٠٠٠ طالب تقريبا. أكثر الطلاب لا يصلون فى الدراسة إلى القسم العالى، بل يتركون الدراسة بنهاية المرحلة المتوسطة ليعملوا فى وظائف الإمامة والتدريس الابتدائى. تأسست مدرسة فاتح باستانبول سنة ١٤٥٣، وكانت تشتمل على ثمانى كليات تسمى «صحن الثمانى»، وبها ٣٠٠ غرفة، ومطبخها له ٧٠ قبة، ويخدمها ٣٠٠ خادم. أعلى المدرسين درجة فى الإمبراطورية هو مدرس «دار الحديث»، وهو كذلك عميد مدرسة سليمانية التى أنشأها القانونى، وراتبه الشهرى يعادل عشرين ألف دولار بالقيمة الحالية.

اعترى الفساد نظام المدرسة اعتبارا من أواخر القرن السادس عشر، وبنهاية القرن الثامن عشر، أصبح عاجزا عن الوفاء بحاجة المجتمع والدولة، ولا يلائم العصر، بل لم يعد لمدرس القرن الثامن عشر معلومات طالب المدرسة العالية (صوفتة) فى القرن السادس عشر. ولم يعد هناك مناهج منتظمة حتى فى مرحلة الدراسة المتوسطة للعلوم الدينية فى مدارس الشام أو مكة أو المدينة التى أنشأها القانونى كمدارس عالية. الأمر الذى حدا بالدولة إلى تأسيس مدارس جديدة مثل «معلمخانة نواب» فى ١٨٥٤ لتخريج قضاة الشرع، ثم افتتح قسم الدكتوراه بها سنة ١٩١٤. وجعلت مدرسة دار الخلافة العليا باستانبول جامعة دينية نموذجية، وفتح بها من ناحية أخرى قسم دراسة علوم الإلهيات. وكانت الخطة تشمل أيضا تأسيس مدرسة صلاح الدين الأيوبى فى القدس، لتكون كذلك جامعة دينية بالمواصفات ذاتها. لكن اشتعال الحرب العالمية الأولى حال دون ذلك. وبينما كان يؤمل من مدرسة استانبول بأن تكون جامعة أزهر ثانية، ناءت هى كذلك تحت أنقاض الحرب العالمية، وكان بها فى ١٩١٦ أكثر من مائة أستاذ قدير، وكذلك ١٣٥٤ طالبا.

كانت الطرق الصوفية والتكايا احتياجات لاغنى عنها فى الحياة الاجتماعية العثمانية. ففى كل قصبة توجد تكية على الأقل، وهناك تكايا خاصة لطرق عديدة فى كل مدينة، وهى بمثابة النوادى الاجتماعية لذلك العهد. تجرى فى التكايا أحاديث ومسامرات علمية وفنية وتصوفية، واحتفالات وفقا لما تقضيه آداب وأعراف كل طريقة، كما تعلم فيها صناعات وعلوم وآداب ولغات عدة. لقد كانت الطرق والتكايا مؤسسات تربوية وتعليمية لا مثيل لها فى زمنها.

كانت الطريقة النقشبندية (النقشية) التى نشأت فى تركستان منتشرة جدا فى الشرق العربى وتركية أيضا، وكذلك كانت الطرق ذات المنشأ العربى كالقادرية (الجيلانية)، والرفاعية، والخلوتية. وكذلك كانت هناك طرق تركية كالمولوية، والبكتاشية، والقلندرية، والسنبلية (فرع الخلوتية)، والجلوتية، والبايرامية، والكلشنية، والملامتية، والعشاقية (شعبة من الخلوتية)، والسعدية (شعبة من الرفاعية). لكن أكثرها انتشارا بين العامة والجند هى البكتاشية، وبين المثقفين هى المولوية، وكان الانكشارية بكتاشيين. تنسب البكتاشية إلى حاجى بكتاش ولى، وتنسب المولوية إلى مولانا جلال الدين الرومى، وكلاهما جاء من خراسان إلى الأناضول فى دور انهيار الدولة السلجوقية.

كان يطلق على التكية الصغيرة زاوية، والكبيرة دركاه، والأكبر أستانة. ولكل تكية شيخ، وهو بدوره ينشأ ويتعلم ويتدرب بانتسابه إلى شيخ آخر أسبق منه. وهكذا تتدرج سلسلة المشيخة حتى تصل أو تتصل بالمتصوفين القدامى (الأقطاب) قبل عدة قرون. كان التصوف عنصرا هاما من عناصر الحياة العثمانية، وكثيرا ما تدور مشيخة الطريقة فى أسرة واحدة، من ذلك مثلا سلالة مولانا جلال الدين الرومى (رحمه الله) التى تولت مشيخة الطريقة المولوية لقرون. يعيش التصوف والطرق فى القلوب كذوق روحانى، وقد كان للمرأة فى الحياة الاجتماعية العثمانية توجه قوى نحو التصوف، وكانت فى التكايا ساعات مخصصة لاستقبال النساء فقط.

كان المسيحيون كذلك يدخلون التكايا لحب الاستطلاع ولشهود بعض الاحتفالات، وأشهرها احتفال المولوية المسمى آيين شريف «مولوى»، وهو طقس موسيقى ورقص صوفى كرقصة السما، ويجرى الاحتفال بالقراءة والعزف الذى يطلق عليه «سماع». كانت الكلمات التى تنشد فى المراسم منتجات من الشعر الصوفى من ديوان «مثنوى» لمولانا جلال الدين الرومى، وقد لحنها ملحنون قديرون. كان السماع يجرى لمرة واحدة أسبوعيا فى التكايا المولوية، ويسمى «مقابلة». وكان بعض هذه التكايا الكبيرة مدارس حقيقية لتعليم الموسيقى واللغة الفارسية (لغة شعر مولانا جلال الدين الرومى).

كانـــت الطـــرق الصـــوفيـــة والتكايـــا احتياجـــات لاغنـــى عـــنها فى الحيـــاة الاجتماعيـــة العثمانيـــــة

كان لكل تكية محبوها أو مؤيدوها الذين يدعمونها وينفقون عليها، ولها كذلك أتباعها وهم الدراويش المحيطون بشيخ التكية ويقيمون بها. إن نظام طاعة الدراويش هو أشبه بنظام الجيش، فأمر الشيخ لايناقش، ولا يفكر فى علته. وباستثناء بعض التكايا التى حافظت على مستواها الأصلى، فقد تدهورت أوضاع التكايا، وأصبحت ملجأ للمسكنة والكسل والبطالة، وضاعت بالتالى الوظيفة والصيغة الأصلية للدراويش والتى أكسبتهم مكانتهم فى التجربة العثمانية، فقد اشتركوا بصورة فعلية فى الجهاد وتأسيس الدولة، ويطلق عليهم الدراويش الغزاة (بالتركية: درفيش غازيلر). وقد أدوا كذلك دورا هاما فى تأسيس المجتمع الإسلامى فى روملى، والحفاظ على حيوية وبناء شخصيته وثقافته.

كثيرا ما يسرد أوليا چلبى أعداد فرسان «تيمارلى سباهى»، الذين تقدمهم كل منطقة. وتشكيلات تيمارلى سباهى هى جيش من الخيالة، بل هى أهم صنف خيالة فى الجيش العثمانى. وقد بدأت هذه التشكيلات مع بداية بداية قيام الدولة، فانتشر هذا النظام فى كل أطراف الأناضول وروملى (القسم الأوروبى من الإمبراطورية). والتيمارلى سباهى، أو خيال الأقاليم، لا يتقاضى راتبا من الدولة، بل يقطع أرضا زراعية تسمى «تيمار» إن كانت صغيرة، أو «زعامت» إن كانت كبيرة. ويقوم ضابط السباهى الكبير (زعيم) بجمع الخراج من الفلاحين فى تيماره أو إقطاعيته ويأخذها لنفسه، وذلك مقابل اشتراكه فى القتال مع جنوده من الخيالة بأعداد وتجهيزات متناسبة مع مساحة ومحصول إقطاعيته.

كذلك، يعتبر الزعيم أو

صاحب التيمار مسئولا عن الأمن فى الأراضى التى يديرها وقت السلم. وقد يكون التيمار قرية بكاملها أو عدة قرى أو قسماً من قرية، ولا يمكن لصاحب التيمار أن يجبى خراجاً أكثر مما تقره القوانين. وعند استدعاء السباهيين (الخيالة) للقتال، يذهب كل سباهى بكامل عدته وجهازه إلى زعيمه الذى ينضم بدوره (ومعه جنوده) إلى مركز آمر الكتيبة (آلاى بك)، وهؤلاء بدورهم يقودون كتائبهم إلى مركز أمر اللواء (السنجق بك)، وهو بدوره يعبىء كتائبه باتجاه مقر الفريق أول (البكلربك)، وهو فى العادة أعلى سلطة فى ولايته، فيلتحق و قواته بالسرعسكر، أى قائد ورئيس أركان الجيش العثمانى. تجرى هذه التعبئة ضمن مخطط معين وبسرعة هائلة بمقياس ذلك الزمان.

بدأ نظام الإقطاع (التيمارلى) فى عهد السلاجقة الذين سبقوا العثمانيين إليه، وكان للسلاجقة نوعان من الجند: تيمارلى، وقابوقولو أو قوات المركز وهى تتقاضى رواتب. والسباهى هو الخيال الذى لا يملك الأرض بل يديرها، فصاحب الأرض هو الدولة، والقروى يخدم الأرض باسم الدولة. أما التيمارلى فهو الجندى الذى يجمع خراج الأرض ويؤمن نظام الدولة فيها. وفى حالة غياب التيمارلى فى الحملة مع الجيش، ينوب عنه فى إدارة التيمار وكيله المعروف بال «قوروجو». وإذا مات التيمارلى، يثبت فى إدارة التيمار ابنه أو أخوه أو ابن أخيه. أما إذا لم يكن هناك من أسرته أو عشيرته من يحل محله، فتسترد الدولة التيمار، وتعهد به إلى أسرة أو عشيرة أخرى. لم يتأسس هذا النظام خارج نواة الإمبراطورية العثمانية فى الأناضول إلا فى إيالات روملى (بعض الجزء الأوروبى) وإيالة الشام. ويذكر أوليا جلبى أنه فى عام ١٦٥٠ كان للدولة من جنود التيمارلى وعلوفه لى (جنود الرواتب) ما مجموعه ٥٦٦ ألفاً، وكانت جيوش البلاد ذات الحكم الذاتى التابعة للعثمانية - كالمجر ورومانيا (أفلاق وبغدان)- ووحدات المتطوعين والمساعدة خارج هذا العدد.

كانت المكون البشرى الأساس لخيالة التيمارلى هى العشائر ذات الأصل التركمانى، وما اتصل بها من أعراق كالتتر والشركس والشيشان والأبخاز (الأباظة)، ولم يعرف عن العرب انخراطهم فى هذا النظام. وكانت العشائر ذات الأصل التركى والتى يطلق عليها «تركمن» إذا انتقلت إلى الأناضول تصبح عثمانية، أما إذا سكنوا مدن الأناضول فيصبحون أتراكاً. لعب السباهية دوراً كبيراً فى أسلمة الأناضول وروملى وصبغهما بالثقافة التركية. وأخذ هذا الصنف من الجيش يتضاءل باستمرار اعتبارا من الربع الأخير للقرن السادس عشر، ثم ألغى عام ١٨٥٠، لأن أهمية المشاة أخذت بالازدياد على مر الزمن بالنسبة للخيالة، بسبب تقدم تقنية البنادق وأسلحة الرمى النارية الفردية والمدفعية.

بعد حل نظام التيمار، اختلت ملكية الأراضى العثمانية، وحل محل سباهية التيمار ملاك استحوذوا على هذه الأراضى بشكل أو بآخر، وزعموا أنهم أصحابها الشرعيون مع أن كيفية حيازتهم لها فى أواخر القرن الثامن عشر فى الأناضول وروملى مجهولة، لكن المعروف أن الإقطاعيين «ده ده بكى»، الذين استولوا على الأرض لم يحصلوا عليها بالفتوحات أو الشراء. ومع أن رائد الإصلاحات والتنظيمات العثمانية السلطان محمود الثانى لم يرحم أولئك الإقطاعيين، إلا أن بعضهم تمكن من الحصول على الأرض بعد صدور التنظيمات والتى تم بمقتضاها بيع أو تمليك أراضى الدولة، وتكونت طبقة ملاك الأرض الزراعية من أصول يعود بعضها إلى عشائر التيمار السابقة وإلى إقطاعيى «ده ده بكى»، وغيرهم كذلك.

أما فى بلاد الشام فقد استقرت عشائر تركمانية عديدة واستعربت، وخدمت أدواراً عديدة فى الإدارة وغيرها. من هذه العشائر مثلاً آل العظم أحفاد كميك أوغوللرى، وهو من بكوات التركمان الذين هاجروا فى أواخر القرن السابع عشر من قونية فى الأناضول إلى معرة النعمان فى الشام، وشغلوا مناصب ولاة عثمانيين آماداً طويلة، ثم أصبحوا إحدى عائلات وزراء العثمانيين النموذجية التى قدمت للدولة العثمانية ٢٥ وزيراً و مائة باشا تقريباً.

يلقى نظام التيمار وما تلاه من تطورات ضوءاً على الأدوار التى مرت بها ملكية الأرض الزراعية فى العالم الإسلامى، وهى مسألة هامة شغلت الفكر والفقه الإسلامى قروناً منذ أن فتحت أرض السواد بالعراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، الذى لم ير اعتبارها كباقى الغنائم التى توزع أربعة أخماسها على الجند، واستبقاها لتكون قاعدة اقتصادية لمشروع الفتح فى زمانه، ومصدراً لثروة الأمة مستقبلاً. كما تلقى المسألة ضوءاً على التاريخ الاجتماعى لعائلات كبار ملاك الأرض الذين آلت إليهم ملكية هذه الأراضى بعد اضمحلال وإلغاء نظام التيمار.

ويلاحظ أن بعض الألوية التابعة لإيالة معينة وأحياناً إيالة بكاملها لم تؤسس فيها تشكيلات التيمارلى سباهى، وذلك بسبب عدم وجود الأتراك أو بالأحرى عشائر التركمان بهذه المناطق، ولكون معظم سكانها من العرب. غير أن مصر مثلاً لم تؤسس بها تشكيلات التيمار العثمانى لسبب آخر، وهو وجود نظام الإقطاع العسكرى بها أواخر عهد الأيوبيين، حيث تولى السلطنة بعد نهاية الدولة الأيوبية عهدان من المماليك، والذين سميت سلطنتهم «الدولة التركية» بصورة رسمية. والعهدان هما: المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٨٢)، وهم من أتراك الأوغز والكومان والقبجاق، وقد جلب أغلبهم من سهل القبجاق، وهى أوكرانية الحالية؛ ثم المماليك البرجية (١٣٨٢-١٥١٧)، وأغلبهم من الشركس والأبخار (الأباظة) الذين استتركوا، أى أصبحوا أتراكاً؛ وغلبت عليهم اللغة والثقافة التركية. فكان الإقطاع العسكرى هو النظام الذى شكل القاعدة الاقتصادية والإدارية لنظام المماليك. ومن المعلوم مثلاً أن ثانى سلاطين المماليك البحرية، الملك المظفر سيف الدين قطز، قد أقطع زميله بيبرس قصبة قليوب لإدارتها وتحصيل خراجها الذى كان يغطى نفقات المماليك التابعين له. والجدير بالذكر أن قطز نفسه لم يكن من مماليك القبجاق بل ينحدر من سلالة خوارزم شاه التى تركزت دولتها فى إيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، وكانت قاعدتها سمرقند. واستمر نظام الإقطاع العسكرى حتى بعد دخول مصر فى حوزة العثمانيين، لأن العثمانية احتفظت بالكثير من إدارة وعساكر المماليك فى مصر، لكنها أرسلت عساكر من استانبول كذلك، وقد تجاوز عددهم ٢٠ ألف جندى فى زمان أوليا جلبى.

كان الإقطاع العسكرى هو النظام الذى شكل القاعدة الاقتصادية والإدارية لنظام المماليك

يلاحظ كذلك أن نظام إدارة الأقاليم فى المشرق العربى قد استقر إلى حد كبير منذ عهد المماليك والعثمانيين إلى الآن، بما فى ذلك هيكلة المناطق ووحداتها الإدارية من إيالات (ولايات)، وألوية (محافظات)، وأقضية (مديريات)، ونواح، وقرى، على الترتيب. كما يلاحظ أن التغييرات التى حدثت فى تقسيم وإدارة الأقاليم والمناطق، منذ ذلك الزمان وحتى قيام الدولة القومية (الوطنية) المعاصرة، كانت طفيفة فى حالة الدول التى تطابقت فيها حدود الدولة مع حدود الإيالة العثمانية السابقة، مثل مصر، لكنها كانت أعمق أثرا فى حالة الدول التى شهدت حالة من التجزئة والتفتيت لتلائم المخططات الجيوسياسية والمصالح الإستراتيجية للدول الكبرى المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى، كما فى مثال بلاد الشام والعراق «سايكس-بيكو»، وامتداداتها التى رسمت معظم حدود التجزئة الراهنة.

من ناحية أخرى، يلاحظ أن التقسيمات الإدارية أو المناطقية للقرى والنواح والأقضية والألوية جاءت متوازية مع حدود الصلات العشائرية والقبلية ودوائر النفوذ والعصبيات المناطقية، والارتباطات القائمة أصلا بين الأطراف والمراكز، وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية على العناصر المكونة لكل وحدة إدارية. لذلك، كانت تلك

التقسيمات انعكاسا لصورة تلك الأوضاع بأبعادها المختلفة، وتكريسا لها فى آن واحد. كذلك، لم تكن تلك التقسيمات متجمدة عند صورتها فى مرحلة أو حقبة معينة، فكثيرا ما كان يؤسس لواء جديدا، أو يلغى لواء ليضم إلى لواء آخر بسبب تغير العوامل أو الظروف السكانية أو الاقتصادية أو الإستراتيجية ذات الصلة بتشكيل ذلك اللواء. وأحيانا ينقل مركز الإيالة أو اللواء أو القضاء من مدينة إلى أخرى رغبة فى إنماء الأخيرة، أو تعزيزا لوضعها الإستراتيجى، أو اتخاذها قاعدة لمشروع جديد، أو استجابة للحاجات الاجتماعية أو الاقتصادية المستجدة.

كان لإيالة مصر الرتبة الأولى فى التشريفات (البروتوكول) العثمانية، كما كان لواليها الوزير المكانة الأولى بين ولاة الإيالات فى الديوان الهمايونى (الامبراطورى). وتتلو مصر إيالة المجر (بالتركية: بودين، وهو الاسم التركى لبودابست)، وكانت لإيالة روملى الرتبة الثالثة، وبعدها إيالة حبش التى لها الرتبة الرابعة، ثم إيالة بغداد لها الرتبة الخامسة، ولإيالة اليمن الرتبة السادسة، ولإيالة الشام الرتبة السابعة. ويظهر من هذا الترتيب أن الوزن الاستراتيجى للإيالة هو المعيار الأول الذى يحدد أهميتها ومكانتها بين إيالات الإمبراطورية، إضافة إلى وزنها السكانى والاقتصادى ومساحتها، ومكانتها الرمزية أو المعنوية.

كان القاضى العثمانى قبل إعلان وبدء عصر التنظيمات (١٨٣٩) حاكماً فى أمور التقاضى والحقوق، كما كان فى نفس الوقت رئيساً لبلدية موقعه، فكان ينظر فى الدعاوى القضائية قبل الظهر، وفى أمور البلدية بعد الظهر. كما كان القاضى الصغير الذى يسمى نائبا هو الآمر الملكى لناحيته؛ أى أنه مدير الناحية ورئيس بلديتها وحاكمها كذلك. أما الشخص الذى يدعى قاضياً، فكان هو الآمر الملكى لقضائه (إقليمه أو ناحيته)، فهو قائم مقام القضاء، وفى نفس الوقت هو رئيس بلدية القضاء وحاكمه. ويسمى القاضى فى مراكز الألوية (المحافظات) أو مراكز الإيالات (الولايات/الأقطار) «ملا»، وتعنى القاضى. والملا هو رئيس بلدية تلك المدينة كذلك وحاكمها (فى أمور الدعاوى)، لكنه ليس آمرها الملكى. فالآمر الملكى هناك هو أمير اللواء (السنجق بك)، وفى مركز الإيالة هو الفريق أول الوالى (البكلربك). لذلك، عندما يتحدث أوليا چلبى عن مخصصات القضاة، فهو فى الحقيقة يعنى ميزانية البلديات والمحاكم معا، وما يتبعها من أجهزة عدلية وشرطية وبلدية وأنشطة وواجبات ذات صلة.

كان القضاة يحكمون فى القضايا الجزائية والدعاوى العامة دائما بموجب الفقه الحنفى والقوانين الصادرة باسم الخاقان (الإمبراطور). كان من المبادئ الأساسية للإدارة العثمانية عدم امكان صدور الجزاء أو إنفاذه بدون حكم القاضى. يستثنى من ذلك قضايا أمن الدولة، فقد كانت من اختصاص أمير اللواء أو والى الإيالة. كان القرار الذى يصدره القاضى ينفذ على الفور، ما عدا حكم الإعدام، إذ يمثل المحكوم عليه أمام أمير اللواء (أو والى الإيالة) ومعه حجة (حكم) القاضى. فالقاضى لا يمكنه الأمر شخصيا بإنفاذ حكم الإعدام، لأن أمر التنفيذ هو من صلاحيات أمير اللواء أو والى الإيالة. والقرار النهائى يعطيه قاضى عسكر روملى إن كانت القضية فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية، أو قاضى عسكر الأناضول فهو المسئول عن كل قضاة الإمبراطورية الآخرين.

وفى مصر مثلا، كانت القاهرة هى أكثر مدن الامبراطورية سكاناً بعد استانبول، وكان يطلق على قاضى القاهرة «مصرقاضيسى»، أو «مصرأفنديسى»، أى قاضى مصر. كان أول من تولى قضاء مصر للعثمانيين هو كمال باشزاده أحمد شمس الدين أفندى (١٥١٧)، وهو من أكبر علماء العثمانية، وصار فيما بعد شيخا للإسلام، وصنف مئات الرسائل والمؤلفات باللغات العربية والفارسية والتركية. كان بإمرة قاضى مصر مائة موظف ومائة خادم وثلاث مائة محضر (شرطية عدلية)، وله مستشارون من المذاهب الأربعة. وقد جمعت سجلات المحاكم فى بناية ذات قبة حجرية، وقد تراكمت الوثائق من عهد عمر بن الخطاب (رض) على شكل جبل من الأوراق. إضافة لمسئوليات قاضى مصر كرئيس لبلدية القاهرة، فقد كان يدير فى معيته ثمانين قاضيا من قضاة مصر، أكثرهم لم يكونوا من استانبول، بل مصريون شافعيون، وبينهم كذلك مالكية وحنابلة، لكن قضاة مصر المحليين لا يستطيعون مزاولة القضاء خارج مصر. ■

كتاب الزاوية

شعراء الصوفية المجهولون (٢)

شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِى

(المقتول ٥٨٧ هجرية)

لأنوارِ نورِ الله فى القلبِ أسرارُ
وللسِّرِّ فى سِرِّ المُحبين أسرارُ
ولَمَّا حَضَرْنا للسرورِ بمجلسٍ
وحَفَّ بنا من عالمِ الغيبِ إسرارُ
ودارتْ علينا للمعارف قهوةٌ
يطوفُ بها من جوهر العقلِ خَمَّارُ
فلمَّا شربناها بأفواهِ فَهْمِنا
أضاءَ لنا منها شموسٌ وأقمارُ
وخَاطَبَنا فى سُكْرِنا عند صَحْوِنا
قديمٌ عليمٌ دائمُ العفوِ جبارُ
وكَاشَفَنا حتى رأيناهُ جهرةً
بأبصارِ صدقٍ لا تُواريهِ أسْتارُ
فَغِبْنَا به عَنَّا وَنِلْنَا مرادنا
ولم تبقَ فينا بعدَ ذلك آثارُ
سَجَدنا سُجُودًا حين قال تمتَّعوا
برؤيتِنا إنِّى أنا لكُمُ جارُ

(الطويل)

فى ذكرياتى ويومياتى ما يقول بأنه كانت هناك مؤامرة مقصودة للتعتيم على الجارم

هؤلاء تآمروا على أبى!!

■■ كان على الجارم محط حسد وبغض كثيرين حاروا فى أمره فلم يجدوا أمامهم غير التعتيم على سيرته. كانت سيرة «على الجارم» فوق مستوى الشبهات ناصعة البياض، لا يطعن فيها حتى من كان قدماً أو مخبولاً. أم سيقولون أنه وظف شعره لمدح الملكين فؤاد وفاروق، وسيقولون إنه شاعر تقليدى يحافظ على قواعد الشعر العربى الأصيل والرصين وليس مجدداً (أو حداثياً) ليسلك المناهج الحديثة فى الشعر مثل شعر التفعيلة والشعر الحر، أى الذى بدون قواعد وبدون وزن وبدون موسيقى وبدون هدف؟! أو يقولون إنه شاعر مناسبات أى ليس شاعراً وجدانياً، وإنما ينظم فقط لخدمة هذه المناسبات؟! كل هذه التبريرات اخترعت اختراعاً من أجل رسم خريطة التهجم على «الجارم» فى تلك الأيام البعيدة من الخمسينيات والستينيات واستكمالا لمؤامرة التعتيم عليه.

للأدب فلن يضيره ما يرجف به كاتب لا يستطيع أن يقرأ قصيدة عربية صحيحة، ثم يزعم لنفسه ريادة للنقد وتخطيطاً للأدب وقدرة على الهدم دون الإنشاء: وهو يقصد الكاتب محمد مندور فى كتابه «الشعر المصرى بعد شوقى» والذى ظهرت أولى حلقاته عام ١٩٥٥ والثانية عام ١٩٥٧ والثالثة عام ١٩٥٨. ويقول مرة أخرى فى مقدمة كتابه «على الجارم شاعر العروبة»: «لقد كان من العجب أن تصدر الدراسات المبسوطة عن شعراء يعدون فى مرتبة التلاميذ للجارم وأن يشيح أصحاب الأقلام عن الإشادة بأدب شاعر تولى الزعامة الأدبية بعد شوقى: وجمع الأمة العربية على وحدة هتف بها الشعر قبل أن يسعى لها ذوو السياسة وقد أشرت إلى ذلك فى هذه الصفحات لأحفظ للرجل الكبير مكانه الرائد بين النابهين، وفى

على «مؤامرة الصمت» التى حيكت على «الجارم»، وأخبرنى إنه شاهد على بعض خيوط هذه المؤامرة عندما اقترح عمل ملف دراسى عن «الجارم» بمجلة «الرسالة» فى الستينيات - وكان يرأس تحريرها لعلاقته الوثيقة بالأستاذ فتحى رضوان وزير الثقافة فى هذه المرحلة الزمنية: إلا أن التعليمات صدرت لهم من الرقابة بإلغاء هذا المشروع الذى لم يتم بالطبع.

وكان من غباء هذه الرقابة العسكرية فى ذلك الوقت، أن أمرت بحجب دواوين الشعراء الكبار أمثال شوقى والجارم بحجة أن لهم قصائد فى مدح ملوك مصرمتجاهلة أن السيرة الوطنية لأى دولة من الدول سلسلة متماسكة الحلقات ولكل دورها وأثرها فى حياة الأمة.

وأوسع مدى على سيرة بعض فرسان المجمع ورجاله بوصفهم رواداً وقمماً شامخة فى خدمة العربية وأهليها على سواء. وأما الفارسان اللذان تناولت اللقاءات سيرتهما ودورهما فى دنيا اللغة وادابها وفى حركة التنوير والتثقيف على مستوى راق رفيع، فهما الشاعر على الجارم واللغوى الرائد الدكتور إبراهيم أنيس. «على الجارم» أديب كبير بالطبع لا بالصنع: لم يقتصر دوره على فن معين من فنون الأدب: جال وصال فى دنيا الشعر والنثر والرواية: وخلف لنا ثروة هائلة ممتعة فى هذه الفنون جميعها: ونظمها ورواها بأسلوب يعد نسيج وحده فى دنيا الأدب الحديث. اعتلى شعره القمة فى عصره من حيث الشكل والمضمون. جاء شعره على اتساق بحور الخليل دون تجاوز أو خروج عن

فى عام ١٩٦٧ عندما دعانى الأستاذ أحمد الشايب إلى منزله، وكان تلميذاً للوالد على الجارم فى أغلب مراحل حياته وكان مسكنه فى جزيرة الروضة قريباً من مسكننا: وكانت دعوته لى لأعوده من مرض ألم به. وقد ذكر لى حينئذ. وهو ممسك ببعض المذكرات. إنه هو الذى سيسجل أدب على الجارم فى كتاب خاص به اسمه «الجارم الشاعر» وإنه هو الذى سيضعه فى «فاترينة التاريخ» على حد قوله. ولما أتم كتابه دفع به إلى دار النهضة المصرية لطبعه ونشره إلا أن الرقابة العسكرية تدخلت عند الطبع وطالبت بحذف بعض أجزاء من الكتاب واضطر الأستاذ الشايب بملء هذه الفراغات بأشعار للجارم: إلا أن بعضها لم يكن متمشياً مع سياق الكلام (وقد لاحظ الدكتور محمد رجب البيومى ذلك فى مقاله «أحمد الشايب يتحدث عن على الجارم» والذى نشره فى مجلة الثقافة عدد نوفمبر ١٩٧٨)، ولدى فى مكتبتى نسختان من هذا الكتاب: النسخة الأصلية والنسخة التى سمحت بها الرقابة العسكرية: أحد الأدلة الدامغة على مؤامرة الصمت على «الجارم» فى هذه المرحلة التاريخية من حياة مصر. وفى نفس هذا المقال يقول الدكتور محمد رجب البيومى: «إذا عرف العقاد ونظراؤه للجارم مكانته العالية

هذا تكريم للمبادئ التى هتف بها قبل أن يكون تكريماً لذاته وإحياء لمثل يجب أن تبقى بقاء الحياة لتهدى إلى سواء السبيل». ويقول فى نفس الكتاب ص ٩٦: «أخشى أن تكون عروبة الجارم وإسلاميته وتصديه لأعداء العربية أهم أسباب هذا الهجوم الظلوم».

كما أتيح لى أن أتعرف على أبعاد «مؤامرة الصمت والتعتيم» على «الجارم» مرة أخرى عندما قامت مجلة «الفيصل» السعودية بعمل «ملف» عن على الجارم بالعدد ١٩٤ فى فبراير ١٩٩٣ وقرأت به مقالاً للدكتور عبده بدوى بعنوان «الجارم ومدرسة دار العلوم فى الشعر» وكتبت رداً للسيد رئيس التحرير فى العدد رقم ١٩٨ فى يونيو ١٩٩٣ ص ١٢٢، قائلاً تحت عنوان «الظلمة الجاهلية التى نعيشها اليوم ستنقشع». وتشاء الظروف أن يزورنى فى عيادتى الخاصة بعد ذلك الدكتور عبده بدوى لأمر خاص به وأشار إلى ما كتبته فى ردى

وقد ذكرنى هذا الموقف ببيت شعر للجارم فى قصيدته «الجامعة العربية» التى ألقاها عام ١٩٤٤ بمناسبة إنشاء جامعة الدول العربية يقول فيه:

إذا ضيّع التاريخ أبناء أمة
فأنفسهم فى شرعة الحق ضيّعوا!

وقد تعرض الشاعر الكبير وشاعر العروبة «على الجارم» - بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ - لادعاء سقيم أنه شاعر الملك، وذلك غير صحيح: فلقد كان الجارم شاعراً لمصر وشاعراً للعروبة وشاعراً للإسلام: ولم يكن مدحه للملك إلا لأن الملك كان رمزاً للوطن. وغنى عن الذكر أن ذلك كان نهج كل الأدباء والشعراء وغيرهم فى ذلك الوقت بل وفى كل الأزمنة.

ولم يطل انتظارنا كثيراً: ففى عام ١٩٩٧ يقرر المجمع اللغوى بالقاهرة برئاسة الدكتور شوقى ضيف نفسه إقامة أربع ندوات أدبية جماهيرية قال عنها الدكتور كمال بشر نائب رئيس المجمع فى تقديمه لكتاب «ندوات المجمع الثقافية». الجزء الأول (١) ص د: «هذا بالإضافة إلى ما رأته اللجنة (اللجنة الثقافية بالمجمع) من أهمية إلقاء ضوء أعمق

إطارها المرسوم، مصوغاً بلغة فريدة الاختيار فى مفرداتها: عزيزة المنال على غير العارفين، حيث نظمت حبات عقوده من جواهر القديم والحديث وجاءت هذه العقود بألوان مختلفات تحكى ألوان أحداث الزمان ووقائعه وبخاصة فيما يجرى فى العالم العربى حتى سمى «شاعر العروبة». ولم يقتصر هذا النهج الفريد على صناعة الشعر، بل كان له وجود واضح متميز فى نثره ورواياته، يشهد بذلك ويؤكده العارفون بصناعة التأليف، من جودة الحبك وامتياز السبك وتنوع الأغراض».

ويفتتح الدكتور شوقى ضيف الندوة الأولى ببحثه عن «الجارم» قائلا: «إنه ليشرفنى أن أتحدث عن علم شامخ من أعلام الأمة العربية فى عصره، كان مرموق المكانة - ولا يزال - بين شعراء عصره المبدعين الذين تخلب أشعارهم الألباب، وكان معلماً لناشئة الأمة وأبنائها العربية والبلاغة أجيالاً بعد أجيال: وكان كاتباً قصصياً طالما ظفر فى قصصه بالإعجاب، وكان إماماً لغوياً لا يبارى ولا يجارى: ولذلك حين جمعت الأمة أعلامها ورجالاتها ليؤسسوا مجمع اللغة العربية تأسيساً قويماً، اختارته مع تسعة من المصريين فى العصبة الأولى التى عهدت إليها بإقامة هذا الصرح

أحمد على الجارم

المجمعى اللغوى... وينشر الجارم فى الجزء الرابع من مجلة المجمع بحثاً لغوياً فريداً بعنوان «المصادر التى لا أفعال لها» ويقول (يقصد الجارم): «اعتاد بعض العلماء أن يعقبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها. ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيراً من المراجع، وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالاً». ويستعرض كتاب «المخصص» وهو معجم ضخم للمعانى لابن سيده كبير علماء العربية بالأندلس ويجده فى المجلد الرابع عشر قد أفرد باباً لأسماء المصادر التى لا تشتق منها أفعال ، وأورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدراً : نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبى عبيد وأربعة عن ابن السكيت وثلاثة عن سيبويه وثمانية عن ابن دريد وواحداً عن ثعلب: ورد ابن سيده على أبى عبيد خمسة منها فأثبت لها أفعالاً : وبقى أربعة وخمسون مصدراً لا تزال - فيما نقله - «لا يصح أن يشتق منها أفعال». ويقول الأستاذ الجارم : «قد تناولت هذا البحث بإفاضة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات فظهر أن لجميعها أفعالاً ما عدا سبعة منها». وعادة يذكر فيما أكمله منها نص صاحب «المخصص» أولاً ثم يتلو بنص ينقضه من المعاجم، ويورد فى النصوص أفكاراً له وتعليقات لغوية دقيقة. وهو عمل لغوى مجمعى رائع، فقد نقد الأستاذ الكبير على الجارم لا كلمة ولا كلمات من كتاب «المخصص» وإنما نقض باباً برمته لابن سيده الذى كانوا يقرنونه فى علمه باللغة بأبى العلاء المعرى ويقولون: كان بالمشرق لغوى وبالمغرب لغوى فى عصر واحد لم يكن لهما ثالث : وهما أبو العلاء وابن سيده. وقد نقض الأستاذ الجارم أقوال من نقل عنهم ابن سيده من أئمة العربية الذين نفوا عن بعض المصادر أن لها أفعالاً من أمثال سيبويه وأبى عبيد وابن السكيت وابن دريد وشاهد آخر يحضرنى الآن هو الكتاب الذى كتبه الدكتور أحمد هيكل - عميد دار العلوم ووزير الثقافة الأسبق - تحت عنوان «تطور الأدب الحديث فى مصر» ونشرته له دار المعارف فى طبعتها الأولى عام ١٩٦٨ . وفى طبعته الخامسة التى صدرت عام ١٩٨٧ وفى ص ١٠٩ نجده يقول : «وأصبح جيل الشعراء فى هذه الفترة (الحديثة) يسيرون فى نفس اتجاهه (الشاعر محمود سامى البارودى) ويترسمون خطاه: فإسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومحمد عبد المطلب وبقية شعراء هذا الجيل التالى من أمثال





أحمد محرم وعلى الغاياتى وغيرهم (لاحظ أنه أغفل ذكر على الجارم أصلاً) قد صاغوا شعرهم على طريقة البارودى». ثم يأتى فى ص ٢٨٨ ويقول : «وقد سار فى هذا الاتجاه الشعرى المحافظ بعد شوقى جيل آخر تمثل فى على الجارم ومحمد الأسمر وعزيز أباظة وعلى الجندى ومحمود غنيم وغيرهم؛ ولكن بموت شوقى سنة ١٩٣٢ ماتت سيادة هذا الاتجاه وظل كل السائرين فى طريقه يحاولون جاهدين أن يقربوا من قمته الشامخة التى علاها كثير من الجليد». وهكذا فقد اختصر الدكتور أحمد هيكل جهود الجارم الأدبية وشعره، والتى تجدها بين دفتى هذا الكتاب إلى مجرد سطر أو سطرين..

ثم تأتى الشهادة الحق - وعدالة السماء لا تغيب - ويكتب الدكتور أحمد هيكل نفسه مقدمة كتاب «الجارم فى ضمير التاريخ» فى طبعته الأولى عام ١٩٩٤ وكأنه يراجع ويناقش ما كتبه قبل ذلك فى كتابه «تطور الأدب الحديث فى مصر» قائلاً : «أما الرائد الكبير الذى يدور حوله هذا العمل، فهو طيب الذكر على الجارم، أحد أعلام الاتجاه المحافظ فى الشعر العربى الحديث. هذا الاتجاه الذى راد طريقه البارودى أولاً، ووصل إلى غايته شوقى فيما بعد، ثم كان الجارم واحداً من الذين تصدروا السائرين فى هذا الاتجاه والمتنافسين على ملء الفراغ بعد رحيل أمير الشعراء : بل كان - بحق - السابق إلى محاولة ملء هذا الفراغ، وخاصة فى الجانب المحفلى والرسمى الذى كان من أبرز جوانب إمارة شوقى .. وديوان الجارم ذو الأجزاء الأربعة (فى طبعته الأولى) خير شاهد على هذا العطاء الشعرى الرفيع والغزير، الذى يمثل طبقة سامية من طبقات الشعر المحافظ، تضع صاحبها فى مكان المتصدرين من أصحاب هذا الاتجاه الفنى الرصين».

والجارم أحد أعلام الاتجاه التاريخى فى الرواية الفنية الحديثة. وهو الاتجاه الذى بدأه جورجى زيدان بمجموعة رواياته التى تعتمد فى مادتها الأساسية على موضوعات وحوادث من تاريخ العرب والمسلمين، ثم جاء من طوروا هذا الاتجاه وجودوه، مثل محمد فريد أبى حديد ومحمد سعيد العريان، وكان من المتصدرين بينهم على الجارم، الذى أنجز تسع روايات من بينها : فارس بنى حمدان، وغادة رشيد، وهاتف من الأندلس، وشاعر ملك. وهى روايات تتنوع مسارح أحداثها بين الشام والعراق ومصر والأندلس.

كذلك كان الجارم من رواد التأليف للكتب الدراسية. ومما له فى هذا المجال - بالمشاركة - النحو الواضح، والبلاغة الواضحة، والمجمل، والمفصل، والمنتخب، والمطالعة التوجيهية، وغير ذلك.

ويلفت النظر أن نرى هذا الرائد العظيم من رواد الأدب الحديث شعراً ونثراً، لا يلقى ما يستحقه من إشادة وتكريم، كما لا يلقى إنتاجه الأدبى ما هو جدير به من ذيوع وتعظيم .. وربما كان السبب فيما يتصل بشعره أن كثيراً من هذا الشعر ارتبط بمناسبات معينة، وأن بعضه دار أساساً حول المدح، وأن جزءاً من هذا البعض قد اتصل بالملك فاروق .

أما المناسبات فما كان ينبغى أن تكون سبباً فى تنحية شعر الجارم عن مكانته الفنية : لأن المناسبات التى تسىء إلى الشعر هى المناسبات التى لا تحرك وجدان الشاعر، والتى لا تصل فى دفع مشاعره إلى حد التجربة الشعورية. فهنا يكون الشعر المتصل بالمناسبة نظماً أو كلاماً مرصوصاً أشبه بالجسد الذى لا روح فيه .. أما حين تُحرك المناسبة وجدان الشاعر، بحيث ينفعل بها ويصدر عن شعور حقيقى وصادق بسببها : فهنا تتحول المناسبة إلى تجربة شعرية حقيقية، قد لا تفترق عن الإحساس بقدوم الربيع، وقدومه مناسبة طبيعية أو زمنية؛ كما لا تفترق عن الإحساس بلقاء حبيب، ولقاؤه مناسبة شخصية أو اجتماعية .. إن إطلاق مصطلح «شعر مناسبات» على كل شعر قيل فى مناسبة، إطلاق فيه كثير من التعسف أو عدم الدقة فى أقل تقدير. فكل تجربة شعرية هى فى أصلها مناسبة بالمعنى اللغوى، ولكنها تخرج عن هذا المفهوم اللغوى وتسمى فنياً تجربة، إذا ارتبطت بصدق الشعور وحرارة الوجدان.. ومن هنا نقول - قصداً إلى الإنصاف - إن كثيراً من شعر الجارم الذى ارتبط بمناسبات وطنية أو قومية أو عربية، هو شعر سمت فيه المناسبة إلى مستوى التجربة، فجاء شعراً صادقاً. لا يعيبه أن ارتبط بهذه المناسبة أو تلك.

وأما كون بعض شعر الجارم قد قيل فى المدح، فما كان ينبغى أن يكون ذلك سبباً فى إهمال هذا الشعر أو ظلم صاحبه وعدم إعطائه حقه من التكريم والتعظيم. وذلك أن جل الشعراء فى العصر الحديث - وخاصة المحافظين - قالوا مدائح، بل إن بعض أعلام التجديد قالوا شعراً فى المدح كذلك، ومن هؤلاء : العقاد وناجى ومحمود حسن إسماعيل. فالمدح أساساً لا يتنافى مع الشعر الجيد ولا يسىء بذاته إلى الشاعر العظيم، مادام صادق الشعور بعيداً عن شبهة النفاق معبراً بأسلوب شعرى فنى حقيقى .. فالعبرة بالصدق أولاً وبالتعبير الفنى ثانياً. فإذا صدق الشاعر فى عواطفه نحو من يمدحه، وإذا عبر عن هذا الصدق تعبيراً شعرياً فنياً رفيعاً، كان قد صنع شعراً جيداً رغم أنه يدور حول إنسان ممدوح .. إن المرفوض هو الكذب والنفاق وسقوط الشاعر فى النظم الذى قد يخفى ببهرجه وجمالياته البلاغية، مشاعر كاذبة أو مطامع رخيصة. وما أظن أن شعر الجارم فى المدح كان من هذا اللون».

وفى الحلقة الأولى من كتابه «الشعر المصرى بعد شوقى» للدكتور محمد مندور، والذى أصدره عام ١٩٥٥ (توفى الجارم فى فبراير ١٩٤٩) يقول : «وفى الحق إننا لنطالب على الجارم وأمثاله من شعراء التقليد بما لم يكونوا يدركونه من حقائق الشعر والأدب (هكذا) عندما نطالبهم أن يصدروا عن وجدان خاص متميز بأصالته وذلك لأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بأن الشعر لا يعدو أن يكون قدرة على النظم وتوليد المعانى أو الأخيلة دون أن يكون مرآة لجوهر نفسى ومزاج خاص ونظرة متميزة للحياة».

عندما قرأت هذه العبارة لهذا الناقد، وعندما قرأت له قوله فى ص ٢١ من نفس الكتاب : «بل ونرى على الجارم فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه ينص على ما يعتقده من أحد مقاييس جودة الشعر هو «التنقل فى القصيدة فى فنون شتى من القول» وإذا كان قد أضاف إلى العبارة السابقة قوله : «مع المحافظة على الوحدة الشعرية» فالراجح أنه لم يقصد إلى غير وحدة الوزن والقافية. وذلك بدليل ما نلاحظه فى ديوانه نفسه حيث نرى هذه الظاهرة واضحة فى الكثير من قصائده كقصيدته الطويلة التى ألقاها فى المؤتمر الطبى الذى عقد ببيروت فى صيف سنة ١٩٤٤ حيث يستهلها بالغزل فيقول:

أَلْقَيْتُ لِلْغِيدِ المِلاحِ سِلاحِي
وَرَجَعْتُ أَغْسِلُ بِالدُّمُوعِ جِراحِي

ثم ينتقل إلى وصف الرحلة الذى يبدأه بقوله :

سِرْ يَا قِطَارُ فَفِي فُؤَادِي مِرْجَلٌ
يُزْجِيكَ بَيْنَ مَتَالِعٍ وَبِطَاحِ

وإن يكن من الحق أن نلاحظ أنه لم يقل «سر يا بعير !!».

أدركت حينئذ أنه قد كشف عما فى نفسه من حقد شخصى على «الجارم» وأنه بهذا التعليق السخيف قد فقد موضوعيته فى النقد العلمى الصادق، وإن كل ما كتبه لا يستحق الورق الذى كتب عليه.

وهنا تحضرنى كلمة الدكتور الطاهر مكى التى يقول فيها : «فى نثره كما فى شعره كان يحكم الجارم فى إبداعه مذهب نقدى يؤمن به وهو أن للفن غاية خلقية وهو اتجاه كان يصطدم بقوة مع مذاهب أخرى بدأت تعرفها الحياة الأدبية العربية وافدة إلينا من وراء البحار: مذهب «الفن للفن» ينكر أن يعنى الأدباء بالنواحى الاجتماعية والسياسية أو أن يوظف الشعر لتمجيد البطولات والمعتقدات لأن الأدب الإبداعى شعراً أو نثراً لا ينبه بالموضوعات الأخلاقية، ولا يشرف بالمواعظ والحكم، وإنما غايته الجمال فحسب. وفى مواجهته مذهب آخر حط رحاله فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية مع بعض العائدين من فرنسا

كان الجارم شاعراً لمصر
وشاعراً للعروبة وشاعراً للإسلام؛ ولم يكن مدحه
للملك إلا لأن الملك كان رمزاً للوطن

بالذات وهى «الواقعية الاشتراكية»؛ يتجاوز بها دعاتها مبدأ تصوير الواقع الذى تعرفه الواقعية النقدية منذ القرن الماضى، ويرون الفن سلاحاً فى معركة الصراع الطبقى. ومن الواضح أن «الجارم» رفض تطبيق المذهبين؛ فهو يؤمن أن للفن رسالة جمالية ولكن الغاية الخلقية قمة هذا الجمال ويراه سلاحاً من أجل التحرر والاستقلال وعدم التبعية ولكنه يرفض أن يقيده بمصلحة طبقة دون غيرها. وفى تلك الأيام خلال الحرب وما بعدها كان أصحاب النظريتين كثرة والتقوا معاً عند إضفاء ستار النسيان على شعر الجارم ونثره وكل من سار فى طريقه ونهجه».

وأخيراً يبقى التهجم الخاص بشعر «الجارم» فى الملك فاروق؛ وهنا استرجع قول الدكتور أحمد هيكل فى تقديمه لكتاب «الجارم فى ضمير التاريخ»، إذ يقول: «والحق إن فاروق كان فى سنوات ملكه الأولى محبوباً جداً من الشعب المصرى الذى رأى فيه أملاً لمستقبل مصر بعد استقلالها؛ وتوسم فى شبابه - الظاهر الطيبة فى تلك السنوات - ما يستوجب العطف بل ما يستحق الحب. وكان هذا إحساساً عاماً لدى الشعب المصرى قبل أن ينحرف فاروق وتنكشف سلبياته ومخازيه. وفى ذاك العهد الأول لهذا الملك كان معظم الشعراء يتسابقون إلى قول الشعر فيه، وهم بهذا الشعر كانوا يعبرون عن حب الشعب ويصورون الشعور العام نحو هذا الملك الشاب المتسم فى أول عهده بمظهر الطيبة والصلاح. فلم يكن الجارم شاذاً فى ارتباط بعض شعره بفاروق؛ فقد شاركه فى ذلك جل الشعراء، وهم جميعاً معذورون ومسلكهم مبرر ومتسق مع طبيعة الأمور والشعور العام فى تلك السنين. ومن هنا أرى أن الجارم قد ظُلم كثيراً حين ربط البعض بينه وبين الملكية الملغاة فحاولوا إلغاءه من سجل الشعراء الرواد. إن الإنصاف يفرض أن نحاسب الشاعر بصدق مشاعره وفنية تعبيره وألا نفصل بينه وبين روح عصره وألا نحاكمه بقيم طارئة عرفت بعد أيام إبداعه؛ حسب الشاعر التعبير عن روح العصر الذى عاش فيه، وحسبه الصدق فى مشاعره والفنية فى تعبيره. وقد كان الجارم بحق معبراً عن روح عصره صادقاً فى مشاعره فنياً فى تعبيره، بل إنه بلغ فى ذلك مرتبة عالية سبقه إليها شوقى؛ وسعى نحوها عزيز أباظه ومحمود غنيم وعلى الجندى وغيرهم من الشعراء الكبار المحافظين؛ رحمهم الله أجمعين».

إلا أن شهادة الدكتور أحمد هيكل السالفة الذكر - والرجل قد شغل عدة مناصب مختلفة مثل عمادته لدار العلوم كما كان وزيراً للثقافة لبعض الوقت، مما أتاح له الفرصة الكاملة للاطلاع على مجريات الأمور. تجعلنى أتهم كل من كان مسئولاً فى قطاعات الثقافة والتعليم والإعلام، من صحافة وإذاعة وتليفزيون فى هذه الدولة وفى هذه المرحلة التاريخية بمحاولة «إلغاء الجارم من سجل الشعراء الرواد» - على حد تعبيره - والمساهمة فى مؤامرة التعتيم ومؤامرة الصمت على «الجارم». ودعنى أحمد ربى الآن بعد مرور كل هذه السنين فقد ظل «الجارم» شامخاً فى مكانته. بعد أن أعدت نشر تراثه كاملاً شعراً ونثراً وعلماً. وللحقيقة والتاريخ أود أن أضيف أن الدكتور أحمد هيكل كان صادقاً فى كل ما ذكره إلا أن الجارم كان قد أدرك ذلك بحسه المرهف وشعوره الصادق وبصيرته النافذة فكف عن نظم الشعر فى فاروق منذ عام ١٩٤٥. وقد تحول معظم أدب الجارم بعد تقاعده عام ١٩٤٢ إلى الإنتاج الأدبى القصصى التاريخى، فكتب قصصه العشر المنشورة فى كتاب «سلاسل الذهب» ابتداء من عام ١٩٤٢ حتى وفاته عام ١٩٤٩، وقد تمكن فى هذا القصص التاريخى من التعبير عن صادق مشاعره وآرائه وأفكاره بكل الأمانة وكل الصدق.

وأخيراً.. أيها القارئ الكريم.. ها هو «على الجارم» يتقدم إلى الإله العلى العظيم أولاً؛ وإليك ثانياً، بصحيفته البيضاء وقد ثقلت موازينه؛ وها هى الدولة.. فى مرحلة الرقابة العسكرية وبعملائها اليساريين الذين لا يزال بعضهم يحتل شيئاً من المساحة الأدبية فى مصر حتى الآن.. تحيك مؤامرة الصمت والتعتيم عليه!! فهل نجحت فى ذلك؟!

إن «على الجارم» - ولو كره الكارهون والحاقدون والحاسدون.. فخر لمصر وفخر للعروبة وفخر للإسلام وفخر للعربية؛ طالما أن هناك أملاً للصدق وأملاً للحقيقة وأملاً للشرف. رحمك الله يا جارم، يا من قلت وأنت فى السادسة عشرة من عمرك:

سَتَنْدُبُنِى الفُصْحَى إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا
وَمَاتَ الذى فى النَّاسِ لَيْسَ لَهُ نِدُّ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■

كتاب الزاوية

شعراء الصوفية المجهولون (٣)

أبو علىّ الرُّوذَبَارِى

(المتوفى ٣٢٢ هجرية)

روحى إليكَ بكُلِّها قد أجمعتْ
لو أن فيك هلاكَها ما أقلعَتْ
تبكى إليك بكُلِّها عن كُلِّها
حتى يُقال: من البكاءِ تقطَّعتْ
فانظرْ إليها نظرةً بتعطُّفٍ
فلطالما مَتَّعْتَهَا فتمتَّعَتْ

(الكامل)

بكَ كتمانُ وَجْدِه بك عَنْهُ
لكَ منهُ، وعنه ما لكَ منهُ
مَنْ إذا لاح لائحٌ لمشوقٍ
هامَ وجداً عليكَ إنْ لم تَكُنْهُ
وإذا أفَلَ الأفُولُ بِبَيْنٍ
بانَ عنه فبان إنْ لم تُبِنْهُ
يا فتى الحبِّ، بل فتى الحقِّ، سِرِّى
عَنْهُ مُستَودَعٌ لديكَ فصُنْهُ

(الخفيف)

مَنْ لَمْ يكُنْ بك فانيًا عن حُبِّه
وعَنِ الهوى والأنْسِ بالأحبابِ
أو تَيَّمَتْهُ صبابةٌ جمعتْ لَهُ
ما كان مفترقًا مِنَ الأسبابِ
فكأنَّهُ بينَ المراتبِ واقفٌ
لمنالِ حظٍّ أو لحُسْنِ مآبِ

(الكامل)

فى تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابى السياسى، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير فى كتاب ميكيافيللى الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسى فى السودان



الترابى

ماذا بعد؟

يوسف الشريف

■ ■ ربما كان السياسى المخضرم محمد أحمد محجوب ـ يرحمه الله ـ أول من تنبأ على حد علمى بدور الدكتور حسن الترابى المثير للجدل على المسرح السياسى فى السودان، وكان «البوص» وهو لقب المحجوب غالباً ما يتحلق حوله أنماط شتى من السياسيين والأدباء والصحفيين فى سهراته، وصادف وحضرت إحدى تلك السهرات شتاء عام ١٩٦٦، وعلى غير عادته آثر الصمت والتأمل والعزوف عن هوايته الأثيرة فى الحوار والحكى وقرض الشعر، لكنه فجأة نطق فى غضب وقال: «والله إن هذا الشاب سوف يثير فتنة فى السودان لن يخمد لها أوار، وبادره المؤرخ السودانى حسن نجيلة يسأله إن كان الصادق المهدى هو ذلك الشاب، وقال المحجوب: بل صديقه حسن الترابى الذى علمه السحر وزين له الخيارات السياسية المحفوفة بالمخاطر!

والشاهد أن الصادق المهدى توثقت صلاته الفكرية مع حسن الترابى خلال فترة دراستهما العليا فى أوروبا، وبينما نال الصادق ماجستير الاقتصاد السياسى فى جامعة أكسفورد، حصل الترابى على الماجستير فى القانون الجنائى من لندن، وبعدها نال الدكتوراة من جامعة باريس، وكانت أطروحتها حول قوانين الطوارئ المقيدة للحريات فى السودان ومقارنتها بتشريعات القهر السياسى فى دول العالم الثالث، فلما عاد إلى السودان شغل منصب مدرس للقانون بكلية حقوق جامعة الخرطوم ثم تدرج فى سلك التدريس حتى أصبح عميداً لها.

بدأ نجم الترابى يلمع لأول مرة على المسرح السياسى السودانى إثر اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤، حيث لعب دوراً مقدراً فى تكثيف الضغوط الشعبية المناوئة للحكم العسكرى بزعامة الفريق إبراهيم عبود حتى تنازل عن السلطة لجبهة الهيئات، فى إطار التحالف بين مختلف القوى السياسية الوطنية، خاصة الشيوعيين والإسلاميين، حيث كانا يهيمنان عهدئذ على وزارات الحركة الطلابية والنقابية والمنظمات الأهلية!

على أنه لم تمض شهور حتى تزوج الترابى بالآنسة مرحال شقيقة الصادق المهدى توخياً للمكانة الاجتماعية، وكشف الستار عن صلاته السياسية والتنظيمية بالحركة الإسلامية ممثلة فى «حركة الإخوان المسلمين الوليدة، وتمكن عبر ذكائه وثقافته من مزاحمة قياداتها البارزين من أمثال الرشيد الطاهر وحسن عمر زعيم الجناح الطلابى، بل ورأى تغيير اسم الإخوان المسلمين بعد وصمها بالإرهاب إثر محاولة التنظيم الأم فى مصر اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤، واستبدله باسم «جبهة الميثاق»، حتى تكون وعاء لاجتذاب مختلف التيارات والشخصيات الإسلامية والحركات الصوفية الحادبة على أسلمة الدستور السودانى الوضعى!

هكذا توحدت التوجهات السياسية بين الترابى وبين الصادق المهدى الذى كان يتبنى آنذاك نهج الصحوة الإسلامية، حول خطة مبيتة للخلاص من الحزب الشيوعى السودانى وتصفية شعبيته فى أوساط الخرطوم وفى عطبرة معقل عمال السكك الحديدية وغيرهما من المدن ومناطق الوعى، وهو ما أهله للفوز دوماً بمعظم الدوائر المخصصة فى الانتخابات النيابية للخريجين من الجامعات والمعاهد العليا و.. لكن كيف؟

يقول الترابى: «انتهزنا خطأ عنصر شيوعى تورط فى سب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمام طلبة جامعة الخرطوم، وعلى الفور قمنا بتعبئة الشعور العام ضد الشيوعيين، ثم نقلنا المعركة إلى البرلمان وطالبنا بحل الحزب الشيوعى وطرد نوابه ونجحنا فى ذلك، ومن هذا النجاح قدنا حملة بين قواعد الأحزاب لأسلمة الدستور، حتى اضطرت القيادات إلى التسليم بالمبدأ والشروع فى صياغة مسودة الدستور الإسلامى إيذاناً بإجازته، لولا اندلاع الانقلاب العسكرى الذى تزعمه جعفر نميرى فى مايو ١٩٦٩، فى الوقت الذى خاض الصادق المهدى معركة سياسية ضروس مع عمه الإمام الهادى المهدى عبر مطالبته بفصل الدين عن السياسة، وأن يقتصر نفوذ الإمام على رعاية شئون طائفة الأنصار، ويختص الصادق برئاسة حزب الأمة ورئاسة الحكومة الإسلامية وقتئذ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، وهكذا أطيح بمحمد أحمد المحجوب الذى كان يشغل المنصبين!

فى تلك المرحلة المبكرة من مشوار الترابى السياسى، راح يجسد تباعاً ملامح شخصية الأمير فى كتاب ميكيافيللى الشهير، عبر تسخيره لكافة متناقضات الواقع السياسى فى السودان لمصلحته الشخصية وتعزيز زعامته، وممارسة «فقه الضرورة»، أو ما يسمى «فقه التقنية» الذى يظهر من الأقوال والأمثال أكثر مما تنطوى عليه النوايا، حتى لو اقتضى الأمر العبور فوق المبادئ والأعراف المرعية للوصول سريعاً إلى الأهداف، بزعم أن الضرورات تبيح المحظورات!

امتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية، وساهم فى تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممى

ملكات فذة فى التنظيم والتجنيد والتمويه

ولا شك أن الدكتور حسن الترابى بشهادة الصادق المهدى لديه ملكات فذة فى التأثير ودغدغة عواطف الجماهير واللعب على وتيرة معتقداتها الإيمانية، إلى جانب قدراته على التجنيد والتنظيم والتمويه. وإذا كانت جبهة الميثاق لم تحرز سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد فى الانتخابات النيابية إبان التجربة الديمقراطية الأولى وأكثر قليلاً إبان التجربة الديمقراطية الثانية، فقد استطاعت الحركة الإسلامية تحت زعامته إحراز المرتبة الثالثة فى مقاعد البرلمان بعد حزبى الأمة والحزب الاتحادى فى التجربة الديمقراطية الثالثة بالسودان، وبعدما تخلى عن اسم الإخوان المسلمين عنواناً للتنظيم - كما هى عادته - بعد أن لحق بها الأخطاء والخطايا التى ارتكبتها إبان حكم نميرى، ثم استبدل اسم التنظيم بالجبهة القومية الإسلامية بمجرد عزل نميرى!

ورغم أن الترابى انضم إلى صفوف المعارضة لحكم نميرى، إلا أنه رفض الانخراط فى انقلابها العسكرى الذى حاول إزاحة نميرى عن السلطة عام ١٩٧٦ قيادة العميد محمد نور سعد، وعرف آنذاك باسم «الغزو الليبى» كون ليبيا مأوى ومقر التدريب العسكرى لميليشيات المعارضة، ثم الانطلاق منها للقيام باختراق الخرطوم وفشلت فى الاستيلاء على السلطة، وحتى جاءته الفرصة المواتية لكسب ثقة نميرى عبر مبادرة المصالحة الوطنية التى تبناها رجل الأعمال السودانى فتح الرحمن البشير، وبينما انسحب المهدى وأحمد الميرغنى من المصالحة مع نميرى بعد فترة من الوقت، ظل الترابى يقترب من نميرى ويسبح بحمده ويعلن له الولاء والطاعة حتى عينه نائباً عاماً «وزيراً للعدل»، ثم مساعداً لرئيس الجمهورية، وبعدها زين له الإفتاء والاجتهاد فى الشئون الإسلامية، حتى أصدر نميرى كتاباً ضخماً من تأليفه بعنوان «النهج الإسلامى.. لماذا؟»، ثم تبعه بكتاب آخر ضخم بعنوان «النهج الإسلامى.. كيف؟».

من هنا كان طريق الترابى سالكاً إلى فكر نميرى وإقناعه بأن يمنحه والإخوان المسلمين قنديل الأمان، حتى يتفرغوا لشئون الدعوة والتربية الإسلامية فحسب، مقابل القيام بحمايته من أعدائه ومن السخط الشعبى، فى الوقت الذى نجح الإسلاميون فى غياب الأحزاب وتفكيك النقابات من الانفراد بالشارع السياسى!

والحقيقة أن الترابى التزم بما وعد، بل إلى حد إقناع نميرى بتنصيب نفسه أميراً للمؤمنين وخليفة رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، والترابى هو الذى كتب بنفسه صيغة البيعة ودعا المسلمين فى السودان إلى بيعته، وعندما سألته فى حديث صحفى معه عام ١٩٨٦: وهل كانت شروط البيعة تتوافر فى نميرى؟.. قال باستخفاف: ومن بين خلفاء المسلمين كانت تتوافر فيهم شروط البيعة؟!

تلك مجرد أمثلة

يبقى أنه هو الذى أقنع نميرى كذلك بإجازة قوانين عام ١٩٨٣ والتى أفضت إلى قطع أيادى عشرات الفقراء والمعوزين وأرجلهم من خلاف بتهمة سرقة ما يأكلون أو يلبسون، دون أن تطول عتاة اللصوص من كبار المسئولين الذين نهبوا أموال الشعب وعاثوا فى السودان فساداً وجوراً، بل إلى حد تطبيق القوانين سيئة السمعة على المفكر الإسلامى محمود محمد طه وهو الطاعن فى العمر، رغم أن أفكاره معروفة ومؤلفاته منشورة منذ خمسينيات القرن العشرين عبر إفتاء الترابى بردته، بل إن الترابى غض النظر عن تهريب اليهود الفلاشا عبر أراضى وأجواء السودان إلى إسرائيل.

مظاهرات السودان المليونية

أدرك الترابى بذكائه وخبراته السياسية النهاية المحتومة لنظام نميرى فى إطار دورة الحكم الثلاثية التى شهدها السودان منذ استقلاله عام ١٩٥٦، نظام ديمقراطى يخفق فى حل مشكلة الجنوب، تدهمه الانتفاضة أو الثورة الشعبية، يفضى إلى الديمقراطية، وبعدها تنجح الأحزاب التقليدية فى الاستيلاء على السلطة، إلى حين إخفاقها فى حينه حول مشكلة الجنوب، واندلاع الانقلاب العسكرى و... هلم جرا!

ومن هنا كان حرص الترابى أن يكون على أهبة الاستعداد لمواجهة التداعيات السياسية والشعبية المتوقعة باندلاع الانتفاضة، فكان توجهه المحسوب لتجنيد الكوادر السياسية وتدريبها على حمل السلاح والتمويه على نشاطاتها، بالتزامن مع التجنيد داخل القوات المسلحة وقوات الأمن، عبر أسلوب الحركات الشيوعية وتنظيماتها السرية العنقودية، بل وامتد نشاط الجبهة الإسلامية إلى تأسيس الشركات التجارية والزراعية، وساهم فى تمويل البنوك التابعة لمنظومة الإسلام الأممى، والأكثر من ذلك استعداداً لمواجهة تداعيات المستقبل، حرص الترابى على ابتعاث مجموعة من الشباب إلى أمريكا وأوروبا لدراسة فنون الإعلام والدعاية والكمبيوتر!

وكان نميرى قد أدرك خطورة نشاطات الترابى رغم ستار السرية والتحديثة، وأنه لم يلتزم بالدعوة والتربية الإسلامية فحسب، ومن ثم قرر اعتقاله وعزله من مناصبه، فلم تمض أسابيع حتى اندلعت الانتفاضة الشعبية فى السادس من أبريل عام ١٩٨٥، ثم لم تمض سوى أيام حتى أصبح طليقاً، واستطاع أن يحول مسارات الانتفاضة لصالحه، وتخلى عن اسم الإخوان المسلمين - كما أسلفنا - واستبدله باسم الجمعية القومية الإسلامية، حتى يتحرر من إلحاح جماهير الانتفاضة التى كانت تطالب بمحاكمة «السدنة» الذين تحالفوا مع نميرى، وزينوا له إجازة التشريعات سيئة السمعة بما فيها القوانين الإسلامية المعوجة التى كانت تهتف باسم العقيد الدكتور جون جارنج زعيم الحركة الشعبية، بالنظر إلى دوره فى مقاومة حكم نميرى والتعجيل بعزله، نظم الترابى مظاهرات «أمان السودان»، مطالبة بتمكين القوات المسلحة من دحر المتمردين، وضمت قرابة المليون سودانى جاء معظمهم من المتأسلمين خارج الخرطوم، ورأيت بأم عينى سيارات مجهزة بالمشروبات المثلجة كانت تواصل إطفاء ظمأ المتظاهرين تحت وهج الشمس ولهيبها، وهى كانت ظاهرة غير مسبوقة فى شتى المظاهرات الشعبية منذ الاستقلال!

ورغم ذلك وربما لذلك لم يجد الصادق المهدى مناصاً من توسيع وعاء حكومته الائتلافية التى كانت مقصورة على حزب الأمة والحزب الاتحادى، لاستيعاب الجبهة الإسلامية واتقاء ألاعيب الترابى، فكان أن أصر على تعيينه وزيراً للخارجية، وكانت فرصته لتصفية خصوم الحركة الإسلامية فى السلك الدبلوماسى السودانى وتعطيل السير قدماً فى حل مشكلة الجنوب سيما عبر المفاوضات السياسية.

مغزى توقيت انقلاب الجبهة الإسلامية

وإذا كانت قيادة الترابى للحركة الإسلامية قد نجحت فى إحرازها المرتبة الثالثة عبر صناديق الانتخابات عام ١٩٨٥، كان

ظل الترابى يقترب من نميرى ويسبح بحمده ويعلن له الولاء والطاعة حتى عينه نائباً عاماً «وزيرا للعدل»، ثم مساعداً لرئيس الجمهورية

"الترابى"

أزاح البشير الترابى فى حركة دراماتيكية مباغتة فى شتى مناصبه فى السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أى رد فعل غير محسوب

من المرجح كذلك أن تنجح أساليبه الميكيافيللية وقدراته التنظيمية فى الإطار الديمقراطى لانتقال الحركة الإسلامية تباعاً إلى المرتبة الثانية فالأولى، لكنه تعجل الفوز بالغنيمة من أقصر الطرق ضارباً عرض الحائط بميثاق الدفاع عن الديمقراطية الذى أجازته مختلف القوى السياسى إثر نجاح الانتفاضة الشعبية وتحريم الانقلابات العسكرية!

كان الترابى قد أعلن رفضه لاتفاق السلام الذى وقعه السيد محمد عثمان الميرغنى فى أديس أبابا مع العقيد جون جارنج لإحلال السلام فى السودان، وقرر بالتالى الانسحاب من الحكومة، وهكذا فى يوم الجمعة ٣٠ يونيو ١٩٨٩، كان على الحكومة عقد جلسة استثنائية لبحث تجميد قوانين سبتمبر سيئة السمعة، كشرط لوقف إطلاق النار إيذاناً بالتفاوض حول بنود ومراحل عملية السلام، لكن انقلاباً عسكرياً بقيادة العميد عمر حسن البشير كان قد حدد فى نفس الوقت ساعة صفر استيلائه على السلطة!

وبينما نجح انقلاب البشير فى الاستيلاء على السلطة بفصيل من المشاة وخمس دبابات فحسب، تبين فيما بعد الدور الحاسم الذى لعبه التنظيم الإسلامى السرى داخل القوات المسلحة، والميليشيا الشعبية الإسلامية فى دعم الانقلاب، والتمويه على أسلحة وحاميات الجيش السودانى بزعم أن الانقلاب بزعامة اللواء فتحى أحمد القائد العام للقوات المسلحة، والأكثر إعمالاً فى التمويه على هوية الانقلاب، كان اعتقال الدكتور حسن الترابى مع قيادات الأحزاب والزعامات السياسية، وربما لو ظل الترابى طليقاً أو كشف بعد الانقلاب عن هويته الإسلامية لكن مصيره الفشل.

والشاهد أن الترابى عراب النظام الجبهة الإسلامية والمهيمن على مفاصل السلطة بالسودان، كان قد فتح الأبواب ومنح جوازات السفر الدبلوماسية الحمراء وحق الإقامة لعشرات القيادات والكوادر الأصولية الإسلامية فى العالم، وكان من جراء ذلك ارتكاب تنظيم التكفير والهجرة - على سبيل المثال - العديد من حوادث الاغتيال للمصلين فى مساجد جماعة السنة المحمدية، بل ومحاولته اغتيال أسامة بن لادن، مما عجل برحيله من السودان إلى أفغانستان!

وعلى نقيض الشخصية السودانية المعروفة بالسماحة وعلى نقيض المجتمع السودانى العاشق للحب والغناء والشعر وكل جميل فى الحياة، لعب الترابى دوره فى استمرار قوانين الطوارئ والامتناع عن السهر فى الأفراح بعد الثامنة مساء، وشكل خمسة أجهزة أمنية ومخابراتية جديدة لكل منها مجال و تخصص مختلف ومستقل، ضلاً عن ميلشيات الجبهة الإسلامية والشرط الشعبية وتنظيمات الدبابين والدفاع الشعبى، وبيوت الأشباح، وهو الوصف الذى أطلقه الشعب السودانى على المقرات الأمنية الخاصة باستجواب وتعذيب المشكوك فى ولائهم وراح ضحيتها شخصيات سياسية معروفة.

وكان نظام الجبهة الإسلامية أو ما سمى الإنقاذ الوطنى قد بدأ عهده بإعدام شاب سودانى وهو ابن شقيق المفكر جمال محمد أحمد وزير خارجية السودان الأسبق بتهمة حيازة بضع مئات من الدولارات كان قد تسلمها مقابل تأجير عقار يملكه، ثم تبعه إعدام مضيف جوى سودانى مسيحى بنفس التهمة، فيما جرى تسريح ٢٥ ألفا من الجيش والأمن والخدمة المدنية للاشتباه فى عدم ولائهم للنظام، فيما اضطر زهاء أكثر من ثلاثة ملايين سودانى إلى الهجرة للخارج، تحت وطأة الإرهاب السياسى وسوء الأحوال الأمنية والاقتصادية ومعظم كانت مصر محطتهم الأولى أو الأخيرة!

الحرب الأهلية

ونتيجة استمرار الحرب الأهلية منذ عام ١٩٨٣ وراح ضحيتها أكثر من مليون قتيل، وكبرت ميزانية الدولة نحو مليونى دولار يومياً، اضطر النظام إلى التجنيد القسرى للشباب والرجال على السواء، لسد النقص فى القوات المسلحة.

والأدهى والأمر أن ينهى الترابى أو نظام الإنقاذ نشاط التعليم المصرى فى السودان، ومصادرة المدارس وفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، ونادى ناصر الثقافى، والاستيلاء على مقرات الرى المصرى وطرد المدرسين المصريين من بيوتهم كما لو أن السودان تحرر من الاستعمار الثقافى المصرى، ولم يتورع الدكتور الترابى كذلك عن التهديد بتدمير السد العالى وحرمان مصر من مياه النيل، وشن حملة عسكرية لطرد القوات المصرية من مثلث حلايب!

بدا أن الترابى الحاكم الحقيقى للسودان آنذاك من وراء الستار وفى العلن، وكان يجتمع يومياً ودورياً بما كان يسمى «المجلس الأربعينى» الذى يضم أركان النظام والمخلصين من أبنائه الذين رباهم على عينه وبوأهم مناصب السلطة والنفوذ. وكما استفاق نميرى إلى خطورة الترابى كان الأمر كذلك بالنسبة للبشير قبل فوات الأوان!

وهكذا وقع مما لم يكن منه بد، وأزاح البشير الترابى فى حركة دراماتيكية مباغتة فى شتى مناصبه فى السلطة والحزب والبرلمان واعتقاله، مع إعلان حالة الطوارئ تحسباً من أى رد فعل غير محسوب، وبينما كان رهان الترابى خاسراً على دعم أنصاره، كان البشير أكثر حرصاً عبر رهانه على القوات المسلحة وعلى التململ من ممارسات الترابى فى أوساط المجتمع السودانى وكذا دول الجوار، ولعل التصريح الذى أدلى به غازى صلاح الدين وزير الإعلام وقتئذ يعنى الكثير، رغم أنه كان من أخلص تلاميذ الترابى، حيث اتهمه بالانتهازية السياسية وخيانة «الحركة» الإسلامية!

ولم تكن المرة الأولى لاعتقال الترابى فى عهد نظام الإنقاذ، فقد تجدد اعتقاله للمرة الثانية بتهمة ضلوعه فى تأجيج التمرد فى دارفور، وادعى أن الإفراج عنه كان نتيجة ضغوط خارجية بينها ضغوط جون جارنج الذى كان قد التقى بغريمه الترابى فى الخارج وعقد معه اتفاقاً سياسياً يفضى إلى تمكين الجنوبيين من حقوقهم على غير معارضته سابقاً لحل مشكلة الجنوب سلمياً!

معروف أن الترابى عندما كان فى السلطة تمكينه للجنوبيين من حق تقرير المصير عبر الدور الذى لعبه ساعده الأيمن على الحاج، حين التقى فى أوروبا بعدد من أعوان جارنج وبينهم لام أكول وكاربينو، وجرت الموافقة على استبقاء القوانين الإسلامية مقابل منح الجنوبيين حق تقرير المصير، وتكفل رجل الأعمال البريطانى تونى رولاند بتمويل الصفقة من ماله الخاص!

ثم نصل أخيراً إلى ما وراء اعتقاله للمرة الخامسة مؤخراً، ولا شك أن وراء الاعتقال مخاوف سياسية جمة من فرط نشاطه إثر تشكيله لحزب المؤتمر الشعبى فى مواجهة حزب المؤتمر الوطنى الحاكم، ورغم أنه لم يخضع للمحاكمة ما فى كل مرات اعتقاله فى السابق، إلا أن السبب معروف، ويكمن فى تعزيزه وإعلان موافقته على محاكمة الرئيس عمر البشير أمام المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الضلوع فى ارتكاب جرائم ضد الإنسانية فى دارفور، وخشية صلاته ونفوذه الدينى والسياسى الوثيق الصلة بممارسات حركات التمرد وفى مقدمتها حركة العدل والمساواة التى يتزعمها الدكتور خليل إبراهيم وسبق وحاولت اقتحام أم درمان عسكرياً وشن معاركها الضروس مؤخراً فى مواجهة اركوميناوى مساعد رئيس الجمهورية وقواته فى مدينة المهاجرية!

من حق الدكتور حسن الترابى ممارسة توجهاته السياسية فى إطار اللعبة الديمقراطية حتى لو اختلف معه خصومه حول أساليبه الميكيافيللية، لكن أن تمتد ممارساته إلى ما اعتبره البعض مسا بالثوابت، فذلك ما أفقده الباقى فى مكانته، عبر الإفتاء بجواز زواج المسلمة بالمسيحى واليهودى، وإمامة المرأة فى الصلاة، وأن شهادة المرأة تساوى شهادة الرجل، وأن من حق المرأة أن تغطى صدرها فقط وأن يظل رأسها مكشوفاً، كما أن انتظار عودة المسيح لا جدوى منه و.. ومن هنا انهالت عليه انتقادات رجال الدين الإسلامى وفى مقدمتهم الشيخ يوسف القرضاوى رئيس اتحاد علماء المسلمين الذى أفضى ببطلان فتاوى الترابى.

فى كل الأحوال يظل الحكم الفاصل على سير الترابى إيجاباً أم سلبياً، معقوداً فى النهاية على حكم التاريخ له أو عليه! ■

الاقتصـــاد والحيـــاة اليوميـــة

■■ فى نوفمبر/تشرين الثانى ١٩٧٤، وبعد مدة وجيزة من وصولى إلى جامعة شيكاغو كى أبدأ دراستى بها، نشرت جريدة وول ستريت جورنال Wall Street Journal سلسلة من المقالات تحت عنوان «وسائل إفحام عالم الاقتصاد»، وقد كتبها رجل يدعى جون تراسى ماكجرات John Tracy McGrath حيث طرح مجموعة من الأسئلة شديدة السهولة عن الحياة اليومية، وكان يظن أن علماء الاقتصاد سيعجزون عن الإجابة عنها. وكان من بين تلك الأسئلة: «لماذا يرتفع ثمن عبوة السجائر التى نشتريها من ماكينة السجائر عن تلك التى نشتريها من متجر الحلوى؟ لماذا لا يستطيع منظمو سباقات الخيل زيادة نسبتهم على كل تذكرة على عشرين سنتًا؟ لماذا يساوى ثمن مشروب صودا البرتقال أربعة أضعاف ثمن البنزين؟»

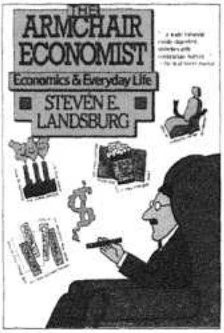
فى تلك الليلة حين اجتمعت مع أصدقائى على العشاء - وكنا جميعا من طلبة السنة الأولى - لم تسلم مقالة ماكجرات من سخريتنا، ولما كانت معرفتنا بعلم الاقتصاد لم تتعدَّ القليل، فقد بدت لنا كل أسئلته آنذاك سهلة.

أما اليوم، وبعد مضى ما يقرب من عشرين عامًا ازددت فيها علمًا ومعرفة، صرت أعتقد أن أسئلة ماكجرات جميعها معقدة ومثيرة للاهتمام. وفيما أذكر، فقد كانت الإجابات التى طرحناها بسهولة فى تلك الليلة لا تحوى شيئًا يذكر أكثر من مجرد رفضنا أن نأخذ الأسئلة مأخذ الجد، وأتصور أننا تهربنا من الإجابة عن معظمها بعبارة «العرض والطلب»، وكأنها تعنى شيئًا. وأيًا كان تصورنا عن معنى تلك العبارة، فقد كنا آنذاك على يقين من أن هذا هو المعنى الحقيقى لعلم الاقتصاد.

وفيما يأتى تصورى «الحالى» عن معنى علم الاقتصاد: أولاً: هو التطلع إلى هذا العالم بحب صادق للمعرفة والاستطلاع والاعتراف بأنه حافل بالألغاز، ثانيًا: محاولة حل هذه الألغاز بطرق تتفق مع الفرضية السائدة بأن الإنسان يرمى من وراء سلوكه إلى تحقيق غاية ما. وقد يصعب أحيانًا التوصل إلى حل لهذه الألغاز، مثل ألغاز ماكجرات، ولذلك ندرب أنفسنا عن طريق محاولة حل ألغاز مماثلة فى عوالم خيالية من ابتكارنا نسميها «النماذج». فمثلاً إذا كان الهدف هو معرفة لماذا يزيد سعر صودا البرتقال عن سعر البنزين، فقد نبدأ بتخيل عالم لا يبتاع فيه الناس سوى صودا البرتقال والبنزين. أما إذا كان الهدف معرفة لماذا تسعى بعض الحكومات إلى حظر استخدام السيليكون فى عمليات تجميل الثدى، فقد نبدأ فى تصور عالم يختار فيه الرجل شريكة حياته وفقًا لحجم الصدر فحسب.



فيلسوف الاقتصاد
الاقتصاد والحياة اليومية
ستيفن لاندسبيرج
ترجمة: رشا سعد زكي
مراجعة: سامح رفعت مهران
كلمات عربية للترجمة والنشر،
القاهرة ٢٠٠٨
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



The Armchair Economist
Economists and Everyday Life
Steven E. Landsburg
Free Press, 1995

إننا لا نفكر بطريقة النماذج لأنها واقعية، وإنما لأن ذلك يعد تمرين إحماء نستعد به للتفكير فى عالمنا الذى نعيش فيه، فالهدف دائمًا هو أن نفهم هذا العالم، والخطوة الأولى تجاه تحقيق هذا الفهم - التى لم نخطُها عندما كنا فى بدء دراستنا - هى الاعتراف بأن العالم لا يسهل فهمه دائمًا.

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات الموجزة تشرح كيف يفكر علماء الاقتصاد، وتستعرض كثيراً من المسائل التى نراها غامضة، ولماذا نراها غامضة، وكيف نسعى إلى كشف غموضها، وتصف مسائل أخرى أتصور أنها قد حُسمت وأخرى لم تُحسم بعد. إن أسباب دراسة علم الاقتصاد متعددة وكلها أسباب جيدة، ولكن السبب الذى حاولت إبرازه فى هذا الكتاب هو أن علم الاقتصاد يعتبر أداة لحل الألغاز الغامضة، وفى حل الألغاز متعة كبيرة.

أسعدنى الحظ خلال الجزء الأكبر من الأعوام العشرة الماضية بأن أتناول غدائى يوميًا مع مجموعة رائعة من جهابذة علم الاقتصاد الذين كانوا دائمًا مصدرًا لإلهامى بحدة ذكائهم، وجرأة أفكارهم، ونفاذ بصيرتهم. فبصورة شبه يومية، يأتى أحدنا بلغز جديد لنناقشه على مائدة الغداء، فتُطرح مئات الأفكار الجديدة والعبقرية، وتطرح مئات الاعتراضات المفحمة، وأحيانًا تجد ردًا عليها. وكنا نفعل ذلك من أجل المرح فحسب.

إن هذا الكتاب هو تسجيل لكل ما تعلمته فى تجمعاتنا على الغداء، وإننى أثق أن بعض الأفكار كانت أفكارى الخاصة ولكننى لم أعد واثقًا أيها بالضبط، فقد تعلمت الكثير من الأفكار الأخرى من كل من مارك بيلز Mark Bils، وجون بويد John Boyd، ولورين فينستون Lauren Feinstone، ومارفن جودفريند Marvin Goodfriend، وبروس هانسن Bruce Hansen، وهانان جاكوبى Hanan Jacoby، وجيم كان Jim Kahn، وكين ماك لوجلين Ken McLaughlin، والان ستوكمان Alan Stockman، وآخرين ممن انقطعت أخبارهم على مر السنين.

وإننى لأهدى هذا الكتاب لمجموعة الغداء تلك، مع شكرى العميق لهم لسماحهم لى بمصاحبتهم فى رحلة حياتهم المثيرة.

وأهديه أيضًا لبونى بونومو Bonnie Buonomo، مديرة المطعم التى خلقت الجو المثالى الذى ساعد على تألق المجموعة، كذلك أهديه لمقهى تيفولى بروتشيستر الذى سمح لى، أثناء كتابتى للمسودة الأخيرة، بإقامة شبه دائمة فى مقابل ثمن قدح القهوة اليومى، متحديًا بذلك قوانين علم الاقتصاد.

ملاحظة عن فصول الكتاب

تقدم هذه الفصول نبذة عن رؤية عالم الاقتصاد للعالم، وأغلبها يمكن قراءته دون مراعاة للترتيب؛ قد تجد فى بعض الفصول إشارة إلى أفكار من فصول سابقة، ولكن تلك الإشارات ليست ضرورية لمتابعة تدفق الأفكار.

إن الغرض من أفكار هذا الكتاب هو تقديم صورة صادقة لأسلوب التفكير الذى يتبناه أصحاب الاتجاه السائد فى علم الاقتصاد. وبالطبع، فهناك دائمًا مساحة للاختلاف على التفاصيل، وبالتأكيد قد يرغب أحد علماء الاقتصاد فى الاختلاف معى حول بعض ما ورد فى الكتاب، ولكننى أثق بأن معظم من قرأه من علماء الاقتصاد سيرون أنه يعكس بدقة وجهة نظرهم العامة.

وسوف يلاحظ القارئ المدقق أن هذا الكتاب يطبق المنطق الاقتصادى على مجموعة هائلة من السلوكيات الإنسانية (وأحيانًا غير الإنسانية)، وسيلاحظ أيضًا عند طرح سؤال يتعلق بمدى إمكانية تطبيق أحد المبادئ الاقتصادية أن الكاتب يميل إلى المبالغة فى الشمولية حتى إن جازف بذلك بارتكاب الأخطاء. إننى أومن أن قوانين علم الاقتصاد عالمية؛ فهى لا تفرق على أساس الجنس أو العرق، وعلى هذا فأنا على ثقة بأن القارئ المدقق لن يخطئ فهم استخدامى المتكرر للضمائر المذكرة مثل «هو» أو «له» فيظن أن المقصود بها هو جنس الذكور فقط. ■

ستيفن لاندسبيرج

كتب فرنسية

Debout sur la cime du monde
Manifestes futuristes 1909-1924
وقوفا على قمة العالم
بيان المستقبلية ١٩٠٩-١٩٢٤
Jean-Pierre De Villers et Filippo Tommaso Marinetti
Dilecta; 158pp, 22Euro, 2008



عام ١٩٠٠ انبهر فيليبو توماسو مارينيتي (١٨٧٦-١٩٤٤)، الإيطالي الشاب الذي ولد في الإسكندرية، بما اكتشفه للتو في المعرض الدولي في باريس، بعد أن عاش في ظل الأهرامات وقبة ميلانو حيث ترك له والده ثروة طائلة.

وها هو يستجيب لنداء الحداثة، بعد أن تعب من المباني القديمة، ومن خيبة أمله في عالم غارق في رسائل الرموز العتيقة.

لكن الأمر استغرق ثماني سنوات أخرى، حتى يبلور رؤية كاملة بشأن هذا العالم الجديد كما يتصوره.

ففي ليلة من ليالي شهر أكتوبر ١٩٠٨، أخذ يدون على أوراق الخطابات الخاصة بفندق «جراند أوتيل دو باري»، أحد عشر بندا لبيان تأسيس المستقبلية»، لينشر هذا البيان فيما بعد في الصفحة الأولى من «الفيجارو».

وخلال السنوات التالية، توالى ما يقرب من ثلاثين بيانا لهذا التيار الذي شاع في أوروبا في مختلف وجود الفن من أدب وموسيقى وعمارة.

إلا أن هذه الحركة لم تحافظ على وحدة فنية تجمع خيوطها في البلاد الأوروبية المختلفة. فسرعان ما أعلن مارينيتي، باعث الحركة، عن نعرة قومية مؤيداً لموسوليني والفاشية، وهو ما سجله في كتاب بعنوان «المستقبلية والفاشية».

■

Lettres et carnets
رسائل وبطاقات
Hans et Sophie Scholl
Tallandier; 368pp, 23 Euro, 2008



يوم ٢٢ فبراير ١٩٤٣، تم إعدام هانز وصوفي شول إضافة إلى رفيقهما كريستوف بروبست. وبعد أسابيع قليلة، لقي الثلاثة أعضاء الآخرون من «الوردة البيضاء» نفس المصير.

كانت جريمتهم كتابة عبارة «تحيا الحرية» على الحوائط وتوزيع منشورات في جامعة ميونيخ، تدعو الألمان لمقاومة النازية.

كان هانز وصوفي في فترة دراستهما الثانوية مقتنعين بالشعارات التي يروج لها النظام النازي، فالتحقا بشبيبة الحزب. لكن في ديسمبر ١٩٣٧ تم سجنهما لمدة أسابيع في مدينة شتوتجارت بسبب نشاطهما مع منظمات الشباب، وهي منظمات ذات توجهات اجتماعية غير سياسية مثل الكشافة والجمعيات الدينية وغيرها، إلا أنها كانت ممنوعة من النظام النازي منذ عام ١٩٣٣ وكان الانتماء إليها يؤدي إلى السجن. بعد اعتقالهما بدأ الإخوة شول في مراجعة قناعاتهما المتعلقة بالحزب النازي، ثم تشكل لديهما موقف رافض لهذا النظام مع بداية الحرب.

درست صوفي الفلسفة في جامعة ميونخ وتعرفت هناك على زملاء أخيها من طلبة الطب، فكونوا معاً مجموعة من خمسة طلبة وأستاذ جامعي حملت اسم «الوردة البيضاء».

وبالرغم من عدم نجاح أعضاء هذه المجموعة في إزاحة النظام النازي فإنهم تمكنوا، من خلال منشوراتهم، من الكشف عن الجرائم التي كان النظام يقترفها وفضحه أمام الجماهير التي كانت لا تزال منخدعة في بطولة هتلر وفضله في القضاء على البطالة وإعادة الأمجاد لألمانيا.

■

La Mécanique infernale
L'Histoire du XXe siècle à travers le terrorisme
ميكانيكا الجحيم
تاريخ القرن العشرين عبر الإرهاب
Matthew Carr
Héloïse d'Ormesson; 560pp, 25Euro, 2008



يتتبع هذا الكتاب تاريخ الإرهاب منذ أن وضع له الفوضويون الروس تصورا، في أواخر القرن التاسع عشر، وحتى الصورة التي وصل إليها في عصر العولمة، والتي تجسدت في مأساة ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

يستعين ماثيو كار في كتابه بالأعمال الأدبية بقدر ما يستعين بالمصادر التاريخية. ويبحث المؤلف في الإرهاب من حيث تعدده وتعقيده. فيستعرض عددا من المنظمات المختلفة بدءا من مجموعة «جناح الجيش الأحمر» الألمانية التي نشطت في السبعينيات وعرفت باسم عصبة «بادر» نسبة إلى مؤسسها أندرياس بادر، وحتى المنظمات الإسلامية المعزولة، مرورا بـ«الجيش الجمهوري الأيرلندي» و«الألوية الحمراء» الإيطالية، و«جبهة التحرير الوطني» الجزائرية، وتنظيم «القاعدة».

ودون أن يبرر الإرهاب، يوضح جذوره ويشير لكثير من آليات تفكيك العنف بإصبع الاتهام. فبخلاف الخطاب السائد يؤكد ماثيو كار على دور المحافظين الجدد في أمريكا ووسائل الإعلام الغربية، في إضفاء صورة شيطانية على المتمردين، وفي دعم تدابير طارئة هددت سيادة القانون، وضخمت من شرور الإرهاب.

ميكانيكا الجحيم هو إذا دعوة لليقظة، وتأكيد على دور السياسات القمعية في تمهيد الطريق أمام التطرف.

ماثيو كار صحفي بريطاني، ولد في لندن عام ١٩٥٥، يعمل مراسلا لهيئة الاذاعة البريطانية ومحررا في الأوبزرفر والجارديان. تخصص في العمل في مناطق النزاعات بما في ذلك أمريكا اللاتينية، وصقلية، وخاصة في فلسطين.

■

L,Europe des lettres
Réseaux épistolaires et construction de l'espace européen
أوروبا الرسائل
شبكة الرسائل وبناء الفضاء الأوروبي
Marie-Claire Hoock-Demarle
Albin Miche; 416pp, 24 Euro, 2008



يتنافس القرنان الثامن عشر والتاسع عشر، بلا منازع، على لقب «قرن المراسلات». فخلال الفترة بين ١٧٨٩-١٩١٤، وضعت الخطوط العريضة لفن كتابة الرسائل، باعتبارها مركزا للاتصال والربط الشبكي بين المناطق الأوروبية المختلفة.

في هذا المضمار، برزت أسماء لامعة في الثقافة الأوروبية، كنقاط هامة في شبكة العولمة الأولى، التي غطت أوروبا عقب مرحلتها الثورية.

فمن جوته لمدام دو ستائل (كاتبة سويسرية اعتمدت في نظريتها على معرفة العادات والتقاليد والقوانين والشرائع)، مرورا بشتيفان تسفايغ (كاتب نمساوي وصف نفسه بأنه كان «يهوديا بالصدفة»، واشتهر بمناهضة النازية)، وروكان رولان (أديب فرنسي حاصل على جائزة نوبل)، تتبع ماري كلير هوك دومارل ميلاد وتطور وتأزم نموذج متكامل، امتزجت فيه الروح الوطنية مع الشعور بالانتماء المشترك للعالم، وتم التجاوز عبره عن الخلافات بين اللغات والأديان، والصراعات السياسية والتوترات الاقتصادية، لتسلط الضوء على العالم الذي اخترعته كتابة الرسائل، وحافظت عليه حتى اليوم.

■

Black Bazar
البازار الأسود
Alain Mabanckou
Seuil; 252pp, 18 Euro, 2009



الراوي أصلا من الكونغو، عاش في باريس طوال خمسة عشر عاما، يعشق البدل الإيطالية وأحذية وستون. تتغير حياته بين ليلة وضحاها عندما تهجره رفيقته سعيا وراء قارع طبول في فريق مغمور، في رحلة تشمل موناكو وكورسيكا.

يقضي وقته بين الآلة الكاتبة و«الجيبس»، حانة في الدائرة الأولى بباريس يرتادها معظم أصدقائه، شخصيات عجيبة ذات أسماء لا تنسى.

الكل يعتقد أنه يكتب للتخلص من حزنه وللتعبير عن غضبه. إلا أنه كان يكتب في الواقع مذكرات رجل ثائر، قرر الكتابة عن أزمة جنون العالم من حوله.

■

La Condition noire
Essai sur une minorité française
قضية السود
دراسة لأقلية فرنسية
Pap Ndiaye
Calmann-Lévy; 440pp, 21.5 Euro, 2008



خلال السنوات العشر الأخيرة، ظهر السود الذين يعيشون في فرنسا

المتروبوليتانية، بوضوح على الساحة الوطنية العامة، بحيث أصبح من الممكن التحدث عن قضية للسود فى فرنسا. وتحت هذا العنوان العريض تظهر بعض العناوين الفرعية مثل: استغلال الرياضيين، أعمال شغب فى الضواحى، مناهضة العنصرية والتمييز، الحركة التطوعية.

لكن كيف يمكن تعريف السود الفرنسيين؟ المؤلف يدلل على أن «قضية السود» فى فرنسا هى بالأساس قضية اجتماعية وليست طبقية، أو طائفية، أو مجتمعية، ولكن قضية أقليات، بمعنى أنها تخص مجموعة من الأشخاص ذوى الخبرة الاجتماعية المشتركة تؤدى للنظر إليهم عادة باعتبارهم سودا.

■

La Pensée anti-68

الرؤية المضادة لـ٦٨

Serge Audier

Gallimard; 320pp, 21.5 Euro, 2008



أصبحت كراهية مايو ٦٨ موضوعا شائعا. ولكن لا ينبغى النظر لشعار «ضرورة تصفية ٦٨»، الذى اختاره اليمين خلال انتخابات الرئاسة فى عام ٢٠٠٧، باعتباره مجرد هدف لحملة، ولكن باعتباره فى الأساس نتاجا لسيادة أيديولوجية بدأت فى أعقاب الأحداث نفسها واستمرت من احتفال لآخر بذكراها.

هل يمكن النظر لحمى مناهضة ٦٨، باعتبارها مجرد خطاب رجعى بسيط؟ ما هى مصادر هذا العداء؟ وهل تستحق ٦٨ إطلاق العنان فى نقد، فى الأغلب غير عادل، ولا أساس له من الصحة؟

■

Le Génocide voilé

الإبادة الجماعية «المحجبة»

Tidiane N'Diaye

Gallimard; 288pp, 21.5 Euro, 2008



هيمن العرب على مناطق أفريقية، جنوب الصحراء الكبرى، لثلاثة عشر قرنا دون انقطاع. أثناء ذلك تم ترحيل ملايين الرجال، اختفوا تقريبا بسبب المعاملة غير الإنسانية. إلا أن تلك الصفحة المؤلمة من تاريخ الشعوب السوداء لم تغلق بعد على ما يبدو.

كانت البداية عندما بعث عمرو بن العاص، عبد الله بن أبى السرح لفتح النوبة عام ٦٥٢، لكنه لم يفتحها واكتفى بإجبار ملوكها على توقيع اتفاقية، فرضت عليهم تسليم المئات من العبيد سنويا.

تم انتزاع معظم هؤلاء الرجال من دارفور. وكانت هذه هى نقطة الانطلاق لانتهاك واضح لحقوق شعب لم يتوقف حتى الآن.

■

Seul dans le noir

وحيدا فى الظلام

Paul Auster

Actes Sud; 192pp, 19.5Euro, 2009



على أثر حادث سيارة، يجبر أوجوست بريل الناقد الأدبى المتقاعد على الجمود.

ذات ليلة، يجد الملجأ فى مواجهة هواجس الحاضر ووطأة الذكريات التى تحدق به، أثناء أسره السريرى، فى سرد تاريخ مواز للعالم؛ فى هذا التاريخ المتصور، لم تقع أحداث ١١ سبتمبر، ولم تدخل الولايات المتحدة فى حرب ضد العراق، فبدلا من ذلك تعانى من حرب أهلية لا هوادة فيها!

■

Courir

الجـــــرى

Jean Echenoz

Minuit; 144pp, 13.5Euro, 2008



يكرس إميل حياته للجرى، يتمرن حتى يصبح تحسين أدائه هاجسه الأكبر؛ إنه يريد أن يصبح أسرع رجل يجرى على وجه الأرض.

من الخطأ أن نرى فى «الجرى» مجرد هدف لواحد من أهم الرياضيين على مر العصور. فبخلاف هدف إميل، يصور جون إشنو ملامح رجل استثنائى حتى فى حرصه على أن يجرى بسرعة.

يواجه المتسابق المنضبط، الغزو الألمانى، والتحرير، والقمع السوفيتى، بنفس الطريقة التى يواجه بها سخرية الجمهور والظروف المناخية القاسية. يخرج لكل العقبات التى تواجهه لسانه، دون أن يتخلى للحظة عن غطرسته اللامبالية.

■

Day

داى

Alison Louise Kennedy

Paule Guivarch

L'Olivier; 336pp, 23 Euro, 2009



كان الفريد داى يبلغ ١٥ عاما عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩. هربا من أب مدمن خمر انضم للقوات الجوية الملكية.

وكانت الحرب له مجالا للتعلم: اكتشف الصداقة مع رفاقه فى السلاح، وروايات آرثر كونان دويل، والحب فى أحضان جويس. إلا أن العنف عرف طريقه إليه فى النهاية. فخلال عملية قصف، سقطت طائرته، ولم ينج غيره من طاقمها، فتم أسره من قبل العدو.

وبعد عدة سنوات، أطلق سراحه، إلا أن «داى» ظل أسيرا لذكرياته. وفى عام ١٩٤٩، قرر التصالح مع ماضيه من خلال الموافقة على تجسيد سنوات الحرب والأسر فى فيلم سينمائى. وبين الممثلين فى أزياء الحرب والديكورات الورقية، واجه مرة أخرى خوفه وألمه الدائم.

■

Journal d,une année noire

يوميات عام أسود

John Maxwell Coetzee

Seuil; 300pp, 21.8 Euro, 2008



إم كوتزى الجنوب أفريقى الأصل، فرصة للتعبير عن آرائه فى المواضيع التى يختارها: الموسيقى، الرياضة، الاستغلال الجنسى للأطفال، الخدمة الطوعية، مكيافيللى، الديمقراطية، جوانتانامو، التعذيب، والإرهاب، الخ...

يتعطل المشروع بسبب مرض الناشر، فيعهد بمسودة الكتاب لجارته الشابة الفلبينية. بموهبتها الفطرية وحسها المرهف، تنتقد الشابة الأفكار، وتناقش النصوص، وبالتالى تزيل المواقف الحادة التى اعتمدها المؤلف، وتلهم الناشر بنسخة جديدة «مخففة».

ليخرج النص فى النهاية معبرا عن ثلاثة أصوات، أحيانا فى حالة تناغم وأحيانا أخرى فى حالة تنافر.

■

Ulysse from Bagdad

أوليس من بغداد

Eric-Emmanuel Schmitt

Albin Michel; 313pp, 16 Euro, 2008



يريد سعد مغادرة بغداد، والفوضى التى تعمها، ليذهب لأوروبا، بحثا عن الحرية والمستقبل. ولكن كيف له أن يعبر الحدود دون أن يكون فى جيبه دينار واحد؟

كيف! تماما كما فعل أوليس، واجه العواصف، ونجا من الأعاصير، وهرب من تجار الأفيون، تجاهل إغراءات عرائس البحر، وهرب من قسوة السجن وتخلص من سحر فتاة صقلية.

فى أجواء عنيفة وهزلية ومأساوية بالتناوب، يبدأ سعد رحلة بلا عودة.

مغامرة تصنعها المحن، تتخللها محادثات مع أب رحيم ومؤثر.

تحكى هذه الرواية قصة رجل من بين ملايين ينزحون اليوم، بحثا عن مكان يسعهم على وجه الأرض؛ باختصار هى يوميات مهاجر غير شرعى.

■

Meltdown

الذوبـــــان

Thomas E. Woods Jr.
Regnery Publishing, 2008,
194PP, 27.95$



هل الرأسمالية هي الجاني في الأزمة المالية الحالية؟

في هذا الكتاب يكشف الكاتب عن الأسباب الحقيقية وراء انهيار أسعار العقارات وأسواق المال. فوسائل الإعلام تروج لأن الأسباب الحقيقية وراء الأزمة هي رفع القيود وتحرير الأسواق، وإن هذه الأزمة لن تعالج سوى بإصدار مجموعة من القوانين الفيدرالية التي تنظم هذا. ولكن الكاتب يجادل أن السبب الحقيقي وراء هذا الانهيار ليس قادما من وول ستريت وإنما من واشنطون.

فالكاتب يرى أن محاولات السياسيين لحل الأزمة لا تزيدها إلا سوءا، وهو في هذا الكتاب يحلل كل فترات الازدهار والكساد خلال القرن الماضي، ويقرنها بالسياسات الحكومية المختلفة، مثل سياسة الاحتياطي الفيدرالي التي اتاحت للبيروقراطيين سحب الخيط من القطاع المالي والتحكم في قيمة المال.

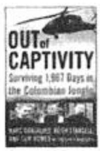
إذا كنت تريد معرفة الأسباب الحقيقية وليست الملفقة للأزمة المالية العالمية، فهذا الكتاب سيكون دليلك لهذا الفهم.

■

Out of Captivity

الخروج من الأسر

Marc Gonsalves, Tom Howes,
Keith Stansell, Gary Brozek
William Morrow, 2009, 480PP,
26.99$



في الثالث عشر من فبراير من عام ٢٠٠٣ تحطمت طائرة تحمل ثلاثة مقاولين أمريكيين في الغابات الكولومبية، وفي لحظة خروجهم من الطائرة المحطمة فإذا بهم يجدون وابلا من الرصاص يطلق عليهم ليزيد جروحهم اتساعا، ليكتشفوا أنهم أصبحوا أسرى للقوات المسلحة الثورية الكولومبية، تلك المنظمة الماركسية المسلحة التي يمتد صراعها مع الولايات المتحدة لأكثر من خمسين عاما.

غونسالفيس، وهاوس، وستانسيل يحكون قصة ١٩٦٧ يوما في الأسر، كيف استطاعوا البقاء على قيد الحياة طوال هذه الفترة، وكيف كانت حياتهم، و كيف أنقذوا في نهاية الأمر.

الكتاب يحكون في هذا الكتاب عن أيامهم في الأسر، عن معاناتهم، وقلقهم، وعن تفاعلهم اليومي مع الثوار الكولومبيين، كما يحاولون وصف وتقديم شخصية الثوار الكولومبيين، كيف يفكرون، وما هي أهدافهم، وكيف يتم تجنيدهم.

خمسة أعوام ونصف يناضلون من أجل حريتهم وحياتهم، في واحدة من أطول أزمات اختطاف المدنيين في الولايات المتحدة الأمريكية.

■

The Next 100 Years

المائة عام القادمة

George Friedman
Doubleday, 2009, 272PP,
25.95$



جورج فريدمان ضابط المخابرات السابق، ومؤسس شركة ستارتفورت للتنبؤ الإستراتيجي، التي تعمل في مجال الاستخبارات الخاصة، ولديها أكثر من ٥٠٠ عميل يمثلون حكومات وشركات كبرى، والتي يطلق عليها اسم (ظل المخابرات الأمريكية).

الشركة تقوم يوميا بكتابة تقارير لتحليل الأحداث الدولية اليومية وتوقع تداعياتها المختلفة في المستقبل القريب، ولكن فريدمان في هذا الكتاب يتحدى الجميع ويقدم توقعا لأحداث مائة عام قادمة.

توقعات فريدمان تحمل العديد من المفاجآت، وبعضها يحمل سمة الخيال العلمي فهو يتوقع حروبا أكثر ولكن أقل دمارا، وهو يتوقع زيادة القوة والهيمنة الروسية، وتضاؤل نفوذ الصين الدولي، واشتباكات مسلحة على الحدود الأمريكية المكسيكية، وعهدا ذهبيا أمريكيا في النصف الثاني من القرن الحادي والعشرين، وحربا فضائية بين اليابان وتركيا من جهة والولايات المتحدة وحلفائها من جهة أخرى.

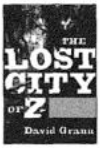
توقعات جريئة، وقراءة مدهشة في أحداث متوقعة لمائة عام مقبلة.

■

The Lost City of Z

مدينة «زي» المفقودة

David Grann
Doubleday, 2009, 352PP,
27.50$



في عام ١٩٢٥ قام المستكشف الإنجليزي الشهير الكولونيل بيرسي فاوسيت ومعه ابنه جاك بمغامرة كبرى للبحث عن مدينة «زي»، أحدى مدن الحضارة الأمازونية القديمة، التي يُشكك في وجودها.

فاوسيت وابنه لم يعودا أبدا من رحلتهما، ولكن هذا لم يمنع العديد من المستكشفين الآخرين، والباحثين عن المغامرة، وأساتذة الجامعات، من اقتحام الأدغال للبحث عن أي أثر للمدينة أو لفاوسيت.

الكاتب هو واحد من هؤلاء المستكشفين الذين ذهبوا للبحث عن مدينة «زي» المفقودة، ليقدم في هذا الكتاب قصة رحلته وقصة أدغال الأمازون الغامضة.

■

Happy for No Reason

سعادة بدون سبب

Marci Shimoff
Free Press, 2009, 336PP, 15$



وفقا لمنظمة الصحة العالمية، بحلول عام ٢٠٢٠ سيكون الاكتئاب ثاني أكثر الأمراض انتشارا بعد أمراض القلب في العالم، الكاتبة ترى أن هذا يمكن تغييره إذا ما تعلمنا كيف نزرع السعادة بداخلنا، السعادة التي لا ترتبط بأسباب معينة والتي وجدت لتبقى.

الوصول إلى السعادة في رأي الكاتبة سهل للغاية، فعلى المرء أن يتعلم كيف يتجاهل الأسباب التي تدفعه للاكتئاب وأن يتمسك بإحدى وعشرين عادة تساعد على جلب السعادة. وهي العادات التي استخلصتها الكاتبة من لقاءاتها مع أكثر من مائة شخصية تعد من الشخصيات شديدة السعادة.

■

Run for Your Life

اهرب من أجل حياتك

James Patterson, Michael
Ledwidge
Little, Brown and Company,
2009, 384PP, 27.99$



الكاتب جيمس باتيرسون بعد كتابه الأول عام ١٩٧٦ أصبح واحدا من أكثر الكتاب شهرة ومبيعا في العالم، فقد بلغ حجم مبيعات كتبه على مستوى العالم ١٤٠ مليون نسخة، كما احتلت عدة كتب ألفها المركز الأول لأكثر الكتب مبيعا. وتوج هذا بفوزه بجائزة ادجار.

في هذا الكتاب يتعاون جيمس باتيرسون مرة أخرى مع الكاتب مايكل ليدودج بعد تجاربهما السابقة الناجحة، ليخرجا هذا العمل الفني الشيق.

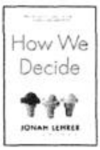
القصة تدور حول قاتل يطلق على نفسه اسم المعلم، يهدد سلام نيويورك ويقتل أغنياءها، ويترك دائما رسالة تقول «تذكر ما فعلت، أو واجه العواقب». وهناك فقط رجل واحد يستطيع إيقافه، هو المحقق «بينت» الذي يحاول إنقاذ نيويورك من أخطر كارثة في تاريخها.

■

How We Decide

كيف نقرر

Jonah Lehrer
Houghton Mifflin Co, 2009,
256PP, 25.00$



مهارة اتخاذ القرارات واحدة من أصعب المهارات التي يكتسبها الإنسان، وفي هذا الكتاب يحلل جوناه ليهرير عملية اتخاذ القرار، ويقدم تلميحات وطرقا للمساعدة على اتخاذ قرار أفضل.

يتساءل البعض، هل علينا اتباع غرائزنا وفطرتنا أثناء اتخاذ قرار، أم يجب اتباع الطرق التحليلية؟

الإجابة لدى ليهرير هى أن هذا يختلف طبقا للموقف ونوع القرار، مقدما فى هذا الكتاب دليلا لكيفية اتخاذ القرار السليم.

هذا الكتاب يأتى نتيجة لدراسة الكاتب لعقدين من الزمان علم الأعصاب، واقتصاديات السلوك الإنسانى، ليحقق ثورة فى فهمنا لعملية اتخاذ القرارات.

■

Heart and Soul

القلب والروح

Maeve Binchy

Knopf, 2009, 432PP, 26.95$



فى هذه الرواية تقدم الكاتبة ميف بنشى قصة أخرى من الحياة، القصة تدور أحداثها حول كلارا كاسى طبيبة القلب، التى تعانى من زواج مفكك وعمل ينهار.

كلارا قبلت بالعمل فى مستشفى سانت بريجيد على الرغم من انه لم يكن العمل الذى تريده، ولكنها رضيت به للهروب من تذكر زواجها المدمر. ولكنها لن تستطيع به الهرب من ابنتيها المراهقتين اللتين تعتمدان عليها فى كل شىء كما لو كانوا أطفالا صغارا.

من خلال حياة كلارا اليومية تقدم المؤلفة دراما اجتماعية واقعية مليئة بالأحداث.

■

First Family

العائلة الأولى

David Baldacci

Grand Central Publishing, 2009, 464 PP, 27.99$



فى واحدة من أكثر قصصه إثارة، يقدم ديفيد بالدسى قصة مثيرة عن اختطاف ابن الرئيس الأمريكى من داخل استراحة الرئيس بكامب ديفيد.

تبدأ أحداث القصة بعيد ميلاد ابن الرئيس الأمريكى، كل شىء يبدو طبيعيا، الأطفال يلعبون ويحتفلون، وفجأة تنقلب الأمور ويتم اختطاف ابن الرئيس الأمريكى مسببا كارثة للأمن القومى.

السيدة الأولى لا تثق إلا بشخص واحد فقط ليرجع لها ابنها المختطف، شين كنج، عميل مخابرات سابق، والذى سبق له إنقاذ الرئيس من مشكلة سياسية ضخمة، ويعمل الآن كمحقق خاص.

سباق ضخم لإنقاذ ابن الرئيس الأمريكى، عوامل سياسية متعددة تتداخل مع عملية الإنقاذ. وخيط بسيط يفصل بين الأصدقاء والأعداء.

■

١٨٤٨

Mike Rapport

Basic Books, 2009, 480PP, 29.95$



فى عام ١٨٤٨، اجتاحت أوروبا عاصفة عنيفة من الثورات، أطاحت بالمحافظين لتحافظ على سلام القارة المحقق من هزيمة نابليون فى معركة واتيرلو عام ١٨١٥، فى أحداث لم تشهد القارة لها مثيلا منذ الثورة الفرنسية وحتى عام ١٩٨٩ الذى شهد الثورة فى شرق ووسط أوروبا.

فى هذا الكتاب، المؤرخ مايك رابورت يبحث عن جذور الثورة والعنف التى اجتاحت أوروبا، وكيف تسلسلت الأحداث لتولد ثورات عديدة مترابطة فى كل أنحاء أوروبا غيرت مجرى التاريخ.

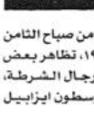
■

The Gardner Heist

سرقة جاردنير

Ulrich Boser

Collins, 2009, 272PP, 25.99$



فى الساعات الأولى من صباح الثامن عشر من مارس عام ١٩٩٠، تظاهر بعض اللصوص بأنهم من رجال الشرطة، ودخلوا إلى متحف بوسطون ايزابيل ستيوارت جاردنير، وغادروا ومعهم كمية رهيبة من اللوح العالمية، منها ثلاث لوحات لرامبراندت وواحدة لفيرمير، تقدر اليوم بأكثر من ٦٠٠ مليون دولار.

فى هذا الكتاب قصة ما سرق من المتحف، والمحاولات المختلفة التى حدثت على مدار ١٨ عاما للبحث عن المسروقات التى لم تظهر حتى الآن على الرغم من رصد المتحف لمكافأة قدرها ٥ ملايين دولار لمن يدلى بأى معلومات عن السرقة.

■

Obama

أوبـــامـــا

David Elliot Cohen, Mark Greenberg, Howard Dodson

Sterling, 2009, 224PP, 24.95$



كتاب وثائقى ليس له مثيل لتوثيق رحلة الرئيس أوباما إلى البيت الأبيض، الكتاب يحتوى على كلمات وصور أوباما منذ الترشيح الأولى وخلال حملته الانتخابية وحتى تقلده للرئاسة، ليحقق ما كان معتقدا أنه من المستحيل.

الكتاب يحوى مقتطفات من أكثر من ١٠٠ صحيفة ومجلة عالمية ومحلية، وصورا لحملته الانتخابية، ونصوص الكلمات التى ألقاها. ليكون تذكارا للأجيال القادمة.

■

My Hope for Peace

أملى فى السلام

Jehan Sadat

Free Press, 2009, 224PP, 25$



كتاب جديد للسيدة جيهان السادات قرينة الرئيس الراحل لمصر أنور السادات، تدافع فيه عن الإسلام بالدرجة الأولى، مقدمة ردودا على المفاهيم الخاطئة عن الإسلام حول عنف الإسلام وتشدده وحول مكانة النساء فى الإسلام. كما تتعرض لقصة الصراع العربى الإسرائيلى المستمر لأكثر من خمسين عاما، موضحة لجهود السلام المختلفة التى بدأها زوجها منذ أكثر من ثلاثين عاما، مشيرة إلى التعنت الإسرائيلى الواضح فى العملية السلمية.

السيدة جيهان السادات أولت اهتماما كبيرا لأحداث الحادى عشر من سبتمبر التى تراها غيرت وجه العالم وقسمت تاريخه إلى ما قبل الحادى عشر من سبتمبر وما بعده، موضحة أن هذا الحادث استدعى لديها مشهد اغتيال زوجها أنور السادات فى السادس من أكتوبر عام ١٩٨١، فهى ترى أن هناك تشابها بين الحدثين فى كون من قام بهما متطرفين إسلاميين يسيئون إلى الإسلام.

الكتاب قال عنه الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر «البطل الحقيقى لاتفاقية عام ١٩٧٩ للسلام بين مصر وإسرائيل كان أنور السادات، وكتاب زوجته جيهان هذا يذكرنا أن حلم السادات بسلام المنطقة لا يزال حيا»، كما قال عنه هنرى كاسينجر وزير الخارجية الأمريكية السابق «الكتاب: جزء منه يذكرنا بالسيد الرئيس أنور السادات، ومبادرته للسلام والإعتراف بإسرائيل، والذى دفع حياته ثمنا لها، والجزء الاخر يذكرنا بأن الإرهاب والتشدد الإسلامى هو أمر مرفوض من قبل الغالبية العظمى من المسلمين».

■

Sufism, Mystics, and Saints in Modern Egypt

التصوف والصوفية فى مصر الحديثة

Valerie J. Hoffman

University of South Carolina Press, 2009, 488PP, 32.50$



لقرون عديدة أخذ التصوف الإسلامى دورا هاما فى الحياة الروحانية الإسلامية، والحياة الفكرية والدينية والشعبية، وهذا الكتاب هو دراسة متعمقة فى الصوفية ومعتنقيها فى مصر هذه الأيام. ما هى؟ وما هى مبادئهم؟ وما هو دور النساء فى الصوفية؟ والعديد من الأسئلة الأخرى التى توضح الصوفية ودورها فى مصر.

الكتاب يقدم رسما مفصلا للصوفية، وتجارب حية لمعتنقيها وأفكارهم ومعتقداتهم، مع توضيح للعديد من المعلومات المغلوطة عن الصوفية فى مصر.

■

«وجهات نظر» تهتم بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

العميل بابل

تأليف: عمرو الليثي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩ ، ١٣٦ صفحة



يقول الصحفي والإعلامي عمرو الليثي في تقديمه لهذا الكتاب: «حملت حقائبي وقلمي.. سافرت إلى موقع الحدث.. إلى لندن.. والدافع الأساسي.. الإجابة عن سؤال: من قتل أشرف مروان؟ ولكني في الوقت نفسه كنت أبحث عن إجابة أخرى لسؤال كان مطروحاً من قبل وفاة مروان: هل كان جاسوساً مزدوجاً بين مصر وإسرائيل؟

اتصلت بكل الأطراف.. حاورت الجميع.. سألت مئات الأسئلة.. والنتيجة: أن سبب وفاة أشرف مروان ليس انتحاراً على الإطلاق.. ولكن هناك جريمة وقعت.. وكشفت أيضاً أسئلة لا تقل أهمية عن معرفة القاتل.. أو ماذا كان يفعل مروان مع أجهزة المخابرات؟.. وأؤكد أن تحقيقي توصل إلى أسئلة ونتائج لم أكن أنا شخصياً أتوقعها.. وسيفاجأ بها القارئ».

■

المسحراتي

محمد خطاب
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩ ، ٢٣٩ صفحة



يجوب «المسحراتي» الحارات والأزقة، ممسكاً بطبلة ليوقظ الناس للسحور، لكنه هنا لا يقف عند حدود المكان والزمان، بل ينتقل بنا من الاستيقاظ إلى اليقظة: اليقظة بمعناها العميق حين تأخذنا عبر لغة بسيطة، لكنها البساطة الآسرة، وما أصدقها حين تقرع طبولها لنقرأ عن انتحار التاريخ، ووفاة المثل العليا، ومكافحة الأمية السياسية، إضافة إلى معان أخرى لا يستطيع أن يوقظها بداخلنا إلا هذا النوع من المسحرين الجادين الذين يعون - في زمن يمتدح الجهل - الدور الذي يجب أن يلعبه «المسحراتي».

■

فكر الفضاء

جيل غاستون غرانجي
ترجمة: د. علي دعيبس
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٢٨٨ صفحة



لا شك في أن معنى الفضاء هو من صلب تفكيرنا. نحن نفكّر في الأشياء ونراها ونلمسها في الفضاء. لكن هل نفكّر الفضاءَ نفسه؟ هل الفضاء مجرّد شكل أم هو شيء أيضاً؟

يبدو حل المسألة جاهزاً مادام علماء الرياضيات قد أوجدوا، عن طريق التجريد ومنذ زمن طويل، علماً موضوعه الأشياء، باعتبارها موجودةً في الفضاء، وهذا العلم هو الهندسة. لكن هل هذا صحيح؟ وكيف؟

يتناول الفيلسوف غرانجي هذه المسألة المركزية، منذ الفيلسوف كنْت، متابعاً أعماله المعروفة في مجال فلسفة العلوم.

■

قاموس التنمية
دليل إلى المعرفة باعتبارها قوة

تحرير: فولفجانج ساكس
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨، ٦١٢ صفحة



يمكن تسمية الأربعين سنة السابقة لظهور هذا الكتاب بـ«عصر التنمية»، وباسم التنمية كافح الجنوب من أجل اللحاق بالشمال، وهبط الخبراء على القرى، القريب منها والقاصي، وتحول ملايين البشر إلى عمال أجراء ومستهلكين.

ولكن «التنمية» كانت أكثر من مجرد مسعى اجتماعي اقتصادي، فهي إدراك يشكل الواقع، وخرافة تريح المجتمعات وخيال يطلق المشاعر، ويبحث هذا الكتاب «التنمية» باعتبارها رؤية كلية خاصة. في هذه المجموعة الرائدة يستعرض بعض أبرز منتقدي التنمية في العالم المفاهيم الأساسية لخطاب التنمية في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويبحث كل مقال أحد المفاهيم من وجهة النظر التاريخية والأنثروبولوجية ويلقي الضوء على تحيزه الخاص. وبعد أن يكشف المؤلفون ما تتسم به فكرة التنمية ذات المركزية الأوروبية من عدم مواءمة تاريخية وعقم، فإنهم يدعون إلى هجرها بالكامل، وهم يقولون إن هناك حاجة ماسة إلى ذلك، كي نحرر عقول الناس، في كل من الشمال والجنوب، من أجل إيجاد حلول شجاعة للتحديات البيئية والأخلاقية التي تواجه البشرية في الوقت الراهن.

هذه المقالات دعوة إلى الخبراء والحركات الشعبية وطلاب التنمية: كي يتعرفوا على النظارات المعتمة التي يلبسونها حينما يشاركون في خطاب التنمية. وقد تلا كل مقال ببليوجرافيا تعين القارئ على التعرف على موضوعه بشكل أوسع، لتشجيع المزيد من الدراسات في التاريخ الثقافي لفكرة التنمية.

■

طريقُ الشِعر والسفر

أمجد ناصر
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨ ، ١١٠ صفحات



أنا من الأشخاص الذين يعتبرون بيروت تاريخاً فاصلاً في حياتهم على أكثر من صعيد، ولم أستنفد، رغم الاستعدادات المتكررة لتلك الفترة القصيرة من حياتي، المخزون الكامن فيها.

ففي بيروت حصلت على ما لم يكن ممكناً لي الحصول عليه في عمان، لم تكن مكتبات بيروت، تتوافر، فقط على كتب لم تصل إلى عمان، ولكنها كانت أيضاً مكاناً لم يتوقف فيه السجال، رغم الحرب، في الشعر والشعرية اللذين عرفتهما في أواخر الخمسينيات.

هذا وجه من وجوه عبقرية المدينة التي لم تتمكن الحروب والاحتلالات والنزاعات الدامية أو الانقسامات الأهلية من إطفاء جذوتها أو الاستئثار بها.. أو مماثلتها بمحيطها العربي. كان الشعر، والسجال حوله، رغم حرب السنتين الطاحنة، على وشك أن يستأنف طوراً جديداً تواصل نحو عقدين بعد ذلك وأمكن له أن يمتد إلى عواصم أخرى ويشبكها في صخبه. هل أعزو الخلخلة التي أصابت قناعاتي الشعرية في بيروت إلى إيماني الضعيف بهذه القناعات؟ لا أستبعد ذلك، رغم إشارة أكثر من ناقد وشاعر، من بينهم عباس بيضون، إلى أنني «بدأت قوياً» في قصيدة الوزن. وليس بعيداً عن ملاحظة عباس، ذلك الأسى الذي أبداه محمود درويش، يوماً، عندما علق على «طوري النثري» قائلاً إنني لم تكن لي مشكلة مع الوزن!

■

مقتل فخر الدين

عز الدين شكري
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٢٤٨ صفحة



الرواية تصلح شهادة حيّة على العصر والظروف التي تحياها شخصياته الروائية، فهو يتعرّض للواقع السياسي العام، وانعكاساته اجتماعياً ونفسياً، بخبرة أتاحها له عمله في السلك الدبلوماسي، ذلك العمل الذي يقول عنه: «عندما تكون دبلوماسياً، لا تصنع الأشياء بالضبط كما تريد، فأنت طوال الوقت تتفاوض في الأمر الذي يلقي بظلاله على الحياة الشخصية، لكن في الكتابة الأمر مختلف، فأنا أصنع ما أريد، أخلق شخصيات وأصنع أزمات، وأدخل الأزمنة في بعضها البعض.. ليس لأحد أي سلطة عليّ.. أنا حر تماماً فيما أريد أن أفعله».

ركّز عز الدين شكري في هذه الرواية على التفاصيل الصغيرة التي تسهم في صناعة الحدث، لتشكل مجموعة من الأنهار الصغيرة، تصب في بحر الرواية الكبير، لتشكل ملامحه عبر تفتيت الحدث إلى مكوناته ودوافعه الأولية، بحيث يبدو هذا الحدث حقيقياً وواقعياً إلى درجته القصوى، لا يدور في فراغ، وليس وليد لعبة روائية قائمة على الصنعة، وهو ما يضفي على فلسفة العنف في مقتل فخر الدين بعداً ميتافيزيقياً: «صمتت بين السريات لحظة، ثم انهال الصوت دامياً متفجراً من كل نافذة ومدخل وسطح.. سقط فخر الدين سقطة واحدة على رصيف الشارع في دمه الأحمر القاني.. أفسح الهواء صدراً لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الآلية.. يطل وجه أحد

الجنود من باب بيت مقابل.. عبر الشارع مسرعاً شاهراً بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف.. دفعه بركلتين متلاحقتين حتى يتأكد من موته، رفع رأسه إلى من فوق السطح وأشار بإبهامه إلى أعلى».

في هذه الرواية يذهب المؤلف نحو هدفه مباشرة، ليدخل قلب معركة الإنسان الفرد مع الزمن الوجودي بعنفه واصطخابه واشتراطات واقعه التي تحيل الحياة جحيماً لا يطاق. ولتحقيق هذه الرسالة سلكت الرواية طرائق تقنية روائية متعددة، مثل الاقتباسات الشعرية وكلها تقريباً من محمود درويش رمز المقاومة والصمود في الشعر العربي المعاصر، وكأنها الخلفية الموسيقية التي تساعد فخر الدين على البقاء، في ظل إحباطاته المستمرة والمتعددة وتعرضه للخيانة من صديقه الشاعر الذي وشى به، ثم دخوله السجن، وتجنيده في حفر الباطن، يؤطر الشعر إذن هذه الرؤية الروائية ويخرجها من كآبتها وسوداويتها إلى أفق إنساني أرحب وجودياً، وكأن الشعر هنا هو نقطة الضوء الوحيدة في روح فخر الدين.

ثم تأتي تقنية السرد المباشر محدد الخط والهدف على لسان السارد المتكلم، أو السارد الواعي بالعمل ككل، تتخلله آلية البوح والاستدعاء، حيث تعمل الذاكرة عمل المنشط الموضوعي ليستدعي الحدث الآني تاريخه المتكرر، وهنا يصبح الحوار ضرورة فكرية تظهر مكنون الشخصية الروائية في تشابكها مع محيطها الأقوى منها القامع لها.

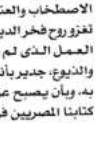
ثم تأتي ثالثاً تقنية الرسائل، وهي تقنية تمنح العمل حيوية وتخرجه من إطار الاصطخاب والعنف الرمزي واللغوي التي تغزو روح فخر الدين في لحظات عزلته، هذا العمل الذي لم يلق حقه من النجاح والذيوع، جدير بأنه يوضع في مكانه اللائق به، وبأن يصبح عز الدين شكري أحد كبار كتابنا المصريين في فن الرواية.

■

علاقة مستحيلة

جيلان حمزة

القاهرة: عربية للطباعة والنشر، توزيع مكتبة مدبولي، ٢٠٠٦



«علاقة مستحيلة» رواية تنقسم إلى جزءين، الأول بانوراما على الحياة المصرية تتطور فيه الأحداث السياسية من خلال البطلة «سعاد» فتعايش طفلة تنازل الملك عن العرش وتتألم لذلك وتتوالى المراحل من الرئيس محمد نجيب إلى عبدالناصر إلى زمن السادات.. بعد زواج «سعاد» وإنجابها لـ «منى وكريم» يرحل الزوج وتقف وحيدة.. الرواية تشير بحدة إلى فداحة فقدان الأب.. تكبر ابنتها منى وتتعاطى المخدرات وتختار زوجها من نفس مجتمعها الفاسد رغم مقاومة الأم «سعاد» شقيقها «كريم» يتخرج من الجامعة بدرجة امتياز.. يتقدم إلى وزارة الخارجية بدافع من أمه «سعاد» ينجح في كل الاختبارات الصعبة بامتياز ولكنه يعين في الأرشيف، لأنه بلا أب.. يسافر مع الدفعة إلى الخارج ويفهم أن الرحلة تعليمية، كثرة أسئلته واستفساراته أقلقت زملاءه والمشرفين على الرحلة، كذلك فالكل يريد إما الترفيه أو التسوق، وخاصة أنها كانت فترة الانغلاق.. يقسون في معاملته إلى الدرجة التي دفعته لعمل حق لجوء سياسي كما تعلم من كتب السياسة التي درسها وهي سابقة من موظف معين من أسبوعين فقط!! السفارة تتصل بالأم «سعاد» تسافر وتعود به في رحلة معاناة.. يأتي عمه الذي يعيش في أمريكا وتشكو له «سعاد».. يقدم «كريم» إلى لواء يعمل في الخارجية ليسوي حالته ويعود إلى عمله، وفي نفس الوقت يوفق في ترتيب خطبة لابنة هذا اللواء. إلا أنها تفشل بسبب رجوع الخطيبة إلى طليقها.. يترك «كريم» الخارجية.. يراسل جامعة في أمريكا ترحب به.. في هذه الأثناء تنجب شقيقته منى طفلا وتصاب بانهيار عصبي نتيجة لرفض زوجها المدمن الرجوع إليها ولو من أجل الطفل.

يسافر «كريم» إلى أمريكا وبعد عام يرسل لها العم دعوة لزيارته.. ولما كانت «سعاد» تمارس الرسم وكان هذا بالنسبة لها موردا للرزق يعينها إلا أنه كان دوماً في لحظات إبداعها ما يظهر شكل لوجه رجل في أرضية اللوحة دون قصد منها.. في مطار «كنيدي» ترى الرجل الذي كثيراً ما يظهر في أرضية لوحاتها، تتطور الأحداث لتعرف أن اسمه «يوسف» وتعرف أيضاً من الأحداث أنه المشرف على رسالة ابنها «كريم».. العم مشغول بمرض زوجته الخطير يشجعها على الاندماج في المجتمع الأمريكي حتى لا تشغل ابنها عن دراسته.. الدكتور يوسف يملأ حياتها.. تكتشف «سعاد» أنه يهودي فتصعق، يعلن د. يوسف عدم قدرته على العيش دونها.. يوسف يقوم بتعريفها على مجموعة من أساتذة الجامعة زملائه وتدور حوارات في منتهى الثراء من اغتيال السادات إلى ظاهرة الحجاب وعداء المسلمين للمسيحيين.. ومنابع الفكر الإسلامي من فكر الغزالي إلى ابن تيمية إلى المودودي.. تعلو ذروة الرواية والدكتور يوسف يعرض عليها الزواج بأي شكل تريده ويناقشها بالحجة والمنطق في أنه صاحب ديانة وكتاب منزل.. .... وكانت قادرة على مناقشته بالحجة فحياتها وحيدة أتاحت لها قراءة مستمرة قبل أن يكبر ابناها «منى وكريم».. تعود إلى بيت العم وتعلم نبأ موت زوجته، تسقط محمومة من حقيقة موقفها مع د. يوسف الذي أحبته ومن شدة انفعالها لوفاة زوجة العم.. تستجمع نفسها وتكتب خطاباً إلى الدكتور يوسف: كان يمكن لأشياء كثيرة أن تسوى، إلا أن أصوات الثكالى والأطفال في فلسطين تصم أذني.. وتقرر أن تعود إلى مصر.. يشجعها العم.. يستدعي ابنها من سكنه في الجامعة.. تسلمه الخطاب وهي تقول بأنه خطاب شكر للدكتور يوسف المشرف على رسالته.

الرواية مكتوبة بأسلوب فيه حشد لأحداث وقضايا معلقة ومؤجلة، كما أن بها حساً ميتافيزيقياً، ما أضفى على العمل رهافة شديدة.

■

على ماهر باشا

تأليف: محمد الجوادي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ٣١٢ صفحة



ليس هذا كتاب «تمجيد» ولا «تخليد»، بل كتاب «تقييم» و«تحليل» لحياة على ماهر باشا ١٨٨١ - ١٩٦٠ كواحد من أشهر وجوه عصر الليبرالية المصرية، وأكبر رجالات السياسة فيه؛ ظهر مع ثورة ١٩١٩ محركاً لقطاع الموظفين بكامله، وشارك في مفاوضات الوفد المصري مع لجنة ملنر بعد الثورة، ورحب بتصريح ٢٨ فبراير فدخل في خلافات طالت مع الوفديين. كان عضو لجنة دستور ١٩٢٣، ثم لجنة ١٩٥٤. تنقل بين الأحزاب والمناصب؛ فقد تولى رئاسة الديوان الملكي مرتين، ورئاسة الوزارة مرات أربع. و كان هو نفسه واضع سيناريو البداية والنهاية لحقبة الملك فاروق في السياسة المصرية.

يتناول هذا الكتاب شخصية السياسي الكبير؛ فيعرض أولا سيرة حياة وملامح شخصية على ماهر، ثم تدرجه السياسي، من الصعود حتى وصوله إلى قمة المسئولية، ثم كهولته السياسية، محللا علاقاته بأنداده، وأعدائه، وتعبيره عن ذاته في خواطر كتبها بعد عام من قيام الثورة.

■

زائرة الأحد

عبدالرشيد الصادق محمودي

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٩



صدرت المجموعة في سلسلة كتاب اليوم، وقدمت لها رئيس التحرير نوال مصطفى بأن وصفتها بأنها مجموعة قصصية رائعة تحكي عن الإنسان وصراعاته مع رغباته وتطلعاته بين أحلام مؤجلة وآمال محبطة والكاتب عبد الرشيد الصادق محمودي هو مؤلف تلك المجموعة الرائعة صاحب تجربة خاصة في الحياة وفي الإبداع معاً فقد عمل بالأمم المتحدة لسنين طويلة وهو كاتب له العديد من الكتابات والترجمات بالفرنسية والعربية في مواضيع شتى مثل الأدب والفلسفة، خاصة عن عميد الأدب العربي طه حسين مثل (طه حسين من الشاطئ الآخر)، و(طه حسين بين السياج والمرايا)، و(طه حسين من الأزهر للسوربون)، و(كتابات طه حسين بالفرنسية)، له العديد من الكتب في مجال الفلسفة مثل (علاقة ابن خلدون بأرسطو)، والمجموعة القصصية (ركن العشاق).

وفي هذه المجموعة القصصية نرتحل إلى أعماق أبطاله من خلال نسيج درامي محكم وحبكة متقنة وشيقة نرتاد أماكن وأزمنة يحكي كل منها القصة من وجهة نظره وبإحساسه الخاص، سبع قصص هي حصيلة هذه المجموعة وهي: من أين تأتي القصص؟، والحياة الجديدة، وسهرة في مونمارتر، وزائرة الأحد، ورجل الانتظار، وذات الأحفاد، وشعبان والعلامات، عناوين القصص تولد لدى القارئ من أول وهلة شغفاً كبيراً وفضولاً يحاول أن ينزع أستار الغموض ويصل إلى نهاية القصة.

ومن أكثر القصص التي أعجبتني شخصياً هي (سهر في مونمارتر) حيث المكان.. فالمكان الذي شهد أعلام الثقافة العربية ومناقشاتهم في باريس نراه يلهم الكاتب كما ألهم من قبل توفيق الحكيم الذي كان من رواد مونمارتر وبطلات رواياته شبيهات بالأنثى التي يحلم بحبها. يتجلى هذا في أسلوب أدبي رصين وصورة متقنة تضعك في حالة بين الحلم والحقيقة، وأتمنى أن تقرأوا وتستمتعوا بهذه المجموعة الرائعة وتعيشوا مع سطورها وأبطالها ومسارح أحداثها وأجواء الأدب الجميل.

■

ساعات بين الكتب

السيد أمين شلبي

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩، ٢٦٤ صفحة



يضم هذا الكتاب مجموعات من الكتب تعالج كل ثلاثة منها موضوعاً

وقضية واحدة فى مجالات الفكر والثقافة والتاريخ.. فالمجموعة الأولى تعرض لأعمال ثلاثة من المفكرين المصريين يعبرون فيها عن علاقتهم واشتباكهم مع الثقافة والحضارة الغربية، وكيف تأثروا بها وإلى أى مدى أثرت فى ثقافتهم التقليدية، وانتمائهم الوطنى، وتعرض المجموعة الثانية، لثلاثة كتب تضمنت رسائل كتبتها شخصيات غربية خلال إقامتها فى مصر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وسجلوا فيها انطباعاتهم عن الحياة والطبيعة والبشر فى مصر، وتتعرض المجموعات الأخرى لحضارة الشرق الأدنى ممثلة فى الصين واليابان وخبراتهم التاريخية والمعاصرة، كما يعرض الكتاب لأعمال تناقش قضايا التنوير، والعولمة، وعلاقة الإسلام بالغرب.

■

رسالة المحاماة

تأليف: رجائى عطية
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٢٩٤ صفحة



عبر أكثر من نصف قرن جرت أحداث فى نهر المحاماة ونقابتها أكلت من الرصيد الرائع الذى كان للمحاماة والمحامين!

عز على كثيرين أن تبقى المحاماة قوية مؤثرة فى الحركة الوطنية والحياة السياسية، حداهم إلى ذلك أن المحامى طاقة حرة ومؤثرة.. تتأبى على الإذعان أو التطويع، فالمحامى، لا ينتظر راتبا من أحد، وإنما رزقه فى يد الله - عز وجل - وعلى مدى كفاءته وقدراته وإخلاصه، ثم هو صاحب معرفة وحجة ومنطق وقدرة على المنازلة والمقارعة والإقناع، فلا سبيل إذن إليه إلا أن تضرب المحاماة بأسرها، والطريق القريب إلى ضربها: ضرب نقابتها، لذلك استهدفت نقابة المحامين منذ أكثر من نصف قرن.. تغيرت الأساليب والطرق والهدف واحد هو احتواء النقابة.. هذا الكتاب تعريف بالمحاماة، ودعوة للتقدم إليها، بقيمها ومبادئها وعلمها ومعرفتها، لتعود بالمحامين إلى ما كانت وكانوا عليه. لعل هذه هى الفرصة الأخيرة ليستيقظ المحامون وينتبهوا ويتفطنوا لاستخلاص أنفسهم ونقابتهم والمحاماة، واستعادة ما كان من عظمة وجلال.. أردت بإيراد بعض صفحاتها، أن تكون حافزاً للمحامين للتواصل الحقيقى والتقدم بعزم وإخلاص إلى المحاماة!

■

التحول الكبير
الأصول السياسية والاقتصادية لزمننا المعاصر

كارل بولانيى
ترجمة: محمد فاضل طبّاخ
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩، ٥٧٣ صفحة



يحلّل كارل بولانيى، فى هذا الكتاب، التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية التى جلبها «التحوّل الكبير» بعد الثورة الصناعية. ولا يكتفى تحليله بشرح نواقص السوق المنظِّمة ذاتياً، بل يشمل، أيضاً، النتائج الاجتماعية الأليمة الممكنة لرأسمالية السوق الجامحة. وإن ما يستجدّ فى عصر العولمة والتجارة الحرّة يسند لتحليل بولانيى أهمية متجددة.

مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها فى عام ١٩٤٤ تمّ نشر كتابين مهمّين فى الاقتصاد السياسى، كان أحدهما لهايك (Hayek) وهو: الطريق إلى العبودية، الذى تحدث عن القوة الدافعة وراء تطور السوق الحرّة فى الربع الأخير من القرن العشرين، والثانى لكارل بولانيى، وهو التحول الكبير.. هذا الكتاب يستحق القراءة، فعلاً.

■

حرب بلا نصر
لبنان: ربيع التغيير وصيف الحرب وشتاء الإضراب

أمير سعيد
القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٩



يقول الكاتب فى تقديمه للكتاب: أنتم أيها الثوار مثل زبد البحر، متى هدأتم انتهيتم: (القائد اللبنانى المختفى موسى الصدر) بهذه العبارة الموجزة اختزل الصدر مفهوم النضال عند الميليشيا التابعة له آنذاك/ أفواج المقاومة اللبنانية المعروفة اختصاراً باسم (أمل).. ثوار مثل زبد البحر، وهى هنا تعنى حالة دائبة من الحركة أنى اتجهت بهذا البلد الصغير، أكانت إلى الحرب أم إلى الإضراب، من دون أن يتعرض هذا الحراك لقدر من المراجعة والتدقيق فى مدى جدواه ومرتجاه، إذ الحركة ليست دائماً محمودة، ولا السكون كذلك، والعبرة تبقى فى محصلة الحراك، فالحقيقة أن القدرة التأثيرية لا تقاس بما تحدثه من جلبة، وبما تقطعه من أراض فى طريق سيرها، وإنما بمقدار ما تبعد فى النهاية عن نقطة البداية فى طريق النضال أو الفعل، فالسائرون فى الطقات المفرغة يجهدون كثيراً ويمشون طويلاً، لكنهم يعودون من حيث نقطة البداية أو ربما تقهقروا عنها، ومهما كان وجه منطقهم ناصعاً كما الزبد فإنه عند التحقيق لا يقوى على الاستمرار لأنه فى الحقيقة أجوف لا قلب له.. ويطأ من مطمحهم فلا يتطلع إلى السماء بل إلى الشارع عله يمنحه شرعية يرجو اقتناصها فتضن بها عليه، متى كان الرصيد النفعى مشدوداً إلى الخارج دائماً، والمحصلة فى الداخل الشعبى بكل ما يتمتع به لبنان من تنوع دينى وثقافى وسياسى محدودة، حيث يظل بلداً فسيفسائى التركيب بحاجة إلى التفاهم والتعايش على أرضية حضارية راسخة بعمق تاريخ هذا البلد العريق.

■

آفاق تربوية متجددة
صنع القرار فى السياسة التعليمية
الأطراف الفاعلة والآليات

نهى حامد عبدالكريم
تقديم: أ. د. حامد عمار
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٩، ٢٤٠ صفحة



يقع الكتاب فى أربعة فصول كبيرة، تحاول الإجابة على كل الأسئلة المتعلقة بالسياسة التعليمية فى مصر، فصل القرارات التى تخص التعليم يصدرها وزير التعليم أو توصل إليها بالمشاركة مع الفنيين؟ هل هذه القرارات وليدة استطلاعات للرأى العام من المعنيين بالسياسة التعليمية؟ كذلك تشير المؤلفة إلى الدور القانونى والدستورى لكل من السلطات المسئولة عن صنع القرار واتخاذه وتطبيقه فى مجال التعليم.

يوضح د. حامد عمار فى تقديمه للكتاب أن اتخاذ القرار كما يتناوله هذا الكتاب ليس عملية فنية أكاديمية فحسب، وإنما هو قبل هذا وبعده عملية سياسية تتولد من أهداف السلطة ومقاصدها وتوظيفها للنظام التعليمى، ولم تكتف المعالجة بهذه الرؤية النظرية، بل خصصت جزءاً كبيراً ومهماً من الكتاب للاشتباك مع واقعة محددة فى اتخاذ قرار معين، وهو تخفيض عدد سنوات التعليم الابتدائى إلى خمس سنوات بدلاً من ست، وذلك تحت ضغوط الأزمة المالية فى ذلك الحين، ثم عودة السنة الملغاة مرة أخرى، وتأثير ذلك على المدرسين والطلاب معاً، وعلى العملية التعليمية برمتها، ورأت المؤلفة أن الأدلة والبراهين التى ساقها د. فتحى سرور كرجل قانون كأسباب للإلغاء أدلة وبراهين قاصرة لا يعتد بها.

وانطلاقاً من تردى المستوى العام للتعليم تطرقت الدراسة إلى التراجع عن قرار الإلغاء وصدور قرار بعودة الصف السادس كعلاج أو محاولة للنهوض بالتعليم، وتحسين مستوى الثروة البشرية المصرية وتنميتها بصورة تخدم خطة التنمية القومية.

ونظراً للمردود السلبى الذى أحدثه قرار إلغاء الصف السادس، وهو الإلغاء المفاجئ الذى أدى إلى الكثير من المعارضة قامت المؤلفة بدراسة ميدانية طبقت فيها استبيانات استطلاع الرأى لاكتشاف توجهات آراء العاملين فى المجال التعليمى نحو تجربة الإلغاء، اتضح منها أن: صانع قرار الإلغاء استطاع أن يحيِّد المؤسسات التربوية، بل ويحصل على موافقتها لتدعيم وتعزيز مركزه وصورته أمام الرأى العام سواء داخل قطاع التعليم أو فى المجتمع المدنى ككل، وأظهر استبيان رأى معلمى الابتدائى والإعدادى أن قرار إلغاء الصف السادس أضر كثيراً طلاب الدفعة المزدوجة، كما تسبب فى قصور العملية التعليمية والتربوية، وهكذا كان من نتائج مركزية السلطة والتخطيط فى التعليم والانفراد باتخاذ القرارات المصيرية التى تمس حياة الملايين من الطلاب وأسرهم، دون دراسات وافية وتدرج محسوب، أن يستمر الهبوط فى المستوى العام فى المرحلة الإعدادية ويمتد للمرحلة الثانوية.

■

الإسلام الأسس

كولين تيرنر
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩ ، ٢٦٠ صفحة



إن كتاب «الإسلام الأسس» هو مقدمة موجزة نشر فى الوقت المناسب وتحديداً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ليقدم «الإسلام»، أحد أهم الديانات فى العالم، من خلال معتقداته، ممارساته، مبادئه وأهدافه. إنه محاولة، هدف من خلال المؤلف إلى تقديم صورة واقعية وموضوعية عن «الإسلام»، باعتباره أكثر إثارة للجدل خصوصاً بعد أحداث سبتمبر التى جعلت

من الدين الإسلامى دينًا يرمز إلى الأصولية والإرهاب والهجمات الانتحارية.

فى هذا الكتاب مقارنة جديدة لاستكشاف «الإسلام» من خلال الوحى القرآنى من جهة، وعقائد الإسلام من جهة أخرى. وهذه المقارنة نابعة من تفسيرات شخصية اكتسبها المؤلف من دراسته الأكاديمية للقرآن والدين الإسلامى تارة، ومن خبرته العلمية وسط أناس يدعون الإسلام تارة أخرى.

■

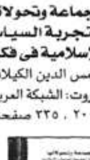
قهوة المصريين
تأليف: محمد كمال حسن
تأليف: مصطفى الحسينى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٥٧ صفحة



هذا الكتاب يضم مدونة مشتركة للمؤلفين يحكيان فيها مغامراتهما فى عالم القهاوى العجيب والمثير، وصدر ضمن سلسلة «مدونات الشروق»، ويقولان فى تعريفهما لهذا الكتاب «الموضوع مش شوية كراسى وكام ترابيزة وطقطوقة مركونين فى دكانة أو على رصيف أو فى شارع وشوية خلق قاعدة تلعب دومينو وطاولة ولا يتفرجوا على ماتش ويشربوا شايهم ويمشوا، مش بس اتنين أصحاب اتقابلوا اتكلموا شوية ومشيوا، ولا ناس عدت بالصدفة قعدت وقامت.. أنا كنت فاكرها كده، لحد ما فكرت أقعد أتفرج واسمع وبس. واعرف يعنى إيه قهوة ويعنى إيه حكايات....»

■

الجماعة وتحولاتها
التجربة السياسية العربية ـ الإسلامية فى فكر رضوان السيد
شمس الدين الكيلانى
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٢٣٥ صفحة



غلب على دراسات رضوان السيد واهتماماته الانشغال بموضوع «السياسة» فى المجال الإسلامى. وكان قد

أســرار الحــديقــة الإســلاميــة

جنات وعيون
دراسات فى عمارة الحديقة الإسلامية
صفى الدين حامد
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ١٢٨ صفحة

هذه دراسة بديعة شائقة، لا تصدر إلا من عالم رائد، على درجة عالية من التخصص فى العمارة والتخطيط البيئى، امتلأ وجدانه بعشق الجمال وأقباس الروحانية. من هنا كان اتساعها لما تضمنته من أبعاد حضارية وبيئية وروحية، وامتلاؤها بكيمياء الشعر وحرارته فى نماذج رفيعة فى الإبداع التعبيرى والتصويرى، والمؤلف يأخذ بأيدينا وألبابنا إلى تجليات الحديقة الإسلامية فى تصميمها الذى جمع بين «المعرفة العلمية والنزعة الفنية والامتلاء الروحى».

ولقد أتيح لى فى مستهل حياتى العلمية ـ وأنا بعدُ معلم للغة العربية فى مدرسة النقراشى النموذجية، فى حدائق القبة بالقاهرة ـ أن أتعرف على مؤلف هذا الكتاب الدكتور صفى الدين حامد، وهو طالب بالسنة الثالثة الإعدادية، وأن أكتشف استعداده المبكر وميله للهدوء والتأمل العميق وسيطرة النزعة العقلية على أسلوبه فى التفكير. وكانت عيناه الناقدتان من خلف نظارته الطبية تكشفان عما تمتلئ به جوانحه ومداركه من وعى يفوق سنوات عمره، يؤكد تمايزه ونضجه المبكر، وتفوقه المعرفى على أقرانه. وعندما ضربت يد السنين بيننا ـ تركت أنا العمل فى التعليم إلى المجال الإعلامى واتجه هو إلى دراسة الهندسة المعمارية فى جامعة القاهرة، منطلقًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الماجستير والدكتوراه ـ كنت سعيدًا بأن أتلقى منه بعد سنوات طوال من البعاد والانقطاع، بطاقة تحية، تؤكد لى ما توسمته فيه وراهنت عليه عندما كان فى الثالثة عشرة من العمر. لقد أصبح الصبى الطموح أستاذًا فى الجامعات الأمريكية، وأصبح الدكتور صفى رائدًا فى حقول العمارة والتخطيط والبيئة، مشاركًا فى هيئات ومنظمات دولية عديدة، وواضعًا لبرامج علمية تشهدها الجامعات العربية لأول مرة. وأصبح مقدرًا له أن يعود إلى بلده مصر ـ بين الحين والحين ـ خبيرًا ومستشارًا وأستاذًا رائدًا فى مجال تخصصه، وهو أمر ليس بالقليل.

لكن اللافت فى التكوين الإنسانى والمعرفى للدكتور صفى الدين حامد أنه يمثل أصدق تمثيل العالم المسلم المعاصر، فى معادلة مدهشة امتزج فيها العلم بالإيمان والنَّفس الروحى والحس الفنى المرهف، الأمر الذى يفسر اختياره عمارة



الحديقة الإسلامية مجالاً لهذه الدراسة، واختيار عنوان الدراسة مستلهمًا من آية قرآنية: «جنَّات وعُيون»، واتكاء منهجه على أسس راسخة متكاملة تجمع بين عناصر مادية وأخرى روحية، وتتغلغل فى أعمق أسرار الحديقة الإسلامية فى الأندلس ومدن فارس: أصفهان وشيراز وأشف، وإمبراطورية المغول فى القارة الهندية، من خلال رؤية ذات فضاء رحب متكامل ينتظم التنويعات المختلفة للحس الأساسى الواحد فى الجزيرة والمغرب وتونس ومصر وتركيا وصقلية والعراق والجزيرة العربية وأفغانستان والقارة الهندية والصين وأوزبكستان.

وأروع ما فى هذه الصفحات نجاح المؤلف وإبداعه فى الكشف عن العلاقة الوثيقة والتأثير الكبير للعقيدة والبيئة والثقافة فى تصميم الحديقة الإسلامية، من خلال الوصف القرآنى لجنات اليوم الآخر، وتأثير السنة النبوية، وتجليات هذا التأثير من خلال نماذج رائعة ومدهشة تتمثل فى حدائق العالم العربى المفقودة وحدائق قلعة الحمراء فى غرناطة بإسبانيا وبستان شالامار باغ فى باكستان، وحدائق بلاد فارس فى إيران، كما يتجلى فى تقسيم الحديقة أو البستان إلى أربع رياض يفصل بينها عنصر مائى يرمز لأنهار الجنة، على غرار اتساع الرياض الأربع فى الجنة لنزلائها الذين نصت عليهم الآية القرآنية: «ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» (النساء: ٦٩).

ومؤلفنا ينجز دراسته البديعة والمدهشة وعينه علينا نحن أبناء هذا الزمان المتراجع فى أقطارنا العربية والإسلامية، بهدف فتح عيوننا على المألوف الذى اعتدناه دون تأمله أو نقده أو الرغبة فى تغييره، بعد أن ساد القبح وتراجع الجمال، وسادت العشوائية، وتراجعت الهوية والشخصية، واتسع المجال للتغريب ـ وبخاصة فى مجال العمارة ـ من غير مراعاة للشروط والأوضاع المناسبة لبيئاتنا وثقافتنا وحضارتنا، من أجل تحقيق الانسجام بين البيئة العمرانية المتزايدة يومًا بعد يوم والبيئة الطبيعية التى تتلاشى تدريجيًا، وإعادة الوجه العربى الإسلامى الأصيل لحدائقنا ولتصميم المواقع خلال مدننا، من خلال جهد مشترك ينهض به خبراء عمارة البيئة وأساتذة تاريخ الفن والباحثون فى الحضارة الإسلامية العربية، وبخاصة أن فن تصميم الحديقة الإسلامية قد بلغ ـ عبر عصور تاريخنا الإسلامى ـ مستوى عاليًا من الشمولية الإنسانية، الأمر الذى أرضى جميع الأذواق محققًا البعدين: الفنى والجمالى.

الجميل أن المؤلف ـ فى دعوته إلى التمسك بالشخصية الإسلامية العربية فى تخطيط المواقع وتصميم الحدائق ـ لا يدعو إلى استعادة الماضى ومحاكاته وتقليده فى صورة حرفية توقف حركة الإبداع والتجديد، بل هى دعوة حافزة إلى التجديد الواعى، المستوعب فى وقت واحد للأصالة التراثية وابتكارات العصر، فى إطار ملاءمته ظروفنا وتراثنا الروحى ومناخ بيئتنا الصحراوية فى كثير من البلدان، بعد أن سيطرت روح التغريب والتقليد والحيرة الثقافية، وابتعدنا عن التميز الحضارى وعن تراثنا الفكرى الروحى.

فى الكثير من صفحات هذا الكتاب ينسكب على لغة المؤلف ماء الشعرية ووهجها حين يعبر عن امتزاجه عقلاً وروحًا بتجليات فن عمارة البيئة فى منظومته الإسلامية العربية، وحين يعلق على آراء أساتذة عمارة البيئة الأجانب، فنحس أن لغته قد أصبحت لغة شاعر، استطاع بحسه المرهف أن يصغى لصوت العمارة ويستمع لغة الطبيعة ويحاور شتى الكائنات وعناصر الوجود من حيوان ونبات وجماد، وأن يتغلغل بوعيه فى عناصر الجمال ونورانيته المشعة فى الطبيعة والكون، وأن يستغرقه البحث الدائب والولوج المعرفى إلى عالم النصوص الأدبية والشعرية المتناثرة كالعقد المنظوم فى ثنايا هذا الكتاب، تزينه وتجلو حقائقه وتوثق مادته المعرفية، وتضفى عليه طابعًا جميلاً ينظم هذه العناصر، ويصنع منها مادته المعرفية، وعطره الروحى وأقباسه الفنية.

تبقى تهنئة من القلب للصديق العزيز والأخ الكريم الدكتور صفى الدين حامد أستاذ عمارة البيئة وعاشق الجمال وأقباس الروحانية، على إنجاز هذه الدراسة الرائدة، وفتح الطريق أمام من يجيئون بعده من الباحثين والدارسين.

فاروق شوشة

أعد نفسه بحثياً ومنهجياً لهذه المهمة الصعبة، من خلال اطلاعه بصورة مبكرة على موضوعات التراث والتاريخ الحدثى والثقافى والسياسى العربى الإسلامى، ومن خلال امتلاك الأدوات العرفية اللازمة التى أهلته لمتابعة الدراسات عن الإسلام مستخدماً المنهجيات الحديثة فى مجال التاريخ الثقافى، أو فى مجالات اجتماعيات المعرفة التى كانت المدخل الرئيسى لأبحاثه فى ميدان الإسلام. فضلاً عن ذلك، فقد عمل على تفحص المواقف المتضاربة من الإسلام من قبل العديد من الاتجاهات والقوى تنافست على تفسيره وامتلاكه.

من هنا توزعت اهتماماته حول ثلاثة محاور أساسية، موضوعها الرئيس «سياسات الإسلام»، حيث انصرف فى المحور الأول إلى تفحص التجربة السياسية الإسلامية فى العصر الوسيط، وانصرف فى المحور الثانى إلى تحليل ونقد تجربة الإسلام المعاصر فى وجهيها الحركى والنظرى. أما المحور الثالث يتعلق بتطوراته عن المستقبل الممكن والمستحيل الذى ينوس بين التصالح مع العالم والتاريخ، أو التخاصم مع الذات والعلم. فالإسلام والسياسات الإسلامية، هى المواضيع المحورية لأبحاث السيد برمتها، ويحاول هذا الكتاب تتبع أفكاره من خلالها.

■

الفلسفة الأسس

نيغيل واربورتون

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٩، ٢٧١ صفحة



شهد العالم العديد من الفلاسفة العظام، الذين وردت مساهمتهم فى معظم الكتب الفلسفية وفقاً لتسلسل تاريخى، وكتاب نيغيل واربورتون، هو واحد من هذه الكتب، إلا أنه يستعمل مقاربة ترتكز على المسائل الفلسفية التى يعيشها البشر باعتبارها مسلمات لا يمكن مناقشتها، وهى المسائل التى تندرج تحت عنوان «معنى الحياة»، ومنها: الدين، الصواب والخطأ، السياسة، طبيعة العالم الخارجى، العقل والعلوم والفنون.

فالفلسفة، برأى المؤلف، هى التفلسف، وهى نشاط يحفز التفكير فى البراهين الأساسية التى يستعملها الفلاسفة وإيجاد براهين أخرى مناقضة لها.

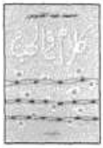
فهذا الكتاب هو موجز لأهم المقاربات الفلسفية لكل موضوع مع عدد من المناقشات لها، ما يمكن أن يكون مصدراً تستقى منه مقالات إضافية فى هذا المجال.

■

كلام فى الحب

تأليف: محمد عبد القدوس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٩، ١٣١ صفحة



يقول المؤلف عن كتابه: «أخطر أزمة من وجهة نظرى تواجه بلادى اسمها يتكون من كلمتين: اختفاء الأخلاق! والسبب أن الحب مفتقد بيننا وفى حياتنا برغم كثرة الكلام عنه! وكتابى الذى بين يديك يحاول إصلاح هذا الخلل، وقد بذلت جهدى فى الحديث من الواقع، وابتعدت عن إلقاء دروس فى الأخلاق!!

وحرصت على تناول تلك العاطفة الجميلة من مختلف جوانبها، ولم أركز على العلاقة بين الرجل والمرأة أو روميو وجولييت فقط.

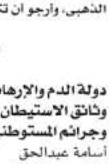
وأخيراً أقول لك إن هذا الحب الشامل لا يعرفه إلا الإنسان صاحب القلب الذهبى، وأرجو أن تكون حضرتك منهم!».

■

دولة الدم والإرهاب
وثائق الاستيطان الصهيونى وجرائم المستوطنين فى إسرائيل

أسامة عبدالحق

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩، ٢٤٨ صفحة



تميز إنشاء دولة إسرائيل عن كل المشروعات الاحتلالية والاستعمارية فى أنها قامت على أساس إحلال شعب مكان شعب آخر، فكانت الهجرة اليهودية واستيطان فلسطين، الأساس الاستراتيجى لمشروع دولة إسرائيل، والمستوطنات اليهودية هى تطبيق عملى للفكر اليهودى، انطلاقاً من مقولة «أرض بلا شعب»، فالإجماع الصهيونى الذى يشكل الإطار الإدراكى والأيديولوجى لكل الصهاينة يستند إليها، ومن ثم فإن اليهود، كل اليهود، لهم حقوق مطلقة فيها، والحقوق المطلقة لا تقبل الآخر، هذا الإجماع يتفق عليه كل الصهاينة، بحيث يستبعد من وجدان الصهاينة، فلسطين وشعبها وتاريخها، بل وجغرافيتها.

وهو ما عبر عنه عضو الكنيست الإسرائيلى السابق «يشعياهو بن فورت»، بقوله: «إن الحقيقة، هى لا صهيونية بدون استيطان، ولا دولة يهودية، بدون إخلاء العرب ومصادرة أراض وتسييجها».

إن مبدأ السطو على أرض الفلسطينيين، وطردهم وتوطين قادمين جدد فيها، فكرة تقوم على أساس أيديولوجى، ذات بعد استراتيجى، يجسده مفهوم الاستيطان، وتسانده فتاوى الحاخامات، الذين لا يدعون فقط إلى تطبيق حكم التوراة، الذى نزل فى قوم «عملاق»، على الفلسطينيين، الذى ينص على «قتل الرجال والأطفال، وحتى الرضع والنساء والعجائز منهم، وسحق البهائم».

إنها دولة «الدم والإرهاب»، التى قامت، ولا تزال، على حساب الدم الفلسطينى والعربى، من خلال المجازر الوحشية بحق الأبرياء من أبناء فلسطين والعرب.

لذا حاولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن نقدم توثيقاً للاستيطان الصهيونى فى أرض فلسطين وفلسفته، وجرائم المستوطنين، منذ قدومهم لهذه الأرض، كما حرصنا على تقديم تاريخ فلسطين القديم، والدولة «الإسرائيلية» الأولى، لكشف زيف هذا الادعاء الصهيونى، بأنهم يعودون إلى دولتهم الأولى فى «يهودا والسامرة»، حيث كان وجودهم عابراً فى هذه الأرض، وقد جاء عبر القتل والتدمير والاغتصاب لأرض كنعان أيضاً.

أما القسم الثانى، فقد خصصناه لمجموعة من الوثائق المهمة فى هذا السياق.

■

نصوص مختارة من مقدمة ابن خلدون

اختارها وقدم لها وعلق عليها: د. محمد العبدة

القاهرة: مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠٩



يقول الباحث فى مقدمة الكتاب: إن صلتى بالمقدمة ليست حديثة العهد: إذ كنت أرجع إليها بين الحين والآخر، أعيد قراءتها فأجد فيها ما يساعد المسلم على تفسير بعض أحداث التاريخ، كما يساعده على التحليل والمقارنة، ثم إنى اطلعت على كثير من الدراسات التى كتبت حول المقدمة، وإذا جُلّ هؤلاء الدارسين أصحاب اتجاهات بعيدة عن الاتجاه الإسلامى الأصيل، وكل صنف منهم يحاول جر المقدمة إلى جانبه أو إيجاد ثغرة ينفذ منها لتعضيد آرائه وتشيعاته وما كتبه غيرهم لا يقاس إلى غزارة إنتاجهم.

وإذا كانت المقدمة نتاج الثقافة الإسلامية فيجب أن نعيدها إلى موقعها الحقيقى؛ وأصحاب الفكر الإسلامى الأصيل أولى بدراسة المقدمة للاستفادة منها، فالأقربون أولى بالمعروف.

وكان مما شجعنى على اختيار نصوص من المقدمة والتعليق عليها ما رأيت من إعراض بعض من ينتسبون للدعوة الإسلامية فى هذا العصر عن دراسة التاريخ وشئون الاجتماع الإنسانى؛ وهذا مما جعلهم ضعيفى القدرة على التحليل والمقارنة ومعرفة الواقع، والذى لا يعرف الماضى لا يعرف الحاضر.

إن قراءة المقدمة مدخل لفهم ما يجرى حولنا، ومعرفة أسباب التقدم والنهوض، والتعود على التفكير السليم، ومعرفة العلل والأسباب.

■

أمريكا فى عالم يتغير

عاطف الغمرى

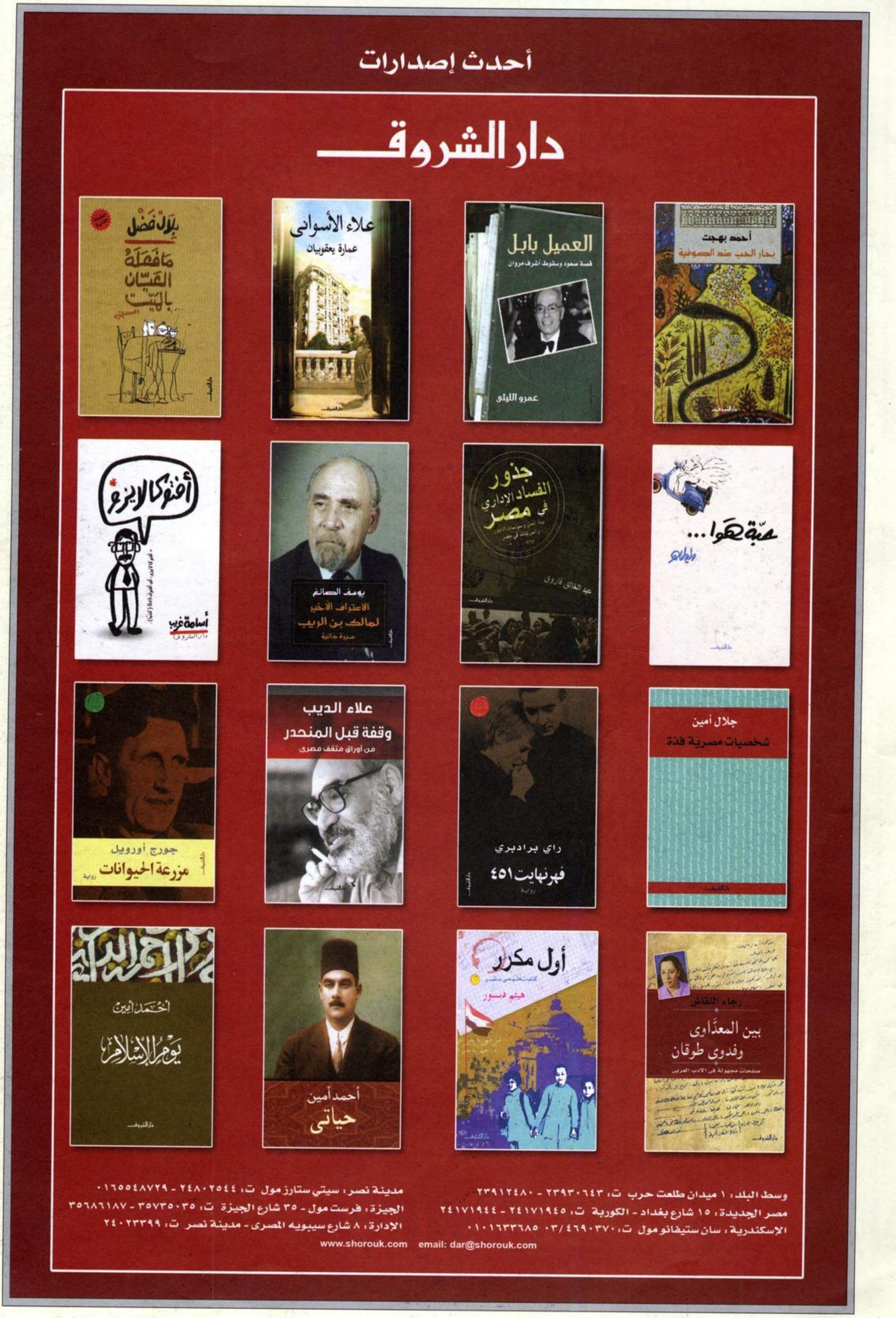
القاهرة: المجلس المصرى للشئون الخارجية بالتعاون مع مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٩، ١٩٢ صفحة



هذا الكتاب يقدم رؤية لأمريكا بعد انتهاء حكم جورج بوش، ويتعرض للتغيير الجارى فى الفكر السياسى للنخبة، والرأى العام، فى الولايات المتحدة، وللتحولات المهمة فى العالم، اللتين تشكلان معاً، ملامح واتجاهات التغيير المتوقع فى سياسة أمريكا الخارجية، ودورها فى العالم فى القرن الحادى والعشرين الذى يخلف ما كان يعرف بالقرن الأمريكى.

ويتناول المعنى الذى رفعه أوباما وهو التغيير شعاراً لعهده، والذى يعبر عن حركة أوسع سبقت أوباما ذاته، وبدأت ملامحها تظهر فى السنوات الثلاث الأخيرة، وظهرت فى دعوة لأكبر خبراء وصناع السياسة الخارجية للاعتراف بأن التغيير يحتاج قفزة خلاقة فى الخيال السياسى الأمريكى، تستوعب الواقع الجديد لعالم يتغير.

■


أحدث إصدارات
دار الشروق
بلال فضل
ما فعله العيان بالميت
علاء الأسواني
عمارة يعقوبيان
العميل بابل
قصة صعود وسقوط أشرف مروان
عمرو الليثي
أحمد بهجت
بحار الحب عند الصوفية
أسامة غريب
يوسف الصائغ
الاعتراف الأخير لمالك بن الريب
سيرة ذاتية
جذور الفساد الإداري في مصر
عبد الخالق فاروق
حبة هوا...
جورج أورويل
مزرعة الحيوانات
رواية
علاء الديب
وقفة قبل المنحدر
من أوراق مثقف مصرى
راي برادبري
فهرنهايت ٤٥١
رواية
جلال أمين
شخصيات مصرية فذة
أحمد أمين
يوم الإسلام
أحمد أمين
حياتى
أول مكرر
هيثم دبور
رجاء النقاش
بين المعداوى وفدوى طوقان
صفحات مجهولة فى الأدب العربى
وسط البلد: ١ ميدان طلعت حرب ت: ٢٣٩٣٠٦٤٣ - ٢٣٩١٢٤٨٠
مصر الجديدة: ١٥ شارع بغداد - الكوربة ت: ٢٤١٧١٩٤٥ - ٢٤١٧١٩٤٤
الإسكندرية: سان ستيفانو مول ت: ٠٣/٤٦٩٠٣٧٠ ٠١٠١٦٣٣٦٨٥
مدينة نصر: سيتي ستارز مول ت: ٢٤٨٠٢٥٤٤ - ٠١٦٥٥٤٨٧٢٩
الجيزة: فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة ت: ٣٥٧٣٥٠٣٥ - ٣٥٦٨٦١٨٧
الإدارة: ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر ت: ٢٤٠٢٣٣٩٩
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com